في فقه الإصلاح والتجديد

عند الإمام حسن البنا

« ٧ »

ركــن الثبــات

تحليل وشرح أعده

الدكتور على عبد الحليم محمود

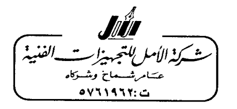
من علماء الأزهر

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

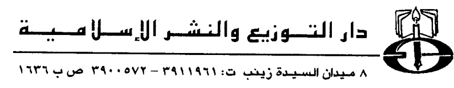
رقم الإيداع : ٨٧٧٠ / ١٩٩٧م

الترقيم الدولى

I. S. B. N. 977 - 265 - 172 - 6







بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات،

وإلى الذين هداهم الله إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وإلى الذين ينادون مخلصين بأن الإسلام هو الحل لكل مشكلات الحياة،

إليهم أقدم هذه الحلقة السابعة من سلسلة:

فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى.

حلقة: «ركن الثبات» من أركان البيعة العشرة.

سائلا الله تبارك وتعالى أن ينفع بها من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

على عبد الحليم محمود

القاهرة: فى شهر المحرم من سنة ١٤١٧هـ

الموافق لشهر مايو من سنة ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يَدَىْ هذه السلسلة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،

وبعـد :

فإن هذه السلسلة من الكتب وهى : «فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا رحمه الله» تستهدف أهدافا عديدة، أودُّ الإشارة إليها فى هذه المقدمة للحلقة السابعة من حلقات هذه السلسلة وهى «حلقة الثبات» وكنت أشرت إلى بعضها فى حلقات سابقة.

وهذه الأهداف هى :

أولا :

إلقاء ضوء على المفهوم الصحيح لكل كلمة من الكلمات التى هى عنوان لهذه السلسلة وهى : الفقه، والإصلاح، والتجديد ليكون الناس على علم بها فلا تضطرب لديهم الرؤية، ولا يضل بهم الطريق إلى الإصلاح والتجديد.

ثانيًا :

توضيح أن الإصلاح والتجديد لابد أن يقوما على أساس راسخ من الفقه الصحيح لهذا الدين الخاتم، والفقه فهم عميق وعمل صالح، وذلك من أجل أن يتجنب الناس التقليد والتبعية والجمود، ومن أجل أن يراعوا فيما يمارسون من إصلاح وتجديد ظروف الحياة الإنسانية وما يطرأ عليها من متغيرات، يجب أن يأخذها المصلحون والمجددون فى اعتبارهم، حتى يكون إصلاحهم وتجديدهم ملائما لمقتضيات المنهج الإسلامى فى الحياة.

ثالثا :

بيان أن منهج الإسلام فى الحياة الذى تقتصر أصوله ومرجعياته على أصلين كبيرين هما : الكتاب والسنة، هذا المنهج له جانبان هما :

- الجانب الثابت من المنهج :

وهو كل ما يتصل بالعقيدة والعبادة والخُلُق، وهذا الجانب لا يدخله إصلاح ولا تجديد، لأنه ثابت غير قابل للتغيير ولا للتبديل.

- **والجانب المتغير من هذا المنهج:**

وهو كل ما يتصل بحياة الناس المختلفة باختلاف الزمان والمكان والظروف من نظم اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، وهذا الجانب هو الذى يحتاج ما بين آن وآخر إلى الإصلاح والتجديد، وهو الجانب الذى ورد فيه حديث رسول الله ﷺ الذى رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»؛ أى لابد من الإصلاح والتجديد لأمر هذه الأمة فى هذا الجانب من المنهج.

رابعا:

تأكيد أن هذا الإصلاح والتجديد للجانب المتغير من المنهج هو من صميم ما يجب على المسلمين من اجتهاد يؤدى بهم إليه، مستعينين فى ذلك بالقياس والمصالح المرسلة وسد الذرائع، حتى يصلوا إلى هذا الإصلاح والتجديد، وذلك يؤكد أن باب الاجتهاد فى أمور الدين مفتوح دائما لمواكبة متغيرات الزمان والمكان.

خامسا:

تأكيد أن المسلمين بغير إصلاح وتجديد لأمور دينهم ودنياهم سيجدون أنفسهم فى جمود وتبعية وقعود عن موكب الحضارة والتقدم، ثم يجدون أنفسهم متراجعين حضاريا[١]، وذلك ما يعانى منه المسلمون اليوم فى معظم أقطارهم، ويدفعون له أبهظ الأثمان.

تلك أهم أهداف هذه السلسلة أردت أن أشير إليها باختصار بين يدى هذا الكتاب.

ولنلق ضوءا على مفهوم كلمات الفقه والإصلاح والتجديد فنقول:

- الفقه - فى هذا العنوان - مصطلح يعنى التعمق فى الفهم، كما يعنى إخراج الفهم من حيز النظرية إلى مجال التطبيق، وكذلك كان يفقه الإمام البنا - رحمه الله - الإصلاح والتجديد، ويحاول - ما وسعه الجهد والجهاد - أن يخرج كلا منهما من مجال الكلام والتنظير إلى ميدان العمل والجهاد.

---

(١) انظر للمؤلف: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم، وطرق التغلب عليه. نشر دار الوفاء - القاهرة: ١٤١١ هـ ١٩٩١م.

● والإصلاح: يكون للأمر أو للشيء الذى فيه فساد - أى خروج عن الاعتدال - بعد وجوده صالحا، وقد كان للإمام البنا فقه فى إصلاح ما فسد من حال المسلمين وظروفهم، بل فهمهم للإسلام نفسه، كما كان له فقه فى إصلاح مَنْ فسد من المسلمين ليعود به إلى حال الصلاح الذى فطره الله عليه أو الذى يجب أن يكون عليه، وكثيرا ما كان يقول: إن شُعب الإخوان ودُورهم، وإن الدعوة إلى الله تشبه المشفى يدخلها المريض فيصح وينصلح حاله.

● والتجديد هو الترميم والإصلاح والتغيير لما عليه الحال، وبخاصة إذا كان هذا الحال ليس صالحا، وهذا التجديد من سنة الله فى المصلحين المجددين من المسلمين، كما جاء ذلك على لسان النبى الخاتم محمد ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(1).

● ومن التجديد مواكبة المتغيرات وإحسان التعامل معها، إما بهضمها فكريا وثقافيا بحيث تتلاءم مع العناصر الأساسية للأمة، ولا تتعارض مع شيء من أصول الدين وأحكامه، وآدابه، ولا تؤدى إلى تشويه الشخصية المسلمة؛ وذلك أن العجز عن مواكبة هذه المتغيرات، وبخاصة ما كان منها ملائما أو غير معارض للقيم الإسلامية، هذا العجز يعتبر لونا من ألوان الجمود الفكرى والتخلف العلمى والتراجع الحضارى، وكل ذلك غير محمود، بل غير جائز من الأمة المسلمة التى أراد الله تعالى لها أن تكون الأمة الوسط التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

● وكان للإمام البنا فى ذلك التجديد فقه مواكب لهذه المتغيرات موجه لها بما يتفق وقيم الإسلام وأحكامه، وضح ذلك فى كثير من الرسائل التى كتبها للإخوان خاصة، وفى مقالاته التى كتبها للمسلمين عامة.

● وليست رسالة «التعاليم» التى نتصدى منذ فترة لشرح أركان البيعة العشرة فيها، ليست تلك الرسالة إلا فقها للإصلاح والتجديد على نحو ما بينا فى تحليل هذه الأركان فى كتبنا السالفة:

١ - ركن فهم أصول الإسلام.

٢ - وركن الإخلاص فى مجالات العمل الإسلامى.

---

(1) رواه أبو داود والحاكم بسنديهما عن أبى هريرة.

٣ – وركن العمل، أو منهج الإصلاح الإسلامى للفرد والمجتمع.

٤ – وركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به – .

٥ – وركن التضحية،

٦ – وركن الطاعة،

– وذلك هو التجديد الذى أشار إليه الحديث النبوى الشريف الذى ذكرنا آنفا: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

● ولقد كانت قضية التجديد فى أمور الدين، وما تزال، من أكثر القضايا احتمالا لاختلاف وجهات النظر بين المفكرين والمصلحين من المسلمين.

● ونستطيع أن نرصد فى فاتحة هذا الكتاب مذاهب ثلاثة فى هذا التجديد، نعرضها هنا ليستبين القارئ أيها أولى بالاتباع، وأيها أقرب إلى فقه الإصلاح والتجديد:

المذهب الأول :

وهو مذهب يقوم على رفض التجديد مطلقا، والوقوف بقوة فى مواجهته، واعتباره بكل معطياته خروجا على الشريعة الكاملة التامة، لأنه يتضمن دلالة على أن الشريعة الإسلامية فى احتياج لهذه المتغيرات، والأصل ألا يكون هناك احتياج.

– إن أنصار هذا المذهب يغفلون عن طبائع الأشياء، وطبيعة الحياة الإنسانية المستمرة فى التغيير والتلاؤم مع المستجدات، إنهم لم يقبلوا هذه المستجدات بحجة لو تأملوا فيها وتدبروا لأراحوا واستراحوا، إذ كيف يتخذون هذا الموقف الرافض لكل تجديد دون التدبر فى الحديث النبوى الشريف الذى يخبر بأن الله تعالى يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها؟!

● إن من شأن المسلمين أن يحاولوا التجديد فى أمور الدين لا فى أمور الدنيا وحدها، وبخاصة فى الأمور المتغيرة وغير الثابتة.

● إن بعض هؤلاء الرافضين للتجديد ينادون بأن المسلمين اليوم يجب أن يعيشوا فى القرن الخامس عشر الهجرى على نحو ما كان يعيش عليه أو به المسلمون الأوائل من وسائل العيش وآلياته، بل أنماطه فى الملبس والمسكن والمطعم والمشرب وما إلى ذلك!!!

● وبعض هؤلاء ينادون بأن التجديد فى أى أمر من أمور الحياة يُعد من المحرمات التى لا يجوز للمسلمين أن يقترفوها!!!

ولا أحب أن أسمى هؤلاء ولا أولئك وإن كانت أسماؤهم وانتماءاتهم لا تخفى على أى مثقف مسلم؛ لأنى لا أرغب فى إدانة من اجتهدوا فأخطأوا، فالله تعالى يتولاهم ويتولانا جميعا بما يصلح لنا أمور ديننا ودنيانا.

● وعلى وجه القطع والتأكيد، لم يكن الإمام حسن البنا من أنصار هذا المذهب، ولا ممن يقبلون ما ينادى به، لا أقول هذا من عند نفسى، ولا استئناسا بما كنت عليه من قرب ومعرفة بالإمام البنا رحمه الله، ولكنى أقول ذلك من خلال دراستى لما كتب الإمام البنا من رسائل ومقالات وكتيبات ومذكرات تعرضت لشرحها وتحليلها فى كتابى: «منهج التربية عند الإخوان المسلمين»[1].

● ويستطيع كل قارئ لوثائق الجماعة وأوراقها التاريخية وكلمات الإمام البنا وخطبه أن يتأكد من ذلك بنفسه.

● وليست دراستنا لهذه السلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عن الإمام حسن البنا إلا أدلة موثقة على صدق ما نقوله من أن الإمام البنا لم يكن يرفض التجديد رفضا مطلقًا، وإنما كان ممن يأخذون بهذا التغيير والتجديد فى ظل القواعد الشرعية المعروفة.

● وبغض النظر عما جَرَّ إليه هذا المذهب من تهجم أعداء الإسلام على الإسلام نفسه - لا على المسلمين أصحاب هذا المذهب - لأن هؤلاء الأعداء يخلطون غافلين أو عامدين بين الإسلام والمسلمين. وبغض النظر عن هذا - وهو خطير - فإن أنصار هذا المذهب يسيئون إلى فقههم للإسلام، وإلى كل من اتبعهم فسار على مذهبهم بصفة عامة، فإذا نظرنا إلى هذا المذهب من خلال فقه الدعوة والحركة من أجل الإسلام فإن أعدادا كبيرة من المسلمين المثقفين سوف تنصرف عن الإسلام نفسه نفورا من هذا المذهب، وخوفا من نتائج الأخذ به.

---

(١) كتاب موسع من جزءين كبيرين حللت فيه وثائق الجماعة وأوراقها التاريخية وأنا بصدد الوقوف على منهج الجماعة فى التربية نشرته دار الوفاء بالمنصورة بمصر فى طبعته الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

• وأنصار هذا المذهب ليسوا قليلى العدد، وإنما لهم وجود بل حضور فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وإن كانوا بمذهبهم هذا يساندون فكرا لا يستطيع أن يواجه الحياة فضلا عن أن يبقى ويستمر.

• وحسبنا أن نذكر من سلبيات هذا المذهب ما يلى :

– أن التجديد ليس شرا كله – كما يزعمون – وأن بعض هذا التجديد يجب الأخذ به إذا لم يتعارض مع الثوابت فى حياة المسلمين.

– وأن التجديد ليس معناه قبول كل جديد دون فحص – كما يتوهمون – لما يوافق الإسلام وما يعارضه، ومعنى ذلك أن رفضه كله دون تمييز، تفويت لمصالح قد تعود على المسلمين فى حاضرهم، أو تفويت لأمور قد تدفع عن المسلمين بعض الشر والضرر.

– وأن هذا الموقف منهم معناه رفض الاستفادة من تراث الحضارة الإنسانية برمته،مع أن هذا التراث ملك للبشرية كلها، وأن للناس جميعا أن ينتفعوا بما فيه، بل عليهم ذلك وبخاصة إذا لم يكن هذا التجديد مخالفا لقيم دينهم.

والمذهب الثاني:

وهو مذهب يدعو إلى إعادة النظر فى تراث المسلمين برمته، ثم تطويعه وتغييره ليلائم التجديد الذى جاء به هذا القرن العشرون، ويرون فى هذا العمل مرونة ومواكبة للمتغيرات، بل يرونه تجديدا!!!

• وهؤلاء وإن قالوا بتقديس كل ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام وقيم، إلا أنهم يعترضون على أمرين هامين – يعد الاعتراض عليهما فى غاية الخطورة، لأنه فى الحقيقة اعتراض على بعض ما شرع الله –.

هذان الأمران هما :

الأولى: مكان المرأة فى النظام الاجتماعى فى الإسلام، حيث يتصورون – مخطئين – أن الإسلام حرمها من بعض حقوقها التى تمارسها المرأة فى الغرب.

والآخر: الحدود التى شرعها الإسلام بقطع يد السارق ورجم الزانى المحصن وجلد الزانى غير المحصن، وجلد شارب الخمر والقاذف فى الأعراض، حيث يتصورون – مخطئين أيضا –

أن إقامة هذه الحدود قسوة بل وحشية يغنى عنها عقاب بالسجن أو التغريم!!!

● ولست بحاجة هنا إلى أن أرد هذا المذهب والقائلين به إلى منابعهم ومصادرهم ومرجعياتهم، فهى أوضح من أن أنبه إليها أو أفصل القول فيها، بل حسبى أن أشير إشارة عابرة إلى ذلك فأقول:

– إن أصحاب هذا المذهب تأثروا فيه بتقاليد الثقافة الغربية، حيث نجدهم جميعا ممن رُبُّوا تربية غربية أو ثقفوا ثقافة غربية فى جامعات الغرب ومعاهده ومدارسه، أو واصلوا دراساتهم العليا هناك، سواء أكانت هذه الجامعات والمعاهد فى بلاد الغرب أم كانت فى بلدان العالم الإسلامى الذى كان وما يزال يعج بالجامعات والمعاهد التى تفرض ثقافتها وتوجهها المناقض للتوجه الإسلامى على أبناء المسلمين!!!

ولو شئت أن أسمى هؤلاء بأسمائهم لفعلت، ولكن ما جدوى هذا وما تأثيره؟

وهؤلاء جميعا – إلا من رحم ربى – أحدثت فيهم الثقافة الغربية ما لابد لها أن تحدثه، وقد اتضح هذا فى أمرين خطيرين:

أحدهما :

زعزعة ثقتهم فى الإسلام؛ منهجه ونظامه وما جاء به من أحكام وأخلاق وآداب.

والآخر:

إقناعهم بشكل مباشر أو غير مباشر، واقتناعهم بأن الدين الإسلامى دين متجمد غير صالح لهذا الزمان، لأنه جاء فى زمان مضى ومضى أهله معه!

– وهذه وتلك مقولتان لعدد من أعداء الإسلام من المستشرقين من شرق وغرب ممن يدينون باليهودية أو الصليبية.

– وأصحاب هذا المذهب يرددون هذه المقولات دون وعى لأبعادها وآثارها فى نفوسهم وذويهم وأوطانهم، فرحين بأنهم أصبحوا غربيين أو يساريين أو علمانيين أو تقدميين أو ثوريين!!!

– وهؤلاء وإن وقف بعضهم فى مواجهة الاستعمار تجاوبا مع متطلبات سياسية – ربما رسمت

لهم – فطالبوا بالتحرر من الاستعمار إلا أنهم سقطوا فى حمأة الأفكار الاستعمارية الغربية المعادية للإسلام، وتبنَّوه بإخلاص الدعوة إليها والترويج لها، وسموا ما قاموا به فى ذلك تغييرا أو تجديدا أو تطويرا أو تنويرا!!!

– وهؤلاء الذين يدعون إلى هذا المذهب وقعوا بهذا فى أخطاء كثيرة بعضها فكرى ثقافى، وبعضها وطنى سياسى، وبعضها إسلامى، ونحب أن نذكر من هذه الأخطاء ما يلى:

الأول:

سوء فهمهم للإسلام، وضحالة ثقافتهم فيه؛ حتى إن بعضهم يجهل أولياته كما يبدو ذلك فى كتابتهم، ومع هذا الجهل يكتبون عن الإسلام كأنهم يعرفونه!!!

والثانى:

انبهارهم بكل ما هو غربى وتقبله تقبلا مطلقا بكل ما فيه من عيوب –كما قال قائلهم– دون فحص أو تمييز لغثه وسمينه، مع أن الغث فيه مما يخالف الدين ليس بالقليل، ولست أدرى كيف تقبلوا ذلك دون أن يخضعوه لمنهج الشك الذى أخضعوا له الدين؟ أو لمنهج العلم والمنهجية الغربية فى البحث التى تعلموها هناك؟

والثالث:

أنهم فقدوا الثقة فى قدرة الإسلام ومنهجه على حل مشكلات الناس، وعلى مواجهة المتغيرات بأسلوب علمى يأخذ ويترك وفق معايير معينة، حتى إن بعض غافليهم – وما أكثر الغافلين منهم – يتندر بمقولة: «إن الإسلام هو الحل» كأنها مقولة غير صحيحة!!!

والرابع:

أنهم تحولوا نتيجة لكل هذا إلى أن أصبحوا دعاة أو أذنابًا للفكر الغربى المناوئ للإسلام فى ماضيه وحاضره – والمعادى للمسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض، حتى ولو كانوا مسلمين أوربيين كمسلمى البوسنة والهرسك وكرواتيا – ومن أجل هذا فإنهم يستعينون دائما بخبراء الغرب فى كل المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية، ولأن هؤلاء الخبراء أعداء فى الحقيقة فإن المشكلات فى تزايد وتراكم، والدليل على هذا ذلك الكم الهائل من الديون والتبعية والتخلف الحضارى المشاهد على رقعة العالم الإسلامى كله!!!

والخامس:

أنهم رفضوا كل منهج إسلامى للإصلاح مقدما، وأدانوه قبل أن يعرفوه فضلا عن أن يجربوه، وجرموا المنادين به وزجوا بدعاته فى السجون والمعتقلات، بل قتلوا بعضهم فى رائعة النهار، ومن نجا من القتل شرد، وتوبع فى مهربه بما يشق على أحد احتماله، كل هذا مع تبجحهم بأنهم من دعاة الحرية ومن أنصار حقوق الإنسان!!!

والسادس:

أنهم صنفوا من كان معهم فى موالاة الغرب أو الشرق ومعاداة الإسلام بأنهم الشعب وأنهم حماة المكاسب الشعبية ودعاة التنوير، وصنفوا المتمسكين بمنهج الإسلام بأعداء الشعب وأعداء مكاسبه ودعاة الرجعية والغيبيات والظلاميات – كما يقولون!! – يفعلون هذا موالاة للغرب وللعلمانية وللشيوعية المنهارة فى عقر دارها، ويتلقون كل يوم صفعات بأحذية الغرب والشرق على أقفيتهم، وبركلاته الموجعة فى نظامهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى بحيث قد أصبحت استفاقتهم من أثر ذلك مستحيلة أو تكاد!!!

والسابع:

أنهم – وبتأثير أعداء الإسلام فيهم – حرموا الإسلاميين من التعبير عن أنفسهم وبرامجهم السياسية والإصلاحية بوصفهم مواطنين، وأدانوا كل صوت ينادى بالإسلام وكل إصلاح يقوم على منهج الإسلام، وحظروا بقوانينهم الجائرة المصطنعة – التى تناقض ما يزعمون من ديموقراطية – إنشاء أى حزب إسلامى، مع أن العالم الغربى الذى اتخذوه قبلة لهم مليء بالأحزاب اليهودية والمسيحية. بل إن هناك دولة بكامل كيانها تقوم على المسيحية هى «الفاتيكان»!!!

لقد صرّح أكثر من واحد من رؤسائهم بأنه لن يسمح بقيام حزب إسلامى طالما هو حى!!!

إن الغرب وإن كان يرضيه التضييق على الإسلام والمسلمين إلا أن العقلاء منهم يسخرون من هذا التصريح من رئيس يقول إن نظام الحكم فى بلاده ديموقراطى!!!

والثامن:

أنهم وقد أعماهم الحقد على الإسلام ومنهجه فى الإصلاح حرموا المسلمين من حقوقهم السياسية يوم جاءت بهم صناديق الانتخابات أو لعبة الديموقراطية التى يهذون بها، كما

حدث من جبهة الإنقاذ الإسلامى فى الجزائر، وما هو إلا أن تحركت فرنسا التى كانت تقول: إن أرض الجزائر امتداد لفرنسا، فتحرك الجيش الجزائرى بانقلاب فعزل الشاذلى بن جديد وألغى الانتخابات وقتَّل وسجن وطارد المسلمين فى الجزائر فى قصة، لن ينساها التاريخ ولو بعد ألوف السنين، ولا تزال أحداث القصة تجرى حتى الآن، ولكن الله من ورائهم محيط.

والتاسع:

أن كثيرا من حكام تلك الأنظمة الموالية للغرب فى نظامه القديم أو نظامه «البوشى الجديد» أخذت تستعدى الغرب على الإسلاميين فيها وتطلب منه الخبراء والوسائل التى تقمع بها كل حركة إسلامية، مع أن ذلك فى محصلته على حساب حريتها واستقلالها، وهو مما يتطلب كفاح عشرات السنين من أجل التخلص من هذه التبعية وأولئك الخبراء وتلك الآليات فى التنصت والرصد والتسجيل، ولهولاء وأوليائهم نقول: ﴿ ... **لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٩].

والعاشر:

وهو الأخير فى جمعنا لهذه الأخطاء، هو مناصبة العداء لأى حكم إسلامى أو حكومة إسلامية فى أى مكان من العالم كراهية للإسلام وخوفا على ثقافة الغرب وقيمه ومصالحه، كما حدث فى الوقوف ضد الثورة الإسلامية فى إيران وقوفا غربيا أولا ثم عربيا بإغراء مشئوم العراق بالدخول فى حرب استمرت تسع سنوات أكلت الأخضر واليابس من البلدين المسلميْن، وكما يحدث الآن من التضييق على السودان وحصاره سياسيا واقتصاديا.

تلك مجمل أخطائهم، وهذه غاية جهدهم، غير أن المد الإسلامى آخذ فى الازدياد، وحركة التجديد والإصلاح ماضية فى طريقها، لا تبالى بما يضعه العدو فى هذا الطريق من عقبات ولا بما تقدمه من ضحايا وشهداء، ولابد أن يأتى يوم تتحقق فيه سنة الله فى دعوته ودعاته، فيكتسح ذلك ما أمامه من باطل وزيف وخداع وفساد، وسنة الله كونية لا تعرف توقفا فى أى زمان أو مكان، وهى سنة أكدتها آيات القرآن الكريم وكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التى نشير إلى بعضها فيما يلى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال عز وجل: ﴿ ... **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد: ١٧] .

– روى الإمام أحمد بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس».

– وروى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا – فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير، تكرمةَ الله لهذه الأمة».

● ولقد تقدم الإمام البنا رحمه الله بأكثر من برنامج للإصلاح إلى الحكام فى مصر.. فى مختلف أقطار العالم الإسلامى وكان برنامجا نابعا من الإسلام؛ من الكتاب والسنة، وطالبهم بتطبيقه ولكن هؤلاء الحكام – الذين كان أكثرهم إن لم أقل جميعهم يعيشون تبعية للغرب – ورفضوا هذا البرنامج فساقوا البلاد برفضهم هذا إلى المهاوى فى السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم والإعلام، ومكنوا بهذا الرفض لأعداء الإسلام من البلدان الإسلامية، حتى أصبح هذا العدو اليوم يسيطر على رغيف الخبز والثقافة والتعليم والإعلام.. على حرية التعبير، فضلا عن السيطرة السياسية والاقتصادية والدفاعية!!!

والمذهب الثالث :

وهو مذهب يقوم على استبعاد الرفض المطلق للتجديد، واستبعاد القبول المطلق لكل ما هو جديد. وإنما هو مذهب وسطى يقبل ما لا يتعارض مع ثوابت الإسلام، ويرفض ما يتعارض معه فى عقلانية وحيادية وإيمان بأهمية التجديد.

● وهذا المذهب هو الذى أخذ به الإمام البنا وأخذت به جماعة الإخوان المسلمين منذ وضع قانونها الأساسى، كما سنوضح ذلك بنصوص من القانون – وهو أهم وثيقة من وثائق الجماعة –.

● إنه مذهب الإصلاح والتجديد مع المحافظة على الأصالة والحرص على القيم الثابتة التى جاء بها الإسلام.

ولهذا المذهب أسس يعتمد عليها يمكن أن نوجزها فيما يلى:

أولا :

الإصلاح لكل ما فسد من أمور المسلمين فى الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والإعلامية والتربوية عموما، والحضارية بوجه أعم.

ثانيا :

التجديد لكل ما بلى أو تقادم أو تآكل فى نفوس الناس من عقائدهم وعباداتهم، وقيمهم الخلقية، بحيث تتفق مع الإسلام.

● وهذان الأساسان يستهدفان أن يستعيد الإسلام حقيقته فى نفوس المسلمين، ويعيد بناء تركيبه الوظيفى فى الحياة ليستقيم به الناس على الحق، وينجحوا به فى تحقيق مصالح دنياهم وأخراهم.

ثالثا :

الاهتمام بالخبرة التاريخية للمسلمين، ووضعها فى الاعتبار عند ممارسة أى إصلاح أو تجديد، إذ من الخطأ الفادح إهمال هذه التجارب التاريخية مع غنائها وقدرتها على إعطاء العظة وتعميق الرؤية، ولقد علمنا القرآن هذا النظر والتأمل فى الماضى قريبه وبعيده لأخذ العبرة، وشق طريق صحيح فى الحياة، وما أكثر الآيات القرآنية التى طالبت بذلك.

– ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [**يوسف** : ١٠٩] وقد تكرر طلب السير فى الأرض فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة[١].

رابعا :

وضع الوظيفة الحضارية للإسلام فى الاعتبار، وذلك أن الإسلام ليس مجرد عقائد وعبادات وقيم، وإنما هو حضارة كاملة بكل ما تعطيه الحضارة من معنويات وماديات، وبكل ما تنادى به الحضارة الإسلامية من تقدير وتكريم للإنسان، وبكل ما تطالب به من إحسان التعامل مع الحيوان والنبات والجماد، ومفردات الكون كله.

---

(١) وذلك في سور الحج : ٤٦، والروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١، وغافر: ٨٢، ومحمد : ١٠، وآل عمران : ١٣٧، والأنعام: ١١، والنحل: ٣٦، والنمل: ٦٩، والعنكبوت : ٢٠، والروم: ٤٢، وسبأ: ١٨.

إنها حضارة تقوم على الاعتراف بالروح والعقل والبدن، كطاقات إنسانية من حق الإنسان أن يعبر عنها فى إطار من الشرعية التى تحفظ حقوقه وحقوق غيره.

إنها حضارة النظم الدقيقة للمجتمع فى سياسته واقتصاده، وفكره، وثقافته، ولذلك كانت حضارة تنشئ الإيمان والإسلام وتلزم بالعدل والإحسان، وتوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتدعو للجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

خامسا:

إن على الأمة الإسلامية كلها -وعلى الأخص دعاتها- أن تدعو إلى الله وأن تبذل فى سبيل الدعوة إليه ما تستطيع من جهد ووقت ومال وجهاد، فلا دعوة بغير جهاد، وإن الدعوة إذا عطلت أو حصرت فى المتخصصين فى علوم الإسلام ضاق ميدانها وخسرت كثيرا من الرجال القادرين عليها، وهى لا تحتاج إلى أكثر من أن يكون الداعى على بصيرة بما يدعو إليه: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨].

سادسا:

وعلى المسلمين فى شتى بقاع الأرض أن يتمسكوا بجذور حضارتهم الإسلامية وألا يصرفهم عنها صارف، ويجعلوا ولاءهم لها لا لسواها من حضارات الغرب والشرق، فإن تلك الحضارات تخلو من الإيمان بالله الواحد الأحد، وتهمل التكاليف الشرعية، وتطلق العنان للحيوان الكامن فى الإنسان، فتبيح الصلة الجنسية بغير زواج شرعى بل تبيح اللواط والسحاق «الشذوذ الجنسى» وتعلى قدر المادة على حساب الروح!

سابعًا:

رفض المفهوم المغلوط الشائع القائل بعلمانية الدولة والحكم.

- وإنما كان هذا المفهوم شائعا لأن كل من هب ودب واستطاع أن يمسك قلما ويسوّد قرطاسا، وتوظفه حكومة علمانية كاتبًا وتعطيه فى صحافتها حيزا، أصبح يتبنى فكرة علمانية الدولة؛ بمعنى طرد الدين من الساحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية فضلا عن الإعلامية!

وكل من جهر بهذا وأساء للإسلام كافأته الدولة بحجة أن هذه هى حرية الرأى، لكن عند ما يعبر الإسلاميون عن آرائهم فتلك جرائم تستوجب الاعتقال والتعقب والمراقبة ورصد حركة السفر والتوقيف فى المطار ذهابا وعودة!!!

إن الدولة فى معظم بلدان العالم الإسلامى بل والغربى تكافئ وتكرم كل من تهجم على الإسلام وافترى عليه المفتريات، بل إن بعضهم يقابله رؤساء الدول، ويُمنح المال والمنصب والجاه والحراسة المشددة كأنه رئيس دولة ظالمة!!!

إن بعض هذه الدول المسلمة تكافئ المتهجم على الإسلام بمكانة ومكان فى إحدى وسائل الإعلام، وتمد له فى الأسباب حتى يتخم وتفيض جوانبه إفرازات مضادة للدين عموما وللإسلام على وجه الخصوص، يحدث هذا فى الوقت الذى يحرمون فيه على الإسلاميين أن يحلموا - مجرد حلم - بحكومة إسلامية!!![1].

● وأما أن هذا المفهوم مغلوط ينادى به الغافلون عن الفروق الدقيقة بين ما نادت به أوربا من علمانية وما ينادون هم به من علمانية.

فنستطيع أن نذكر من هذه الفروق ما يلى:

- العلمانية التى نادت بها أوربا، هى أقصى درجات عداء أوربا للكاثوليكية وما كان فيها من سلبيات مارستها الكنيسة ورجالها، ومع ذلك لم تصل هذه العداوة إلى رفض الدين جملة وتنحيته عن حياة الناس، واستبعاد الظاهرة الدينية فى عمومها، وإنما كانت رفضا للمنظمات الكنسية التى عانت منها أوربا مئات السنين، ورفض اشتراك هذه المنظمات الكنسية فى المشاركة فى صنع القرار السياسى فحسب.

- والعلمانية التى ينادى بها معظم المسيطرين على الحكم فى البلدان الإسلامية، علمانية ابتدعوها، وزادوا فيها -على علمانية أوربا- رفضهم للدين كله مبادئه وقيمه ودعاته، وتحديهم لكل حركة إسلامية، بل لكل حزب إسلامى، مطلقين أسوأ الصفات وأخسها لكل ما هو إسلامى، بخلطهم بين الإسلام وبين أخطاء بعض المسلمين، والعداء الشديد الذى يصل إلى السجن والقتل لكل من ينادى بالإسلام نظام حكم ومنهج حياة.

كل ذلك فعلوه باسم العلمانية، والعلمانية من كل ذلك براء إذ لم تقتل أوربا من يعرفون عندهم برجال الدين ولم تسجنهم ولم تشردهم ولم تشوههم، وإنما قصارى ما دعت إليه علمانية أوربا هو رفض التنظيمات الكنسية وليس رفض الدين المسيحى!!!

---

(١) انظر جريدة الأهرام المصرية اليومية يوم ١/٨/٩٤ مقال في مكان ثابت للأستاذ سيد ياسين.

إن علمانيتهم مزيج من العلمانية واليسارية والشيوعية والاشتراكية واللادينية!!!

– وثالث الفروق بين علمانية أوربا وعلمانيتهم أنهم جهلوا أن الإسلام لا يوجد فيه منظمات تضم رجال دين لهم سلطة على الناس وسلطة على الجنة والنار وقدرة على مغفرة الذنوب وبيع قراريط فى الجنة، ولهم كراسى اعتراف يجلس عليها العصاة الراغبون فى التوبة.

- تجاهلوا ذلك كله، وأخذوا يحاربون فى غير ميدان ويزورون المعارك ويختلقون أسبابها، وتناسوا أن الإسلام يعرف وحدة العقيدة ووحدة العبادة ووحدة القبلة ووحدة النظام القيمى ولا يعطى سلطة دينية لأحد على أحد.

- وتجاهلوا أن الإسلام منهج حياة كاملة ونظام متكامل للحياة الإنسانية، تأتى فيه السياسة والاقتصاد جزءا صغيرا من كل كبير، وذلك أن الإسلام ومنهجه هو الإطار الكبير لكل مرافق الحياة الإنسانية.

- والفرق شاسع بين الإسلام بسماحته ومرونته وقدرته على مواكبة كل المتغيرات، وبين الحكومة الدينية «الثيوقراطية» كما يعرفها الغرب، وكما غالط فيها دعاة العلمانية المبتدعة، ودعاة نبذ الإسلام بزعم أنه حكومة دينية يجب أن يحمل أوزار «الثيوقراطية والكاثوليكية والمنظمات الكنسية فى العصور التى كانت تتحكم فيها الكنيسة فى البلاد والعباد!!!

- وهؤلاء العلمانيون المغالطون يصرون على ما يقولون، ويؤيدهم فى ذلك كل حاكم ظالم مستبد يحكم بالحديد والنار والقهر والعبث بحقوق الإنسان، ليقين هذا الحاكم بأنه قد يشترى العلمانيين بعرض من أعراض الدنيا فيسكتون عن ظلمه بل يبررون استبداده ويشيدون به وبعدالته.. ماذا يمنع هؤلاء أن يفعلوا وهم يعلمون أن صاحب السلطة يخلعهم ويجردهم إن هم امتنعوا. بينما هو على يقين بأن الإسلاميين لا يشترون بشىء، ولا يرضون عن استبداد الحاكم بحال!!!

- إن الحاكم المستبد يقول للناس بلسان حاله – كما قال سلفه – ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [**النازعات**: ٢٤]، ويقول بلسان مقاله ما قاله سلفه أيضًا: ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [**غافر**: ٢٩]، وما كان ذلك ليرضى الإسلام ولا المسلمين بحال من الأحوال.

مذهب الإمام البنا فى الإصلاح والتجديد :

يقوم هذا المذهب على الأسس التى أشرنا إليها آنفا حيث وعدنا بأن نستدل على ذلك بالقانون الأساسى لجماعة الإخوان المسلمين.

وجماعة الإخوان المسلمين هى جزء من تاريخ الإصلاح السياسى والاجتماعى والثقافى فى تاريخ مصر منذ عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٥٤م يوم صدر قرار حكومى بحلها، لأنها فى هذه الفترة التى تقارب ربع قرن من الزمان استطاعت أن تحقق إنجازات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ورياضية وكشفية لم تحققها جماعة مثلها فى هذه المدة أو مثلها.

فلقد استطاعت الجماعة فى هذه المدة الوجيزة نسبيا أن تنشئ أكثر من ألفى شعبة من شعبها تعج كل واحدة منها بأنواع الأنشطة التى أشرنا إليها، بحيث أصبحت هذه الشعب أندية اجتماعية ثقافية دينية سياسية أقبل عليها الشباب والشيوخ من كل حدب وصوب.

واستطاعت أن تقيم مؤسسات اقتصادية وشركات تجارية سدّت فراغًا ليس بالقليل فى اقتصاد مصر آنذاك.

واستطاعت أن تنشئ عددا من المدارس النهارية والليلية تعلم فيها الصغار وتمحو أمية الكبار وتقدم لهم هذه الخدمة التعليمية بالمجان تقريبا.

واستطاعت أن تنشئ فريقا للجوالة قوامه أكثر من عشرة آلاف جوال طبقوا قانون الكشافة بعد أن أدخلوا عليه من التعديلات ما يجعله غير متعارض مع أخلاق الإسلام ومبادئه.

واستطاعت الجماعة أن تشترك بكتيبة فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م أبلوا ضد اليهود بلاءً حسنا وفكوا حصار القوات المصرية فى الفالوجا.

وكل تلك أعمال من أجل الوطن العربى والإسلامى لا ينكرها منصف له عين ترى وقلب يعى.

والقانون الأساسى للجماعة وكثير من الوثائق والأوراق التاريخية لجماعة الإخوان المسلمين تنطق بهذا وتؤكده، مما نستشهد به فيما يلى:

ومن ذلك ما نشير إليه فى القانون الأساسى للجماعة على النحو التالى:

١ - الفقرة «أ» من المادة الثانية. ونصها هو:

« شرح دعوة القرآن شرحا دقيقا يوضحها ويردها إلى فطريتها وشمولها، ويعرضها عرضا يوافق روح العصر، ويرد عنها الأباطيل والشبهات » .

٢ – والفقرة « ب » من المادة الثانية أيضا، ونصها هو :

« جمع القلوب والنفوس على هذه المبادئ القرآنية وتجديد أثرها الكريم فيها، وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة » .

٣ – والفقرة « جـ » من نفس المادة الثانية، ونصها هو « تنمية الثروة القومية وحمايتها وتحريرها والعمل على رفع مستوى المعيشة » .

٤ – والفقرة « د » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« تحقيق العدالة الاجتماعية والتأمين الاجتماعى لكل مواطن، والمساهمة فى الخدمة الشعبية، ومكافحة الجهل والفقر والرذيلة، وتشجيع أعمال البر والخير » .

٥ – والفقرة « هـ » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« تحرير وادى النيل والبلاد العربية جميعا والوطن الإسلامى بكل أجزائه من كل سلطان أجنبى، ومساعدة الأقليات الإسلامية فى كل مكان، وتأييد الوحدة العربية تأييدا كاملا، والسير إلى الجامعة الإسلامية » .

٦ – والفقرة « و » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« قيام الدولة الصالحة التى تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عمليا، وتحرسها فى الداخل وتبلغها فى الخارج » .

٧ – والفقرة « ز » من نفس المادة الثانية، ونصها هو :

« مناصرة التعاون العالمى مناصرة صادقة فى ظل المثل العليا الفاضلة التى تصون الحريات وتحفظ الحقوق، والمشاركة فى بناء السلام والحضارة الإنسانية على أساس جديد من تآزر الإيمان والمادة، كما كفلت ذلك نظم الإسلام الشاملة »، فهذه كلها أهداف إصلاحية تجديدية تضمنها القانون الأساسى للجماعة .

ومن رسالة « عقيدتنا » وهى من أقدم رسائل الجماعة حيث كتبت كالقانون الأساسى سنة ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م .

والذى أراه أن أعمال الجماعة فى مجال الدعوة إلى الله، ومجالات الاقتصاد والثقافة والأنشطة الاجتماعية لا يمكن أن تُنسى – فضلا عن أن تُتجاهل أو يطويها تطاول الأيام، فقد أصبحت جزءا من تاريخ مصر فى العصر الحديث .

ولا يستطيع أحد من الأصدقاء أو الأعداء أن ينكر ما قامت به الجماعة من أنشطة متعددة، ولا ما أحدثته فى المجتمع من تغيير، ولا ما أسهمت به فى حركة الإحياء والتجديد .

وعلى الرغم من أنَّ عددا من الحكومات المصرية تصدى لهذه الجماعة بالحل أو الحظر، فإن ذلك شمل نشاطها ومنعه بعد قرار الحل أو الحظر، أما ما سجلته الجماعة من أعمال وأنشطة ومشاركة فى تطوير المجتمع وتنويره وتشجيعه على الإسهام فى عديد من مناحى الإصلاح، إن ذلك حدث بالفعل ولا يمكن أن يمحى من ذاكرة من يرقب حركة الإحياء والتجديد لأمر هذا الدين.

وهذه السلسلة تتبع هذه الحقبة التى شاركت فيها الجماعة فى حركة الإحياء والتجديد، لتوضح ما كان لمؤسس هذه الجماعة من فقه للإصلاح والتجديد .

وقد جاء فيها مما يدل على مذهب الجماعة فى الإصلاح والتجديد ما يلى:

« أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر، وأن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام.

وأتعهد: بأن أجاهد فى سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت، وأُضحى فى سبيلها بكل ما أملك».

« أعتقد أن المسلمين جميعا أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية، وأن الإسلام يأمر أبناءه بالإحسان إلى الناس جميعا.

وأتعهد: بأن أبذل جهدى فى توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين، وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم».

« أعتقد أن السر فى تأخر المسلمين ابتعادهم عن دينهم، وأن أساس الإصلاح العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه، وأن ذلك ممكن لو عمل له المسلمون، وأن فكرة الإخوان المسلمين تحقق هذه الغاية.

وأتعهد: بالثبات على مبادئها والإخلاص لكل من عمل لها، وأن أظل جنديا فى خدمتها أو أموت فى سبيلها».

كما سوف نستدل على ذلك بما جاء فى كثير من رسائل الإمام البنا، على نحو ما سنتناوله فى ثنايا هذا الكتاب إذا شاء الله ويسر وأعان.

إن فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا هو الوسط، وهو الاعتدال، وهو المحافظة على الأصالة مع الإصلاح والتجديد، وهو مواكبة المتغيرات بعقل مفتوح وقلب سليم وروح وثابة ذات طموح.

وكل ذلك لا يستطيع أن يرى النور ولا أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ إلا بالجهاد، والعمل المستمر، والثبات على مبادئ الإسلام والتمسك بها فى كل موقف.

وعلى الرغم من أن الجماعة قد حظر نشاطها منذ ذلك التاريخ الذى أشرنا إليه إلا أنها استطاعت أن تمد وجودها خارج مصر فى البلدان العربية والإسلامية، ثم بلدان أوربا وأمريكا.

بَيْن يَدَىْ هذا الكتاب

هذا الكتاب الخاص بركن الثبات، وهو من أركان البيعة العشرة التى كان يبايع عليها أعضاء الجماعة لتكون ممارستهم للأنشطة التى تؤدى إلى الإصلاح والتجديد، عن علم ووعى وعمق إدراك؛ هذا الركن «الثبات» هو موضوع هذه الحلقة من تلك السلسلة.

ونسأل الله تعالى أن نحقق من وراء هذا الكتاب رضا الله تبارك وتعالى، ثم عدداً من الأهداف الهامة للمسلمين فى هذا العصر الذى تكالب فيه أعداء الإسلام على المسلمين فى كل مكان، يشوهون هذا الدين ما استطاعوا ويضطهدون المتمسكين حتى يصل هذا الاضطهاد إلى حد المنع من إبداء الرأى، فضلا عن ممارسة العمل، ولكن الله تعالى غالب على أمره، ومُعِزٌّ دينه ولو كره الكارهون.

وتلك الأهداف التى نريد أن نحققها من هذا الكتاب – فى عُجالة – هى ما نشير إليها بَيْن يدى هذا الكتاب، والله ولى التوفيق.

- فمن أهداف هذا الكتاب أن نوضح مفهوم الثبات فى مجالات العمل من أجل الإسلام، الثبات على الإيمان وعلى الحق وعلى المضى فى سبيل الله إلى النهاية؛ وذلك أن فقد الثبات فى ذلك كله يفضى إلى الزعزعة حينا، ويقضى على العمل كله بعد حين؛ وما كان عمل أو إصلاح فى مجالات الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة أو غيرها من المجالات، ما كان إصلاح ليتم على وجهه الصحيح الهادف إذا لم يصحبه ثبات على العمل الصالح واستمرار فيه، بل تواكبه تضحية بالمال والوقت والجهد والنفس فى سبيله، ولعل كلمة المعصوم ﷺ، فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»، أقول: لعل هذا الحديث الشريف يؤكد هذا المعنى ويقويه؛ إذ الأصل أن يثبت الإنسان على العمل الصالح الذى يعبر به عن إيمانه وإسلامه، ويثبت عليه ويستمر فيه، لأن هذه المداومة أحب الأعمال إلى الله تعالى مهما كان العمل قليلا.
- ومن أهداف هذا الكتاب تأصيل معنى الثبات على الإيمان بالله وعلى ترجمة هذا الإيمان بالعمل الصالح، وتأصيله؛ بمعنى البحث عن أصوله فى القرآن الكريم والسنة النبوية

المطهرة، وتأييده بنصوصهما؛ إذ هما أصل الإيمان والإسلام والإحسان وكل عمل صالح، بل كل فضيلة دعا إليها الإسلام؛ على اعتبار أن الثبات من أهم الفضائل فى مجالات العمل من أجل الإسلام؛ إذ لا ثمرة تُرجى من عمل صالح لا يثبت عليه صاحبه، بل لا تقدم لمجتمع فى أى مجال من المجالات ما لم يثبت الناس على القيام بهذا العمل الذى يثرى المجتمع ويقدم الخير للناس.

وإذا أُصِّل الثبات وعرفت مصادره من الكتاب والسنة أصبح جزءا أصيلا من الدين، ومطلبا اجتماعيا ونفسيا لكل مسلم يقوم على عمل من الأعمال الصالحة فيرضى ربه سبحانه وتعالى بالاستمرار فيه والثبات عليه، بل أصبح من خلق المسلم الذى لا يفارقه فى أى حال.

- ومن أهدافه أن يجلى صفة الثبات على الحق والتواصى به والصبر عليه فى سيرة الرسول ﷺ، وفى مواقف الصحابة رضوان الله عليهم الذين نشروا هذا الدين الخاتم وتحركوا به فى الناس، حتى وصل إلى ما يقرب من نصف المعمورة فيما يقرب من نصف قرن فقط من الزمان، وأن يوضح صورا مما كان فى تاريخ أهل القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسلمين من ثبات على الإيمان والعمل الصالح، وما كان عليه من جاءوا بعدهم من المسلمين من الثبات على دين الله ومنهجه ونظامه، على الرغم مما لاقوا فى سبيل ذلك الثبات من عنت ومشقة، وما قدموا من تضحيات دون أن يضعفوا أو يستكينوا.

وعرض هذه النماذج تربية للمسلمين اليوم وتعليم لا يمكن لهم أن يستغنوا عنه أو يجهلوه؛ لأن أعداءهم لهم بالمرصاد، والكيد لدينهم لا تخبوا له نار، ولا يهدأ له سعار!!!

- ومن أهدافه أن يعرّف المسلمين بأنواع الثبات، ويؤيد كل نوع منها بما يؤصله من الكتاب والسنة، وما يعززه من مواقف الصالحين المصلحين من المسلمين الذين تمسكوا به وضحوا فى سبيل ذلك بما ضحوا؛ إيمانا منهم بأن الثبات على الدين وعلى الحق وعلى أعباء الجهاد فى سبيل الله مطلب لا يجوز التخلى عنه؛ لأنه من صميم ما أوجبه الإسلام على المسلمين.

والعصر الذى يعيشه المسلمون اليوم هو عصر المعاداة لدين الإسلام من اليهود، ومَنْ يؤيدونهم ويعاونونهم من الغرب المتعصب المغرور المفتون بمادياته، المخادع بشعاراته

الجوفاء، وكيله بمكياليْن وازدرائه للإسلام والمسلمين، ولا علاج ولا قدرة للعالم الإسلامى على مواجهة هذا العداء إلا بالثبات على الدين وعلى الحق، والاستعداد للبذل والتضحية من أجل هذا الدين.

وليس الاتحاد الروسى بأقل عداء للإسلام والمسلمين – فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى – من عداء اليهود والغرب!!! وليست الأدلة على ذلك العداء بخافية على من له أدنى قدر من المعرفة بهذه القوى المعادية للإسلام والمسلمين.

إن المسلمين بحاجة ماسّة إلى معرفة أنواع الثبات التى ركزنا على توضيحها فى هذا الكتاب وهى أربعة:

– الثبات على الإيمان؛ أى ثبات القلب والعقل والجوارح على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، مهما كانت التكاليف والتضحيات.

– والثبات على الحق والتواصى به والصبر عليه مهما كان التحدى الذى يواجهه أولئك الثابتون من أعدائهم، حتى لو وصل بهم التحدى إلى حد الموت فى سبيل الحق، فتلك هى الصفة التى تفل من عزم الأعداء وتقذف فى قلوبهم الرعب.

– والثبات فى مجالى المعارك والجهاد فى سبيل الله تعالى من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وفى هذا الثبات ما فيه من تضحيات ومعاناة، ولكن المجاهدين دائما يحظون بإحدى الحسنيين، إما النصر على أعدائهم، وإما الشهادة فى سبيل الله؛ أى الفوز بالجنة، فتلك سنة من سنن الله تعالى فى نصر المؤمنين، بل جعل الله ذلك حقا عليه.

– والثبات على العمل فى مجالات: الدعوة إلى الله، والحركة بهذا الدين، وتربية الناس على مبادئه وقيمه، وتشجيعهم على العمل من أجل تمكين دين الله الخاتم فى عباده أجمعين، وكل عمل فى مجال من هذه المجالات جهاد لا يقل عن الجهاد فى ميادين القتال، ويلزمه من التضحيات والصبر واحتساب الأجر عند الله، ما هو معروف فى شريعة الإسلام.

● ومن أهداف هذا الكتاب تجلية أخلاقيات الثبات وأدبياته التى دعا إليها منهج الإسلام ونظامه.

فمن أخلاقيات الثبات: الاستقامة، والصدق، والإخلاص، والصبر، والتوكل على الله تعالى.

ومن أدبيات الثبات : الرجاء، والخوف، ومراقبة الله تعالى، والورع والطمأنينة .

وكل هذه الأخلاقيات والأدبيات مما سيوضحه هذا الكتاب .

- ومن أهداف هذا الكتاب تحديد المعالم لطريق العمل من أجل الإسلام، وبيان طبيعة هذا الطريق من حيث مداها البعيد، ومراحلها المتعددة، وكثرة ما فيها من عقبات وعراقيل .

نسأل الله تعالى أن نُوفَّق فى تحقيق هذه الأهداف، أو تحقيق أغلبها، ونحن نتخذ من كلمات الإمام حسن البنا فى ركن الثبات معالم وصُوى نهتدى بها فيما نقدمه للقارئ فى هذا الكتاب، والله تعالى هو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الأول:

فى مفهوم الثبات

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الثبات فى القرآن الكريم.

والفصل الثانى: مفهوم الثبات فى السنة النبوية المطهرة.

والفصل الثالث: الثبات فى تاريخ المسلمين.

ويتناول:

١ - مواقف من الثبات فى سيرة الرسول ﷺ.

٢ - مواقف من الثبات فى تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم.

٣ - مواقف من الثبات فى تاريخ التابعين والصالحين، والمصلحين فى التاريخ الإسلامى.

في مفهوم الثبات

الثبات في اللغة: ضد الزوال والتزحزح.

وله في اللغة معان كثيرة لا تخرج عن هذا المعنى أو عما هو قريب منه، ومن تلك المعاني ما نشير إليه فيما يلي:

– الثبات في الحرب على القتال ومشقاته، وهذا الثبات لابد أن يصاحبه صبر وتحمل، وإلا كانت الهزيمة والفرار.

– والثبات بمعنى التثبيت والتقوية أى بالاستناد إلى الحجج والبراهين والأدلة أو بالوسائل المادية، ويمكن أن يفهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والقول الثابت في الحياة الدنيا هو ما يمنحه الله لعباده المؤمنين من توفيق في سَوْق الحجج والبراهين دفاعا عن الحق وعن الدين، وفي الآخرة بتثبيتهم على الحق عند حساب القبر كما ورد ذلك عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن البراء بن عازب رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال: نزلت في عذاب القبر فيقال له: مَنْ ربك؟ فيقول: ربى الله ونبيى محمد ﷺ، فذلك قوله تعالى: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة».

– والإثبات والتثبيت تارة يقال لما ثبت فعلا، مثل: أثبت الله كذا أى أوجده بعد عدم وثبته.

وتارة يقال لما ثبت بالحكم مثل: أثبت القاضى على فلان كذا وثبته.

وتارة يقال لما يكون بالقول، سواء أكان صدقا أو كذبا، مثل: أثبت التوحيد وثبته أى قال: لا إله إلا الله، وهذا في الصدق، وأثبت مع الله إلها آخر، وهذا في الكذب.

وأثبت على فلان كذا وهو مزور ومُضل.

– والتثبيت: تحصيل الفائدة والثمرة، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾ [النساء: ٦٦]، أى: أشد في تحصيل العلم.

وعند الفلاسفة: له معنيان غالبان على غيرهما، هما:

- الثبات هو الاستقرار النسبي لمدرَك حِسّي على مظهر أو شكل أو لون أو وزن معين، على الرغم من التغيرات التي قد تطرأ على ظروف الإدراك.

- أو أن الثبات هو جمود على وَضْع ما، سواء أكان هذا الوضع فكريا ثقافيا، أو ماديا، أو مهنياً، أو مكانيا، أو نحوه، وسواء أكان صحيحا أو خاطئا.

وعند علماء الاجتماع: له عدة معان نذكر منها ما يلى:

- الثبات بمعنى الاستقرار: بحيث لو كررت عمليات قياس الفرد الواحد لأظهرت شيئا من الاستقرار.

- والثبات بمعنى: الموضوعية، أى أن الفرد يحصل على نفس الدرجة فى الاختبار الذى يُجرى عليه مهما كان الذى يطبق الاختبار عليه.

- والثبات بمعنى: عدم التغير الاجتماعى، وذلك أن التغير الاجتماعى هو التحول فى التنظيم الاجتماعى سواء فى بنائه، أو فى وظائفه خلال فترة زمنية معينة.

وهو ينصب على كل تغيير يقع فى التركيب السكانى للمجتمع، أو فى بنائه الطبقى، أو نظمه الاجتماعية، أو فى أنماط العلاقات الاجتماعية، أو فى القيم والمعايير التى تؤثر فى سلوك الأفراد، والتى تحدد مكاناتهم فى مختلف التنظيمات الاجتماعية التى ينتمون إليها.

ومعنى ذلك أن يكون الثبات هنا بمعنى رفض الاستجابة لأى من هذه الأسباب المؤدية إلى هذا التحول والتغير.

- والثبات بمعنى: عدم التغير الثقافى، وذلك أن التغير الثقافى هو كل تحول وتغير يحدث فى الجوانب المادية أو غير المادية للثقافة، بما فى ذلك العلوم والفنون والفلسفة والتقنية والذوق الخاص، والمآكل والمشرب واللغة، فالتغير الثقافى إذن أوسع فى دلالته من التغير الاجتماعى.

والثبات إذن يعنى عدم الاستجابة لأى من هذه الأسباب التى تدعو إلى هذا التغير.

- والمعنى العام الذى يقصد بالثبات عند علماء الاجتماع هو: ثبات البيانات فى مناهج البحث، أى مدى الاتساق والتوافق بين البيانات التى تجمع، عن طريق إعادة تطبيق

المقاييس نفسها على نفس الأفراد أو الظواهر، وتحت نفس الظروف، أو تحت ظروف يتوفر فيها أكبر قدر من التشابه.

وقد جاء دين الإسلام خاتما للأديان كلها، ليحدث تغييرا اجتماعيا وثقافيا فى الناس، فينقلهم مما هم فيه من نظم غير ملائمة، إلى النظم الأكثر ملاءمة لإنسانيتهم التى كرمهم الله بها، وذلك عن طريق ما تضمنه الإسلام من معتقدات وقيم وأخلاق ونظم اجتماعية، مما هو أنسب للإنسان من كل معتقدات سابقة ونظم وقيم مرت بها البشرية منذ نشأتها، وعن طريق ما دعا إليه الإسلام من تعلم وعلم وتعليم، وما قدمه للبشرية من معارف وما وجه إليه من ذوق خاص، وما شرعه من حلال وحرام فى المآكل والمشرب والمنكح والمسكن، وما جاء فى الكتاب والسنة من هدى، وثقافة ومعرفة بتاريخ الأولين لأخذ العظة والاعتبار بما كان لتحسين ما سيكون.

لقد جاء الإسلام بذلك كله وبأكثر منه – مما لا يتسع المجال للحديث عنه هنا – ليحدث فى الناس تغييرا نحو الأحسن والأوفق والأرضى لله فى العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة، وسائر القيم والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية، جاء بكل ذلك لأنه آخر الأديان وأكملها وأتمها وأرضاها لله تعالى.

وما كان الله تعالى ليذر الناس بغير هذا الدين الخاتم الذى أتمه وأكمله ورضيه للبشرية كلها دينا.

– فالتغير بهذا الدين الخاتم واجب على كل عاقل من الناس، ما دام راغبا فى صلاح دنياه وأخراه.

– وإذا تغير الناس بمنهج الإسلام إلى نظم الإسلام وقيمه، فإن عليهم أن يثبتوا على هذه النظم والمبادئ والقيم، لأن الله تعالى أوجب ذلك على كل من أدرك الدين الذى جاء به محمد ﷺ، من أهل الكتاب كان أو من غير أهل الكتاب.

بل أوجب الله تعالى على من دخل الإسلام من الناس أن يثبت على الإيمان بهذا الدين، وأن يضحى فى سبيل هذا الثبات بكل ما يستطيع من جهد أو وقت أو مال أو نفس؛ وذلك لأن هذا الدين حق، بل هو الحق وحده دون سائر الأديان التى عبثت بها أيدى أصحاب الأهواء، ودون سائر النظم التى وصفها الناس لأنفسهم، إذ لا وجه للمقارنة بين ما وضعه الله

تعالى لعباده، وبين ما وضعه الناس للناس!!!

بل إن الله تعالى جعل التحول عن دين الحق كفرا يستوجب عقابا شديدا فى الدنيا والآخرة.

بكل تلك الواجبات والتكاليف جاءت آيات من القرآن الكريم، وكلمات من السنة النبوية المطهرة، وسنوضح هذا وذاك فى أبواب هذا الكتاب وفصوله، إذا مدّ الله بالعون وأكرمنا بالتوفيق، وإنه على ذلك لقدير.

الفصل الأول

مفهوم الثبات فى القرآن الكريم

وردت كلمة «الثبات» فى القرآن الكريم بلفظها أو بمشتقاتها تسع عشرة مرة، وتعددت معانيها فى هذه المرات حسب السياق الذى سيقت فيه.

وقد أمكننا – بفضل من الله وتوفيق – أن نجد فى القرآن الكريم للفظ الثبات والمشتقات منه ثلاثة معانٍ نشير إليها فى إجمال، ثم نفصلها بإذن الله تعالى، وهذه المعانى الثلاثة هى:

– الثبات بمعنى ثبات القلب والفؤاد وتثبيته[1].

– والثبات بمعنى الثبات على الحق والاستمرار على التمسك به، وتثبيت المؤمن فى مواجهة الكافر بالحجة والبرهان[2].

– والثبات بمعني الشجاعة في الحرب، وترك الفرار، وما يتطلبه ذلك من تضحية فى سبيل الحق الذى يحارب من أجله[3].

وذلك ما نأمل أن نوضحه فيما يلى والله ولى التوفيق.

---

(١) جاء ذلك فى السور الكريمة التالية: الفرقان: الآية: ٣٢، وهود: الآية: ١٢٠، والإسراء: الآية: ٧٤، والنحل: الآية: ١٠٢، والبقرة: الآية: ٢٦٥، والأنفال: الآية: ١٢، والنساء: الآية: ٦٦.

(٢) جاء ذلك فى سور: إبراهيم: الآيات من: ٢٤ – ٢٧، والرعد: ٣٩، والنحل: ١٠٢.

(٣) جاء ذلك فى سور: النحل: ٩٤، ومحمد: ٧، والأنفال: ١١، و٣٠، و٤٥، والبقرة: ٢٥٠، وآل عمران: ١٤٧.

أولا :

الثبات بمعنى ثبات القلب أو تثبيته

ونسوق على ذلك سبعة شواهد من آيات القرآن الكريم، على النحو التالى :

١ – ما جاء فى سورة الفرقان فى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [**الفرقان** : ٣٢ – ٣٤] .

ولكى يتضح معنى التثبيت فى هذه الآيات الكريمة نقول :

إن الجو المحيط بنزول هذه الآيات هو : أن الكفار أكثروا الاعتراض على رسول الله ﷺ، وعلى ما جاء به من عند الله، وأخذوا يتعنتون بحيث لا يقبلون ما جاء به إطلاقا، ومن ذلك :

– اعتراضهم على أن القرآن الكريم نزل على محمد صلى الله مُنجمًا أى مجزءوا، فى أوقات ومناسبات ووقائع متعددة، إذ نزل عليه فى ثلاث وعشرين سنة، فى حين نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب السماوية على رسل الله عليهم السلام جملة واحدة، فكان ينبغى لو كان محمد – ﷺ – صادقا أن ينزل عليه القرآن جملة واحدة!!!

● وفيما قاله الكفار – فى ذلك – تعنت، وقياس باطل لا يستقيم فى عقل؛ إذ من أين لهم الدليل على أن القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل والزبور فى وجوب أن ينزل على محمد ﷺ جملة واحدة؟ .

هل دخلوا فى علم الله وحكمته وإرادته؟ .

● وفيما قالوا؛ رفض للحق الذى جاءهم من عند الله وهو القرآن الكريم الذى جاءهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضياع والحيرة إلى الهدى والرشد والصراط المستقيم، وبهذا الرفض سوف يحشرون فى جهنم على وجوههم، حيث أسوأ مصير .

● وأوضح رَدّ على هؤلاء الكفار وغيرهم من المعترضين على ذلك:

هو أن هذا التنجيم للقرآن الكريم إنما كان تجاوبا مع عدد من الوقائع والمناسبات، وأن لذلك أسبابا ذكرها العلماء، ونذكر منها ما يلى:

١ - أن القرآن الكريم نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم نجمه جبريل عليه السلام فى إنزاله على محمد ﷺ على حسب الوقائع والمناسبات.

٢ - وأن فى هذا التنجيم تدرجًا فى التكاليف، وهذا التدرج رحمة من الله تعالى بخلقه.

٣ - وأن هذا التنجيم إنما كان لتأمين حاجات الناس من أحكام تتصل بكل حادثة تقع.

٤ - وأن هذا التنجيم كان من أجل الإجابة على سؤال مُعترض أو عناد معاند مستفز، وفى ذلك تثبيت لقلوب المؤمنين وقلب النبى ﷺ.

٥ - واستدل العلماء على صدق ما قالوا من أن القرآن الكريم نزل جملة واحدة بما رواه النسائى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة».

- ولنا وقفة مع تلك الآية الكريمة التى ذكرنا وهى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** .....﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيات فنقول:

● إن القرآن قد اشتمل على قيم تربوية عديدة، إذ عنى بتربية الإنسان؛ روحه،وخلقه، وعقله، وبدنه، ونظامه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى والجمالى والجهادى[١].

ومن أجل أن تسير هذه الأنواع من التربية فى مسارها الطبيعى كان لابد فيها من التدرج فى التكاليف؛ أى الانتقال من السهل إلى ما هو أقل سهولة، ومن التكليف الخفيف إلى التكليف الذى يستوجب الصبر والتحمل، ومن الدعوة والحركة إلى الجهاد والمواجهة للعدو وإعداد ما هو مستطاع له من القوة..

وهذا هو مقتضى التنجيم.

---

(١) وتلك هى مفردات التربية الإسلامية التى جعلناها سلسلة من الدراسات اشتملت على مفردات عشر أصدرنا منها ثلاث حلقات هى: التربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية العقلية، وسنوالى نشر سائرها إذا مد الله فى العمر وأعان.

● وإن التربية – على هذا النحو الشامل – تحتاج إلى زمن تستوعب فيه مطالبها، وتتشرب فيه قيمها ومبادئها، ويتمكن فيه الإنسان من أن ينتقل من حال إلى حال، ومن منهج قاصر إلى المنهج التام الكامل.

والإنسان مجبول على إلف ما كان عليه آباؤه وأسلافه، وببطء شديد وعلى مدى غير قريب يستطيع الإنسان أن يهجر ما كان عليه الآباء والأسلاف إلى الجديد الذى دعاه إليه الدين الخاتم.

وهذا يحتاج إلى التدرج الذى يقتضى التنجيم للقرآن الكريم.

ذلك التنجيم أى نزول القرآن مقسطا – كل آية أو آيات – تحمل تكليفا جديدا، متدرجا فى هذه التكاليف حتى تبلغ منتهاها.

وتلك سنة وعادة لدى المربين قديما وحديثا وهى سنة التدرج فى التربية، نمارسها نحن المسلمين فى بيوتنا ومساجدنا ومدارسنا على هذا النحو من التدرج.

بل الناس جميعا – قبل نزول القرآن الكريم وبعد نزوله – لا يستطيعون أن يربوا إلا مع التدرج فى التكاليف.

بل إن الذين يُربون الأشرار يحتاجون معهم إلى التدرج فى تربيتهم على ممارسة الشر والإجرام – وعلى سبيل المثال – : يربون على الكذب ثم المخادعة ثم التزوير والتضليل، ثم الظلم والطغيان!!! فالطاغوب لا يُربى من الناس أو الأحداث إلا بتدرج يحتاج إلى وقت طويل، وكل الطغاة ما مارسوا طغيانهم فجأة، وإنما كانت بدايتهم الكذب فالخداع والنفاق، فالظلم ثم الطغيان.

تلك سنة التربية والمربين فى كل زمان ومكان وهى سنة تقوم على التمهل والتدرج والانتقال من حال إلى حال.

– ولقد جاء القرآن الكريم بمنهج كامل شامل للحياة الإنسانية، ليواجه به الناس الذين يرددون قولهم: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٢].

● بل كانت تلك سنة المكذبين فى كل زمان ومكان، كما يُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ**

كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٥].

- وما كان القرآن الكريم أن يبلغ من قلوب هؤلاء الناس وعقولهم بما يجعلهم مؤمنين ملتزمين إلا أن يتدرج معهم ويطالبهم بالسهل أولا، ويكلفهم باليسير قبل أن يكلفهم بما يضحون من أجله بأموالهم وأنفسهم، ومن أجل هذا نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ، منجما على حسب ما تقتضيه سنة التدرج فى التكليف والتشريع.
- هكذا كان تحريم الخمر على التدرج.
- وهكذا كان تشريع الجهاد على التدرج أيضا،
- وهكذا كان كثير من التكاليف على التدرج.

فهل يعترض الكفار على ما كان من سنة التشريع وسنة التكليف، وما هو أكثر ملاءمة لفطرة الإنسان وحاجاته؟!

- «ورتلناه ترتيلا»: أى بيناه تبيينا وفسرناه تفسيرا، أو جعلناه متتابعا متواليا يأتى بعضه فى أثر بعض، وفق حكمة الله تعالى وعلمه بما يحتاج إليه الناس وما يتمكنون معه من الالتزام بما جاء فيه شيئا بعد شيء؛ حتى لا يشق عليهم الأخذ به كله دفعة واحدة، إذ كانوا فى جاهلية لم تنتزع قيمها من قلوبهم وعقولهم وعاداتهم وموروثاتهم انتزاعاً كاملاً.

أما بعد إتمام نزول القرآن الكريم، وابتعاد الناس به عن الجاهلية وما يسودها من شر وباطل، فقد أصبح المسلمون مطالبين بأن يأخذوا بمنهج القرآن الكريم فى الحياة أخذا كاملا غير منقوص فى كل شعبة من شعب الحياة الإنسانية، بل أصبح ترك شيء من منهج القرآن الكريم سببا فى تخلف المسلمين، وفى ضعفهم، وانهزامهم أمام أعدائهم فى كثير من المعارك.

هكذا جاء القرآن الكريم منجما ليثبت الله تعالى به قلب النبى ﷺ وقلوب المؤمنين، وأصبح كمال القرآن الكريم وتمامه بعد ذلك حجة على المسلمين أمام الله إن تركوا شيئا مما جاء به.

٢ - وجاء الثبات بنفس المعنى: ثبات القلب وتثبيته فى قول الله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[هود: ١٢٠].

والمعنى - كما قال علماء تفسير القرآن الكريم وتأويله - أن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ بأن كل الأخبار التى يقصها عليه من أنباء الرسل المتقدمين من قبله مع أممهم، وكلَّ محاجتهم وخصومتهم مع رسلهم، وكل ما تحمله الرسل عليهم السلام، وما صبروا عليه من أذى، وكل نصر أجراه الله على أيدى الرسل عليهم السلام فى معارك الحق ضد الباطل.

كل ذلك إنما يقصه الله تعالى على رسوله ﷺ ليثبت به فؤاده وأفئدة الذين آمنوا معه، ليكون ذلك له وللمؤمنين أسوة فى أنبياء الله تعالى عليهم السلام.

● وقد جاءه ﷺ فى أنباء هؤلاء الرسل بيان الحق الذى تدعو الناس إليه مثل ما دعا الرسل السابقون إلى ذلك. وجملة ما يدعو إليه الرسل جميعا هو توحيد الله تعالى وعبادته وفق ما شرع الله تعالى، كما جاءك فى هذه الأنباء ما فيه عظة وعبرة ينتفع بها المؤمنون، فيزدادون إيمانا، والمستعدون للإيمان يساعون إلى الدخول فى دائرة الإيمان.

● وقد جاء فى هذه السورة - سورة هود - من أنباء الرسل نوح(١)، وهود(٢)، وصالح(٣)، وإبراهيم(٤)، ولوط(٥)، وشعيب(٦)، وموسى(٧) عليهم الصلاة والسلام، جاءك فى أنباء هؤلاء الرسل ما هو حق، أى حق فى المجالات التالية المعروفة فى تاريخ الدعوات:

- الحق فى أمر الدعوة إلى الله تعالى،

- والحق فى قضية نصر الله تعالى للمؤمنين على الكافرين،

- والحق فى سنة الله تعالى التى لا تبديل لها ولا تحويل،

وكل هذا مما يثبت الله تعالى به فؤادك وأفئدة المؤمنين معك على الحق.

● ولقد عَقَّب القرآن الكريم على قصص الأنبياء المذكورين عليهم السلام وأنبائهم بقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ**

(١) جاء ذلك فى الآيات من الآية: ٢٥ إلى الآية: ٤٩.
(٢) جاء ذلك فى الآيات من الآية: ٥٠ إلى الآية: ٦٠.
(٣) جاء ذلك فى الآيات من الآية: ٦١ إلى الآية ٦٨.
(٤) جاء ذلك فى الآيات من الآية: ٦٩ إلى الآية: ٧٦.
(٥) جاء ذلك فى الآيات من الآية: ٧٧ إلى الآية: ٨٣.
(٦) جاء ذلك فى الآيات من الآية: ٨٤ إلى الآية: ٩٥.
(٧) جاء ذلك فى الآيات من الآية ٩٦ إلى الآية: ٩٩، وفى الآيتين: ١١٠، ١١١.

﴿... غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ .... ﴾ [هود : ١٠٠ - ١٠٣].

أى تلك أنباء الرسل وأنباء أقوامهم الذين كذبوهم، وتلك حكمة الله تعالى فى إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين ونصرهم، الحكمة التى اقتضت أن تكون بعض هذه القرى قائمة عامرة وبعضها هالك تالف، دون أن يقع ظلم على القرى التى عذبت؛ إذ عذبوا بما قدمت أيديهم وبما كفروا بالله ورسوله، حدث ذلك دون أن تنصرهم آلهتهم ومعبوداتهم من دون الله تعالى.

وفى ذلك عظة وعبرة، وتأكيد لوعد الله للمؤمنين بالنصر، ووعيده للكافرين بالخذلان، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ...».

فكل تلك القصص والأنباء عن الصراع بين الحق والباطل، ونصر الله تعالى للمؤمنين وإهلاكه للكافرين، إنما جاءت إلى محمد ﷺ ليثبت الله بذلك فؤاده، أى يقويه على ذلك ويرزقه الاستمرار عليه.

٣ - وجاء الثبات فى القرآن بنفس المعنى أى تثبيت القلب على الحق فى قوله تبارك وتعالى:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٧].

- وهذه الآيات الكريمة تشير إلى محاولة الكفار فتنة الرسول ﷺ عن بعض ما أنزل الله إليه ليصبح بهذا التنازل أو بتلك الاستجابة لهم صديقا مواليا لهؤلاء الكافرين!!!

ولولا تثبيت الله تعالى لرسوله ﷺ لكان ربما استجاب لهم فى بعض ما يريدون، طمعا منه ﷺ فى إيمانهم، ولكن الله تعالى ثبته على الحق؛ إذ لو استجاب لهم ما دخلوا فى الإيمان، ولا وجد الرسول ﷺ منهم نصيراً له من دون الله تعالى.

– وعندما فشلوا فى محاولتهم فتنة الرسول ﷺ؛ هموا بإخراجه من مكة عنوة، ولو فعلوا لوقع بهم عذاب الإبادة، ولكن الله تعالى لم يرد بهم هذا النوع من العذاب، كما فعل بكثير من المكذبين قبلهم، وإنما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالهجرة من مكة.

– ومحاولاتهم فتنة الرسول ﷺ عن شيء مما أنزل الله عليه؛ معروفة فى سيرته ﷺ، منذ جاءهم بالحق الذى ينقلهم به من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان.

ومن محاولاتهم ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- طلبوا منه أن يقبل منهم المال ليكون أغنى رجل فيهم من أجل أن يسكت عما يدعو إليه من حق فأبى،
- وطلبوا منه أن يسودوه عليهم بأن يصبح ذا جاه فيهم، فأبى،
- وطلبوا منه أن يزوجوه أجمل نسائهم ليكف عما يدعو إليه فابى،
- وطلبوا منه أن يذكر آلهتهم بخير، فأبى،
- وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم يوما ويعبدوا إلهه يوما...
- وطلبوا منه أن يعبدوا إلهه فى مقابل ألا يذكر آلهتهم بسوء...
- وطلبوا منه أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق....
- وطلبوا منه أن يجعل لكبرائهم مجلسًا ينحى عنه الفقراء الذين آمنوا به...
- وطلبوا منه أن يجعل الأمر من بعده إليهم...

كل ذلك رفضه الرسول ﷺ، لأنه يدعو إلى الحق ولأن الحق لا يتجزأ ولا يستبدل به غيره، ولأن الله تعالى أمره أن يستمر فى دعوته إلى الحق مهما كلفه الثبات على الحق.

- وكل هذه المطالب فى مقابل أن يستجيبوا له ويؤمنوا بما يدعوهم إليه؛ فتنة للرسول ﷺ، وما كان له ﷺ أن يستجيب لهم فى شيء من مطالبهم.
- تلك قصة أعداء الله – أعداء الحق – مع كل من يدعو إلى الله فى أى زمان وأى مكان، لا يتوقفون عن المساومات التى يفتنون بها كل داع إلى الله وإلى الحق وإلى الطريق المستقيم، مهما قدموا له من أعراض الحياة الدنيا، لكى لا يثبت على الحق الذى يدعو إليه!!!
- والله تبارك وتعالى قد ثبّت رسوله ﷺ على الحق، وحال بينه وبين أن يركن إليهم – فيما

حاولوا – ولو كان ركونه إليهم شيئا قليلا، وهو سبحانه وتعالى جعل هذا التثبيت لدعاة الحق من سنته فى تاريخ الرسل صلوات الله عليهم وسلامه جميعا، ومع الدعاة إلى الله عندما يتعرضون لمواقف مماثلة.

- ولو تخلى الله تعالى عن رسوله ﷺ – وحاشا لله أن يفعل – فركن الرسول ﷺ إليهم فى بعض ما يريدون لكفوا عن عنادهم وصراعهم ضده، بل اتخذوه صديقا لهم، ولكن الله ثبته، فما كان منه شيء من ذلك.

- وسنة الله الماضية فى خلقه: أن يثبت دعاته فى كل زمان ومكان، ليظل الحق حقا، والباطل باطلا، والصراع بينهما دائرا، ومن سنته سبحانه أن ينصر أولياءه ويهزم أعداءه، وتلك حقيقة مؤكدة على مر التاريخ كله، وسوف تظل كذلك أبد الآبدين؛ لأن سنة الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل.

- وقصة المساومات لمحاولة فتنة الدعاة إلى الله هى الشغل الشاغل لكل الحكام الظالمين المستبدين، وكثيرا ما تبدأ هذه المساومات بالإغراء والترغيب فى أعراض الحياة الدنيا ومتعها وزينتها، وقد تستمر هذه المحاولات حتى يضعف بعض الدعاة فيقبلوا على أعراض الحياة الدنيا وزينتها، وعندما يضعف بعضهم فإنما يفقدون ثباتهم أولا ثم يفقدون من محتوى دعوتهم ومن جوهر الحق الذى يدعون إليه شيئا بعد شيء، حتى يصلوا فى نهاية الطريق إلى نفس الموقع الذى يقف فيه أعداء الحق وأنصار الباطل!!!

– وعندما لا يُجدى الإغراء والترغيب مع الدعاة إلى الله، فإن أعداء الحق من أصحاب الجاه والسلطان يلجؤون إلى التخويف والترهيب، والتضييق والإعنات، وعندئذ تكون المحنة والفتنة، ويتعرض أنصار الحق ودعاته إلى الحظر والمنع والاعتقال والسجن، بل التعذيب البدنى وربما القتل. وفى كل الأحوال، يحال بين الدعاة إلى الله وبين التعبير عن آرائهم ومحتوى ما يدعون إليه، فضلا عن التضييق عليهم فى المطعم والمشرب والمسكن والحركة، فإن لم يُجد ذلك، ففى المحاكمات الظالمة الهزلية، وفى الحملات الإعلامية المغالطة المضللة، وفى السجن والتعذيب، واستفزاز الدعاة من بلادهم ليخرجوا منها مهاجرين فارين بدينهم، فى ذلك وفى أمثاله متسع لأهل الباطل وأعداء الحق.

- وهناك عدد من الحقائق يتصل بقصة المساومات ومحاولات فتنة الدعاة عن الحق، نحب أن نشير إليه فيما يلى:

– أن الحق والباطل لابد أن يستمرا فى صراع دائم ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

– وأن الحرب بينهما سجال، ولكن النهاية لابد أن تكون بنصر الله تعالى للمؤمنين.

– وأن أسلوب الحق ودعاته هو الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، وذلك من منطلق «لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها».

– وأن أنصار الحق قد أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم وعن الحق الذى يدعون إليه، ولذلك شرع الله الجهاد فى سبيله.

– وأن أسلوب الباطل وأنصاره هو المساومة والترغيب فى أعراض الدنيا أولا، ثم التهديد والترهيب والبطش والعدوان.

– وأن أنصار الحق ودعاته لو استجابوا لأقل ما يطلب منهم؛ فسوف يستجيبون لما هو أكثر منه، ثم ينتهى بهم الأمر إلى التخلى عن الدعوة إلى الله، وفى هذا ما فيه من خسران الآخرة.

– وأن من سنة الله تعالى مع الحق ودعاته أن يثبتهم، وأن يجعلهم من الراضين بهذا الثبات؛ على الرغم مما يصيبهم من عنت وإرهاق، وما يقدمون من تضحيات.

– وأن أقصى ما فى وسع أعداء الله من الكيد والحرب والأذى الذى يصل إلى القتل والإبادة، أن يصرفوا عن الحق بعض دعاته الذين يضعفون أمام المحنة، أما أولئك الذين ثبت الله قلوبهم على الحق فإنهم يمضون فى طريق الحق حتى يلقوا ربهم سبحانه وتعالى وقد نالوا أعظم الجزاء.

٤ – وجاء الثبات بنفس المعنى – وهو تثبيت القلب – فى قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٢].

● وتدل هاتان الآيتان على جولة من جولات الباطل ضد الحق كانت قديما، وهى مستمرة حديثا، وسوف تظل فى المستقبل، لأن أهل الباطل لا يملون من تحدى أهل الحق والكيد لهم، وأن أهل الحق لا يملون من تمسكهم بالحق ومكانتهم عند الله، وأُنسهم بالحق، واطمئنانهم إلى مكانهم فيه، واستعذاب ما يصيبهم فى سبيله.

● وهذه الجولة التى أشارت إليها الآيتان الكريمتان، تنتمى إلى الفكر والثقافة واختيار البدائل من وجهة نظر أهل الباطل وأنصاره، إذ هم لا يعجبهم ما جاء من الحق، ولا ما جاءهم به الحق، ويتصورون واهمين أن لو كان كذا مكان كذا لكان أحسن، وأنه لو حرم كذا، وأحل كذا لكان يستحسن!!!

بل يمعنون فى الضلال والتضليل قائلين: إن أهل الحق يغيرون ويبدلون فيما جاءهم من عند الله!!!

● كان ذلك حالهم يوم كان القرآن الكريم ينزل على رسوله الخاتم ﷺ، فينسخ الله حكما بحكم؛ لأن فى الحكم الأخير ما هو خير للناس من الحكم الأول، أو لأن الحكم الأول كان لحكمة، ثم اقتضت إرادة الله تغييره إلى ما هو أحسن، وتلك غفلة منهم عن هدف القرآن الكريم وهو هداية الناس إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة، بل تعنت منهم بإقحام أنفسهم فيما لا يعرفون.

– ولا يزال ذلك شأن أتباع الباطل وديدنهم حتى يوم الناس هذا، ومع أن القرآن الكريم قد أنزل جميعه على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وعارضه به جبريل عليه السلام مرتين، وكمل وتم، ولم تعد هناك أدنى فرصة لتغيير حرف منه، فضلا عن كلمة، فضلا عن حكم من أحكامه – على الرغم من ذلك كله – فإن أتباع الباطل لهم دعاوى ومزاعم حول القرآن الكريم، تلبس ثوبا يلائم العصر الذى يعيش فيه أهل هذا الباطل!!!

● ومن مزاعمهم أن هذا القرآن كان مناسبا لزمن مضى وأيام خلت، ولقوم سلفوا، وأنه غير صالح لهذا الزمان ولا للناس اليوم!!!

● ويرتبون على هذه الدعوى الباطلة أن على المسلمين اليوم أن يتركوا هذا القرآن القديم، وأن يأخذوا بما هو جديد من القوانين والنظم التى وضعها الناس للناس، فتلك هى الملائمة للعصر وللناس!!!

● وهم فى هذه المزاعم والدعاوى ذاهلون عن الحق والحقيقة؛ إذ الحق أن هذا القرآن كان – ومازال، وسيظل – هدى للناس ورحمة للعالمين فى كل زمان ومكان، وطباً لكل داء وعلاجاً لكل مرض تقع فيه الإنسانية كلها، إذ هو المنهج الذى تحتاج الإنسانية إلى الأخذ به فى عقيدتها وعبادتها وأخلاقها وسياستها ونظامها كله.

● والحقيقة أن هذا القرآن من عند الله تعالى، رحمة منه بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى

النور، وليصنع منهم أمة التوحيد والإيمان والإسلام والعدل والإحسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

- وأن من الحقيقة أنه لا صلاح للإنسانية فى حاضرها ومستقبلها إلا بوجود هذه الأمة، لكى تؤمن للناس حياة إنسانية كريمة تليق بتكريم الله تعالى للإنسان.

- ومن الحقيقة أن منهج القرآن الكريم فى الحياة لا يوازيه منهج آخر فضلا عن أن يكون مثله، فى أهدافه ووسائله، أو فى نظمه فضلا عن قيمه، لا يوازيه منهج آخر فى أى مجال من مجالات الحياة الإنسانية فى نظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

- ومن الحقائق المتصلة بهذا القرآن الكريم أن الله تعالى أنزله ليثبت به قلوب الذين آمنوا فيحبب إليهم الإيمان ويزينه فى قلوبهم فتمتلئ إيمانا به وتمسكا بكل ما جاء فيه، فلا يقبلوا بأى حال منهجا سواه مهما رغبوا فيه أو أرهبوا من أجله، ومهما سوموا أو عذبوا أو فتنوا، حتى يلقوا الله تعالى عليه فائزين بإحدى الحسنيين؛ النصر على الأعداء أو الدخول فى منازل الشهداء الذين لهم عند الله مكانة النبيين والصديقين.

- ومن الحقائق المقررة كذلك أنه ليس لمسلم أن يوازن بين نظرية سياسية أيا كانت وبين منهج الإسلام، مهما كان لهذه النظرية من أنصار وموالين، ومهما استطاعت هذه النظرية أن تحقق من نجاح زمنى أو محلى - وحسبنا ما شهدناه من انهيار النظرية الاشتراكية على الرغم مما حشدت من الأنصار، والدعايات - حسبنا ذلك لنؤكد أن ما يصنعه الناس لا يمكن أن يبلغ درجة الكمال.

- ولقد كانت النظرية الاشتراكية بديلا مُقنعا للنظرية الرأسمالية التى فقدت أنصارها فى أكثر من نصف العالم - على الرغم مما كان للرأسمالية من بريق وتقبل لدى أصحاب رءوس الأموال من جانب، ولدى أصحاب الجاه والنفوذ من جانب آخر - ثم جاءت النظرية الاشتراكية لتحل محلها حينا من الزمان ثم تنهار هذا الانهيار المدوى الذى حدث بسقوط دهاقنتها فيما كان يعرف بالاتحاد «السوفيتى»!!!.

- ولقد رأى جيلنا وعاين سقوط هاتين النظريتين واحدة بيد الأخرى، ثم الثانية بيد مصلحة الإنسان من جانب، وسعى الغرب ومؤامراته من جانب آخر.

غير أن سقوط هاتين النظريتين كان سببه الحقيقى هو ما انطوت عليه كل منهما من عيوب وقصور، وتحيز لفريق من الناس على حساب فريق، إذ لم تعرف أى واحدة من

النظريتين عدالة عامة فضلا عن العدالة المطلقة.

● وكل من النظريتين حمل للإنسان نوعا من القهر والإكراه والتحيز وإن غُلف بالكلام المزوق والشعارات الكاذبة من مثل: الإخاء والحرية والمساواة، والحرية، وتحرير العبيد، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، وكل تلك الشعارات تبنتها حكومات ومنظمات دولية على رأسها - أخيرا - هيئة الأمم المتحدة، والنظام العالمى الجديد بقيادة «أمريكا»!!!

- وحسبنا لتكذيب كل ذلك ما تمارسه تلك الحكومات من القمع والإبادة لأى شعب يخرج عن تحقيق مصالحها!!!

- وحسب هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها عارا وتناقضا، ما هو معروف فى نظامها من حق دول خمس، فى الاعتراض «الفيتو» على أى قرار من قرارات مجلس الأمن، وعلى سبيل المثال؛ فقد مارست أمريكا حق الاعتراض عشرات المرات لصالح إسرائيل خشية أن تدان مجرد إدانة فى مسلسل الجرائم الذى ترتكبه ضد مواطنين عزل من السلاح، وضد قرارات عديدة صدرت لتمنع إسرائيل من احتلال أراضى الغير بالقوة، وتكسير العظام وقتل النساء والأطفال فى بيوتهم بل وفى مقر هيئة الأمم المتحدة - كما حدث فى قانا فى لبنان!!!

- إن المعتدى على النساء والأطفال والشيوخ فى الحقيقة هو: إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية أولا، وإنجلترا وفرنسا وروسيا ثانيا، وكل أعضاء هيئة الأمم المتحدة بعد ذلك، ما لم يغيروا من هذا النظام الظالم.

- ومن أعجب العجب أن تجد غير قليل - ممن يحملون القلم ويسيطرون على أجهزة الإعلام - يتحيزون إلى هذه الأنظمة الظالمة ويبررون لهؤلاء الحكام ولتلك الأجهزة باطلها وممارستها لأبسط حقوق الإنسان، منافقين بذلك بعض الحكام الذين ارتبط بقاؤهم فى الحكم بتلك النظريات، وتلك الحكومات المسيطرة من أمريكا وإنجلترا وفرنسا ثالوث الشر والاستعمار والاستغلال وقهر الشعوب، والتأييد المطلق لإسرائيل.

● أقول هذا - وهو صدق يحس بصدقه كل منصف برىء من أن يكون بوقا لحاكم طمعا أو رهبا - وفى عقلى وقلبى وعلى لسانى ما وصف الله تعالى به القرآن الكريم منهج الله ونظامه من صفات لو تأمل فيها الناس وتدبروا ما تدل عليه لهدتهم إلى الصراط المستقيم، ولجعلتهم يعيشون حياة تسودها العدالة الحقيقية، وتخلو من كل ظلم لأى إنسان.

– إن الله تعالى وصف القرآن الكريم بأنه : هدى، ونور، وبشرى، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحسبنا هنا أن نصف القرآن بما وصفه رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى والدارمى بسنديهما عن الحارث الأعور عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ستكون فتن، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله؟! قال : كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» .

– إن علاج كل المشكلات فى العالم الإسلامى إنما يكون فى ابتغاء الهدى من القرآن الكريم، والعمل والحكم بما أنزل الله فيه، وليقل من شاء ما شاء فى غير ذلك، فإن الإيمان والإسلام والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله، كل تلك الدعائم التى يقوم عليها المسلم الإنسانى الراشد، لن توجد إلا بالأخذ بالقرآن الكريم، ففيه الهدى والبشرى، ولنتدبر قول الله تعالى عن القرآن الكريم : ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل : ١٠٢] .

– وقد آن للمسلمين أن يفيقوا على هذه الحقائق، وأن يعلموا أنهم لن تقوم لهم قائمة – فى عصر العداوة للإسلام – إلا إذا أخذوا بمنهج القرآن الكريم فى التعامل مع أنفسهم ومع الأصدقاء والأعداء، إنهم إن يفعلوا فقد هدوا إلى صراط مستقيم .

٥ – وجاء الثبات بمعنى تثبيت القلب، فى قول الله تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

● تقرر هذه الآية الكريمة عددا من الحقائق الهامة فى حياة الناس، ومن هذه الحقائق ما نذكره فيما يلى :

– أن الناس قد جبلوا على حب المال، لأن المال فى حقيقته من أسباب الحصول على رغائب الإنسان ومطالبه جميعا، المادى منها وغير المادى، وقد جعل الله المال والبنين زينة الحياة الدنيا كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** ﴾ [الكهف : ٤٦] .

– وأن الإنسان فى عمومه – قبل أن يدخل الإيمان قلبه – يرى أن التوسعة عليه فى المال من إكرام الله تعالى له، وأن التضييق عليه فى المال دليل على إهانة الله تعالى له!!! مع أن الأمر ليس كذلك، وما يعى هذه الحقيقة إلا المؤمنون، يفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى:

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ [الفجر: ١٥ – ١٧].

فالإنسان الذى لم يعمر الإيمان قلبه؛ إذا ما اختبره ربه فأكرمه ونعمه بالمال ونحوه من أسباب الحياة فيقول مغتراً بذلك:

ربى فضلنى لاستحقاقى هذا المال وتلك النعمة.

وأما إذا ما اختبره ربه بضيق الرزق فيقول غافلا عن الحكمة فى ذلك: ربى أهاننى.

وكلمة «كلا...» فى الآية الكريمة ردع عن ذلك الفهم ورد لذلك القول، لأن الحقيقة غير ذلك...

– ومن أجل ذلك كان إنفاق المال فى أوجه الخير ابتغاء مرضاة الله تعالى دليلا على عمق الإيمان بالله تعالى، وعلامة على الاستجابة لما أمر الله به، بل كان تثبيتا لنفس المنفق على الإيمان وزيادة ليقينه بأن الله تعالى سوف يجزيه على ذلك الإنفاق أوفر جزاء.

وفى هذا التثبيت تأكيد للإيمان، ودعم لأواصره.

– ولذلك كل مثل المنفق لماله ابتغاء مرضاة الله تعالى كمثل بستان فى مكان مرتفع يثمر أحسن الثمر، إن أصابه مطر غزير أو مطر قليل؛ لأنه بهذا المكان الصالح لا يُمحِل أبدا.

وكذلك المؤمن الذى ينفق ماله فى سبيل الله وابتغاء مرضاته تعالى، فإن عمله لا يبور أبدا، بل يتقبله الله تعالى ويكثره، وينميه مهما كان مقداره، كثيرا كان أو قليلا.

● وجملة القول التى ننتهى إليها فى هذا المجال؛ أن المال محبوب لدى الناس جميعا مؤمنهم وغير مؤمنهم، وأن إنفاق المؤمنين لأموالهم فى سبيل الله ابتغاء مرضاته يثبت الإيمان ويقويه، ويثبت الاعتقاد فى حسن الجزاء عند الله تعالى.

وكل ذلك تثبيت للقلب وطمأنة للنفس، وترسيخ للإيمان وتعزيز للإسلام وتشجيع على ممارسة العدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحبيب فى الجهاد فى سبيل الله، لتكون كلمة الله هى العليا.

٦ – وجاء الثبات في القرآن الكريم بنفس المعنى وهو: تثبيت القلب في قوله تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ... ﴾

[**الأنفال**: ١٢، ١٣].

● فالثبات في هذه الآية الكريمة هو أن تثبت الملائكة المؤمنين على إيمانهم، وعلى ما اعتقدوه من أن الله تعالى ناصرهم ومؤيدهم.

قال ابن جرير: «أوحى الله إلى الملائكة أن قاتلوا مع المؤمنين وكثروا سوادهم.

وفسَّر ذلك التثبيت بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم – يعني المشركين – يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذى فتقوى أنفسهم».

وهذا هو معنى تثبيت الملائكة للمؤمنين، أى يقول الله تعالى لهم: ثبتوا المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم، عن أمرى لكم بذلك:

«**سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب**» أى الخوف والذلة، والصغار واحتقار النفس والشعور بالقلة والضعف والانهزام لأنهم خالفوا أمرى وكذبوا رسولى وحاربوه.

● وقد يكون الثبات للذين آمنوا بمعنى أن يُقبلوا على المعركة بشجاعة غير هائبين لعدوهم، ولا خائفين من كثرة عدد الكفار وضخامة عدتهم، فيشاركوا فى المعركة بقلوب ثابتة، وأيد قوية، وثقة فى نصر الله تعالى لهم.

والثبات فى هذه الآية ذو شقين أحدهما يتعلق بثبات المؤمنين والآخر يتعلق برعب الكفار وهلعهم، واستعدادهم للفرار من المعركة جبنا من مواجهة المؤمنين، وكلا الشقين بتقدير الله تعالى لينصر المؤمنين على الكافرين، على الرغم من كثرة عدد الكفار وضخامة عدوهم!!!

فثبات القلب فى المعركة هو الخطوة الأولى فى تحقيق النصر على الأعداء، وإلقاء الله تعالى الرعب فى قلوب الأعداء هو الخطوة الأولى نحو الهزيمة والفرار، ولله تعالى فى كل ذلك حكمة بالغة.

٧ - وجاء الثبات فى القرآن الكريم بنفس معنى ثبات القلب، فى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا.... ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

- يخبر الله تبارك وتعالى عن طبيعة الناس عموما، ويوضح أن أكثر الناس لو أمروا ما ائتمروا، ولو نهوا ما انتهوا، لأن طبائع أكثرهم مجبولة على المخالفة، وهذا من علم الله بطبائع الناس.

- والآيات الكريمة تعنى أن الله تعالى يقول عن الناس: لو أننا فرضنا عليهم المشقة البالغة بأن أمرنا بالجهاد المستمر، وأمرناهم بأن يعرضوا أنفسهم للموت، أو يتركوا ديارهم دائما مجاهدين فى سبيل الله، لو أنا فعلنا ذلك فنحن نعلم أنه ما يطيع ذلك ولا يطيقه إلا عدد قليل من الناس!!!﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾.

- ولكن رحمة الله تعالى بعباده اقتضت ألا يكلف نفسا إلا وسعها، فلا يشق بتكاليفه على عباده حتى ييسر لهم طاعته، والتقرب إليه بعبادته وفق ما أمر وما نهى، وتلك سنته فى خلقه، ومع جميع أنبيائه عليهم السلام.

- ومما يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ .... ﴾ وهذا القليل هم صالحو المؤمنين.

- وروى ابن جرير بسنده عن أبى إسحق السبيعى[١] قال: لما نزلت: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ... ﴾، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذى عافانا، فبلغ ذلك النبى ﷺ وقال: «إن من أُمتى لرجالا، الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى».

- وروى الحسن بسنده عن الأعمش قال: لما نزلت: «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم...» الآية. قال أناس من أصحاب النبى ﷺ: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «للإيمان أثبت فى قلوب أهله من الجبال الرواسى».

- ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ أى أقوى تصديقا وتثبيتا

---

(١) هو عمرو بن عبد الله الهمدانى أبو إسحق البيعى ولد عام تسعة وعشرين، ومات سنة ١٢٧ من الهجرة، وهو تابعى من مشاهير التابعين بالكوفة. روى عن ٣٨ صحابيا ورأى علياً بن أبى طالب رضى الله عنه، وكان شيخ الكوفة فى عصره.

لإيمانهم، إن هم فعلوا ما يؤمرون به وقاموا بحقه، عندئذ يكون إيمانهم أثبت وتصديقهم بالحق أقوى.

– «**إذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما، ولهديناهم صراطا مستقيما**...» أى لكان خيرا لهم فى الدنيا والآخرة، وذلك ما يؤدى إلى تثبيت الإيمان وإلى زيادة الاطمئنان، وكل ذلك بفضل الله تعالى جزاء الطاعة لما أمروا به.

● والمعنى العام الذى يفهم من هذه الآيات الكريمة – والله أعلم – أن الله تعالى لم يفرض على المؤمنين ما يشق عليهم بأى حال، لذلك لم يكتب عليهم – مثلا – أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم، لأن ذلك شاق على أكثر المسلمين، وإن كانت القلة منهم تستطيعه، وسر ذلك التخفيف أن شريعة الله سمحة وأن دينه يسر لا عسر فيه ولا مشقة ولا حرج.

● وفى مثل هذه المواقف تثار قضية الرخصة والعزيمة فى شرع الله، فقد يسر على عباده بالرخص، ولكن من أراد منهم أن يأخذ بالعزيمة فيحمل نفسه أكثر فلا بأس بذلك.

● ولا أحب أن يفوتنى هنا أن أضع النقاط فوق الحروف فى هذه القضية بذكر عدد من الحقائق المتصلة بهذا الموضوع مؤتسيا فيها بما قرره أسلافنا من علماء الشريعة رحمهم الله تعالى، فهو جمع لهذه الحقائق أرجو أن يأجرنى الله عليه.

وتلك الحقائق المتصلة بالرخصة والعزيمة هى:

١ – أن التشريع الإلهى ميسور لكافة المسلمين، وليس فيه مشقة على أحد.

٢ – وأن الله تعالى شرع فيما شرع رخصاً يلجأ إليها المسلمون فى عمومهم حينما يحبون، وفى المواقف التى حددتها الشريعة.

٣ – وأن بعض التشريعات يعتبر الالتزام بها عزيمة، وهذه العزيمة لا يستطيعها إلا قلة من المسلمين، وليست العزيمة لازمة لكل أحد، ولكنها لمن أراد أن يأخذ بها من هذه القلة المؤمنة.

٤ – وأنه لا عيب فى الأخذ بالرخصة، ولا نقيصة على الآخذ بها، فالله تبارك وتعالى يحب أن تؤتى رخصة.

٥ – وأنه لا يجوز الهروب بالرخصة من بعض التكاليف، ولا الأخذ بها تجاوبا مع ضعف

النفس وضعف التَّديُّن.

٦ – وأن أسوأ ما يكون التعامل بالرخص، حين يفتى بها بعض العلماء تجاوبا مع هوى بعض الحكام والأمراء والأثرياء، تزلفا إليهم أو خوفا من سلطانهم، ليبرروا بذلك تقصيرهم فى حق الله تعالى، وهروبهم من التدين.

٧ – ومن السيىء فى التعامل مع الرخص ما يقوم به بعض الدعاة إلى الله، وهم يعرضون الدعوة على الناس فيبسطون الدين كله ويجمعون ما فيه من رُخص، ثم يقدمونها للناس بدعوى أن الدين يُسر، وأنه سهل!!! وذلك أن التعامل هكذا مع الرخص خطأ من الدعاة فى التوجيه وفى التربية، وهو فى النهاية يشوه التدين عند هؤلاء الناس.

٨ – وأن وجود الرخصة والعزيمة فى الدين دليل على تمام الدين وكماله وملاءمة تشريعاته لكل الناس، سواء أكانوا قلة قادرة على الأخذ بالعزيمة، أم كانوا كثرة راغبة فى الدعة والراحة، أم من الفئة الوسطية التى تلجأ إلى الترخص عندما تقتضيه الحاجات.

٩ – وأن اشتمال الدين على الرخص والعزائم دليل على مرونته واتساع تشريعه، ليكون فى متناول كل أحد، ودون مشقة أو حرج، فضلا عن عنتٍ وتشدد.

١٠ – وأن هذه الرخص وتلك العزائم لو خلا منها التشريع، لخلا من الفرص الجيدة للترقى فى مجال الطاعة والعبادة، وما كان للدين الخاتم، والمنهج الذى أكمله الله وأتمه أن يخلو من ذلك التيسير على الناس، وفتح المجال أمام الراغبين فى الأخذ بالعزائم.

ثانيا :

الثبات بمعنى الثبات على الحق

والاستمرار بالحجة والبرهان

وقد جاء هذا المعنى للثبات فى القرآن الكريم فى عدد من سوره الكريمة، نذكر منها ما يلى سائلين الله تعالى التوفيق.

١ – قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٧].

● فى هذه الآيات الكريمة ضرب الله مثلا للكلمة الطيبة ومثلا للكلمة الخبيثة، وفى هذا وذاك موضع اعتبار ومجال تأمل، وفى هذا الاعتبار وذلك التأمل تقوية للإيمان وتعزيز لليقين بالله تعالى وبما أنعم به على عباده.

● وكأن الأصل فى هذه الآيات الكريمة أن يقول الإنسان الكلمة الطيبة وأن يرفض الكلمة الخبيثة، حتى يكون دائما على الحق، ومع الله تعالى.

– والكلمة الطيبة – كما فسرها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما – هى « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ».

وقيل هى: كلمة الحق، وعين الحق هو: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

– والشجرة الطيبة هى شجرة النخلة، بما تتصف به من ثبات وأصل وسموق جذع ودوام خضرة، وعظيم ثمر، وقد فسرها بذلك رسول الله ﷺ.

وقيل: الشجرة الطيبة هى المؤمن نفسه.

فكما أن النخلة لا تزعزعها الرياح ولا تعصف بها العواصف، فإن المؤمن لا تزحزحه عن

إيمانه أعاصير ولا يزيله عنه ظلم الظالمين، ولا بطش العتاة المستكبرين.

وكما أن النخلة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها أى أنها مثمرة لا ينقطع ثمرها، فكذلك المؤمن يستمر على إيمانه وهداه وتقواه، يضىء لمن حولك طريق الحق، ويتواصى مع غيره عليه، ويصبر ويحتسب فى سبيل الاستمرار عليه، ويشجع الناس على المضى فى طريقه.

● وأهم دلالات هذا المثل للكلمة الطيبة – بأنها كالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء – أهم دلالات هذا المثل فى تصورى، هو أن الحق والقائلين به والعاملين من أجله والمتواصين به والصابرين عليه؛ ثابتون على هذا الحق أقوياء به لا يزعزهم عنه شىء ولا يصرفهم عنه أحد؛ على الرغم من أنه قد يبدو فى بعض الأحيان أن أصحاب الحق قد ضعفوا وتمكن منهم العدو، من أجل ما يتعرضون له من محنة أو فتنة، والحق الذى لا شك فيه أنهم منصورون بإذن الله مثابون على تمسكهم بالحق أجزل الثواب.

● وفى الحقيقة، وعند التدبر نجد أن انهزام أهل الحق فى جولة أو جولتين أو جولات، لا يعنى أنهم انهزموا ولا أنهم قد قضى عليهم، ولكن معناه عند العقلاء المتدبرين لسنة الله تعالى فى الناس أن الله تعالى يمحص الذين آمنوا، ويبلو صدق الصادقين، ويضع يد المنافقين على مظاهر نفاقهم.

● ومن الحقائق فى هذا المجال أن انهزام أهل الحق من الظواهر الخارجية فقط، أما الحق فهو أنهم مهما انهزموا ثابتون فى أصولهم، وفروعهم فى السماء، وأنهم يثمرون خيرا لأنفسهم وللناس بما يقدمون لهم من هداية، وما يقدمون لأنفسهم من ثواب عند الله تعالى، وهذه ليست دعوى ندعيها، ولكنها الحقيقة التى يعرفها أنصار الحق معرفتهم لأنفسهم، ويدركها أعداء الحق فى كل زمان ومكان.

– وأوضح مثال على ذلك ما يعانيه المسلمون اليوم من العالم المعاصر غربه وشرقه، فقد أدرك الغرب والشرق وإسرائيل أن الصحوة الإسلامية، وحركات الإصلاح والتجديد الإسلامية تملأ البقاع والأصقاع حتى اقتحمت عليهم ديارهم فى الغرب والشرق، واستطاعت أن تجتذب الناس فى إفريقيا وآسيا فتدخلهم فى الإسلام دون أن تقدم لهم من المغريات الدنيوية ما يقدمه الغرب من مال ونساء ومنح وقروض ومعونات، فانجذب هؤلاء إلى الحق ونفروا من الباطل على الرغم من مغريات الباطل وتزييناته!!!

- وكان ذلك سببا جوهريا فى أن يشن الغرب والشرق وإسرائيل على المسلمين اليوم حروبا ضارية فى مجالات الإعلام والفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد والنظم الاجتماعية، وهدفهم من ذلك إخماد جذوة الإسلام فى نفوس المسلمين، فما أفلحت إلا فى قليل من الغافلين الذاهلين عن الحق.

- ولم يكتف العالم المعاصر فى حربه للصحوة الإسلامية بذلك وإنما أضاف إليه سيلا من الاتهامات المشوهة لأصحاب الحركات الإصلاحية التجديدية، كوصفهم بالتطرف والعنف والتشدد والإرهاب، وما كان لمسلم أن يكون كذلك أبدا!!! ولكنها تُهم الحاقدين على الإسلام وعلى الصحوة الإسلامية.

- والعجب العجاب أن كثيرا من الإسلاميين يستفزون فى بلادهم ويحال بينهم وبين التعبير عن مشروعهم فى الإصلاح والتجديد، بينما يسمح بذلك للشيوعيين الملحدين، وكل زاعق وناعق!!!

- وأعجب من ذلك أن دول الغرب التى أصبحت مثلا يحتذى لدى كثير من حكام المسلمين تسمح للأحزاب الدينية يهودية ومسيحية أن تمارس نشاطها السياسى وأن تعبر عن نفسها وعن مشروعاتها فى الإصلاح، والدول الإسلامية تحظر ذلك على المسلمين!!!

● وأهم دلالات هذا المثل: الكلمة الخبيثة أنها لن تعيش طويلا ولن تستقر ولن تقنع أحدا مهما كثرت مغرياتها أو زادت تهديداتها، وصدق الله العظيم فى وصف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وهذا يعنى أنها كلمة لا تستطيع أن تقنع أحداً لأنها خبيثة، أو أنها عمل لا يرضى أحدا لأنه خبيث، وأنها لا تستطيع أن تواجه الحياة، فلابد لها من زوال طال مداها أو قصر.

- ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة...** ﴾ أى يثبتهم على الحق وعلى المنهج الصحيح التام الكامل الذى يعصمهم من التقلبات والمتاهات والضلالات التى يتعرض لها غير المؤمنين الذين يرفضون منهج الله ونظامه.

وهذا التثبيت على الحق فى الدنيا، أما فى الآخرة فالتثبيت يعنى جنة الخلد، وما ينتظر المؤمنين فيها من نعيم مقيم ورضا الله تعالى عنهم ورضاهم عنه.

- ﴿ **ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾.

الظالمون فى هذه الآية هم الكافرون، والكفر ظلم كما أن الشرك ظلم، وهؤلاء الكفار

يبعدهم الله لما يعلمه عنهم من عنادهم للحق وتكذيبهم للرسول ﷺ.

٢ - وجاء الثبات بنفس المعنى: الثبات على الحق بالحجة والبرهان فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾ [الرعد: ٣٨ - ٤٠].

● من قصة هذه الآيات الكريمة أن المشركين كانوا يشككون فى الرسول ﷺ، ويتعجبون من أنه رسول ومع ذلك فله - كسائر الناس - أزواج وذرية!!!

● وكانوا يطلبون منه معجزة غير القرآن الكريم.

● والآيات الكريمة توضح لهم الحقائق وترد على مطالبهم على النحو الذى يقنع من كان له قلب أو ألقى السمع وأراد التعامل مع العقل، وذلك بما يلى:

- أن سنة الله تعالى من يوم أرسل للناس رسلا، أن يختار الرسل من الناس، وما داموا كذلك فمن الطبيعى أن يكون لهم أزواج وذرية، إلا من كان دليلا على قدرة الخالق المطلقة كعيسى عليه السلام الذى لم يكن له أب ولا كانت له ذرية، وهو حالة نادرة لا يقاس عليها.

- فهذا رد على قولهم كيف يكون رسولا وله أزواج وذرية؟.

- وأن الرسول أى رسول ليس له أن يأتى بمعجزة إلا إذا أذن الله تعالى له بذلك، وأن هذه الآية أو تلك المعجزة يختارها الله تعالى كيف يشاء، وليس لرسول أن يقترح على الله تعالى نوع المعجزة ولا وقتها، وليس للناس أن يطلبوا من الرسول معجزة بعينها، لأن كل ذلك لله تعالى وحده، يختارها لكل قوم بما يناسبهم، ويختار لها الزمان والمكان والظروف، إذ الأمر عنده سبحانه أن لكل أجل - أى فترة زمنية، كتابًا - أى معجزة تلائم هذه الفترة.

- ويعلمهم سبحانه وتعالى أنه يمحو ما يشاء من الشرائع بشرائع أخرى، ومن المعجزات بمعجزات أخرى، يمحو هذا ويثبت ذاك لأن عنده أم الكتاب - أى أصل الشرائع - وهو أعلم بما يصلح الناس فى زمان ما ومكان ما.

- وأصل الشرائع الثابت عند الله بالنسبة للناس، الأصل الذى لا يتغير مهما تغير الزمان والمكان هو التوحيد وعبادة الله وحده وفق ما شرع، وأمهات الفضائل الإنسانية وهى كل

ما أمر الله به، أو نهى عنه.

- كل ذلك ثابت فى أم الكتاب، وما وراءه من الأمور قابل للتغيير يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء.

- ومن المتغيرات عند الله تعالى التى يمحوها حينا ويثبتها حينا؛ عقاب هؤلاء المشركين الذين تحدوا خاتم رسله وكذبوه وعجبوا منه وسخروا به وطالبوه بمعجزة غير القرآن الكريم؛ فهو سبحانه قد يعاقبهم فى حياة الرسول ﷺ، وقد يؤجل ذلك إلى حين، وقد يدخر لهم هذا العقاب فى الآخرة لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

- وأن الرسول ﷺ قد يرى عقاب المشركين فى حياته، وقد يتوفى دون أن يرى بهم عقابا، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾.

- والمعنى: أن وظيفة الرسول ﷺ هى: التبليغ عن الله تعالى بكل ما أوحاه إليه، وما شرعه له، دون أن يكون مسئولا أمام الله عن إيمان من يؤمن أو كفر من يكفر، ودون أن يكون مسئولا عن حساب الناس على كفرهم وعنادهم؛ لأن الحساب والعقاب لله وحده.

● ولابد لنا من وقفة عند قوله تعالى: ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ فللعلماء فيها تأويلات غير ما ذكرنا، وهى تأويلات جديرة بالتأمل، نذكر منها ما يلى:

- يرى بعضهم؛ أن المحو والإثبات فى الآية الكريمة معناه: أن لكل كتاب أنزله الله تعالى من السماء مدة مضروبة عند الله ومقداراً معينا من الزمان ونوعا معينا من الناس، فلهذا يمحو الله ما يشاء من هذه الكتب ويثبت منها ما يشاء، فكل أجل كتاب.

- وقد ظل أمر الكتب كذلك كتابا بعد كتاب حتى نسخت جميعها بالقرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على خاتم رسله عليه الصلاة والسلام.

- وقال بعضهم: معناه؛ أن الله تعالى يدبر أمر السَّنة والزمن فيمحو ما يشاء إلا الموت والحياة والسعادة والشقاء فإنه سبحانه قد فرغ منهما.

- وقال بعضهم: معناه؛ أن الأقدار التى قدرها الله تعالى على عباده ينسخ الله منها ما يشاء، ويثبت ما يشاء، واستأنسوا لذلك التفسير بما رواه أحمد بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر».

- ولابن عباس رضى الله عنهما تفسير لهذه الآية، حيث قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذى يمحو، والذى يثبت هو الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير، حتى يموت وهو فى طاعة الله، فهو الذى يثبت».

٣ - وجاء الثبات بمعنى الثبات على الحق والاستمرار فيه، كما دل على تثبيت القلب فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل: ١٠٢، ١٠٣].

● والمعنى: أن الله تعالى أنزل عليك القرآن بالحق أى الصدق، والعدل، ليثبت الذين آمنوا، فيصدقوا بما أنزل فى البداية ثم تخبت له قلوبهم بعد ذلك.

- و **«يثبت الذين آمنوا»** أى بهذا القرآن على الحق الذى آمنوا به، لا يصرفهم عنه صارف من خوف أو طمع.

- **«وهدى وبشرى للمسلمين»** أى هديا لهم فى الحياة الدنيا؛ إن أخذوا بما فيه وعملوا بأمره ونهيه، وهو بشارة للمسلمين بأن لهم عند الله خيرى الدنيا والآخرة، فمن اهتدى بهدى القرآن الكريم استبشر بنعم الله تعالى فى دنياه وأخراه.

- ومما يثبت الذين آمنوا على الحق أن الله تعالى يعلم أن ما يزعمه المشركون من أن القرآن الكريم ليس من عند الله، وإنما يتلقاه محمد ﷺ من بشر من الناس، يقصدون به رجلا أعجميا كان بين ظهرانيهم - وهو غلام لبعض بطون قريش كان يبيع عند الصفا - وكان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه، وكان ذلك شأن النبى ﷺ مع كل أحد؛ يكلمه ويدعوه إلى الله.

وكان هذا الغلام أعجميا فى لسانه لا يعرف من العربية إلا النذر القليل الذى يتعامل مع الناس بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه. فكيف يزعمون أن مثل هذا الغلام الأعجمى اللسان يعلم رسول الله ﷺ ذلك القرآن بلسان عربى مبين؟.

- علم الله تعالى بذلك، وإخبار المؤمنين به مما يثبت إيمانهم ويثبت قلوبهم على الحق الذى آمنوا به ليستمروا عليه لا يحول بينهم وبين الثبات عليه شىء.

ثالثا:

الثبات بمعنى الشجاعة فى المعارك

وعدم الفرار من القتال

وهذا الثبات بذلك المعنى يستدعى التضحية بالمال والوقت والجهد والنفس، لأنه لا ثبات فى المعركة دون ذلك.

وقد ورد الثبات بهذا المعنى فى الآيات الكريمة التالية:

١ - جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٩٤، ٩٥].

● ففى هاتين الآيتين نهى الله تعالى عباده وحذَّرهم من أن يتخذوا أيمانهم خديعةً ومكراً وغدراً، لأن ذلك حرام لا يجوز صدوره من مؤمن.

ومن فعل ذلك كان مثل من كان مستقيما على المحجة، فزلَّتْ قدمُه بعد أن كانت ثابتة على الحق، بسبب ما حلف من أيمان كاذبة، وفى هذا الموقف من العيوب والمخالفات جرم كبير.

- ونهى الله الناس عن أن يشتروا بهذه الأيمان الكاذبة ثمنًا -مهما كان عظيما فى تقديرهم- إذ هو فى الحقيقة ثمن قليل.

ولو علم الإنسان الحق لرأى فيما عند الله أحسن وأفضل من هذا العاجل الفانى مما عند الناس.

● وفى اتخاذ الأيمان سبيلا للغدر والخيانة والخديعة من الأضرار والمخالفات الشرعية ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- الوقوع فيما نهى الله عنه وحذر منه، وحسبه بذلك شراً سوء عاقبة!!!

- والابتعاد عن الحق والصواب، وترك الاستقامة بعد الثباتْ عليها،

- والتحول بهذه الصفة «اتخاذ الأيمان دخلا...» إلى صورة سيئة، مع أن الأصل فى المسلم

أن يكون قدوة حسنة، ليكون فى ذلك دعوة صامتة إلى الدخول فى الإسلام والتمسك بهديه،

– والإعراض بل الصد عن سبيل الله بهذه الصفة فكأنه من غير المؤمنين الذين يصدون عن سبيل الله.

– والوقوع فى مأثم إيثار ما عند الناس على ما عند الله، إذ يروجون بحلفهم وأيمانهم لما ينالون من أعراض الحياة الدنيا.

– وزعزعة العقيدة وتشويهها يجعل الله تعالى عرضة لليمين الكاذبة، مع أن الأصل فى المؤمن ألا يجعل الله عرضة ليمينه إلا إذا استحلفه القاضى ومن فى حكمه.

– والتنكر بهذا الحلف لكثير من القيم الدينية والفضائل الخلقية التى يجب أن يتمسك بها كل مسلم.

٢ – وجاء الثبات بهذا المعنى كذلك فى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧].

● هذه الآية الكريمة تشترط على المؤمنين من أجل أن ينصرهم الله تعالى على أعدائهم وفى كل معاركهم شرطًا أساسيا هو:

– أن ينصروا الله تبارك وتعالى بالتمسك بدينه والجهاد فى سبيله، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، وبحفظ حدوده سبحانه وتعالى والوفاء بعهوده والالتزام بأحكامه، فإن نصروا الله هكذا نصرهم الله تعالى فوفقهم وأيدهم وأمدهم بالعون.

– ونتيجة لنصرهم الله تبارك وتعالى فإنه سبحانه ينصرهم، ويثبت أقدامهم فيمنحهم الشجاعة وثبات القدم فى كل معركة فلا يهابون عدوا، ولا يفرون من معركة.

● ومن الحقائق المقررة فى شريعتنا أن الجزاء من جنس العمل، وقد عرفت هذه الحقيقة من تلك الآية الكريمة: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ...**﴾ ومن غيرها من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

● ويدخل فى قاعدة أن الجزاء من جنس العمل، أن يجزى الله المؤمنين الذين نصروه بأن يثبت أقدامهم فى المعارك كلها.

● ومما هو جدير بالتأمل فى هذه الآية الكريمة أن النصر على الأعداء قد يكون أولا، فإذا

حدث ثبتت أقدام المؤمنين على الحق وازداد تمسكهم بهذا الدين، ولم يبالوا ما أصابهم في سبيله، إذ قد ثبتت أقدامهم في طريق الحق واستقرت حيث شرف الدنيا الآخرة، لأنهم يحقون الحق ولا يفرون من معاركه.

● وقد يكون تثبيت القدم في المعركة مع النصر تثبيتا في الآخرة على الصراط المستقيم، وهذا جزاء لا يعدله جزاء، إذ تثبيت القدم عموما هو التمكن من الأمر، وهو دلالة على القوة والانتصار على الأعداء، ورسوخ المكانة عند الله تعالى.

٣ – وجاء الثبات بنفس المعنى – وهو تثبيت القدم في المعركة – في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ** ﴾ [الأنفال: ١٠، ١١].

● والمعنى أن الله تعالى جعل إمداد المؤمنين بالملائكة في غزوة بدر بشارة بالنصر ليطمئن المؤمنون ويتقدموا فيما هم فيه من دفاع عن الحق، لأن الله تعالى معهم يعينهم وينصرهم، وهذا هو معنى تثبيت الأقدام في المعركة – على الرغم من تفوق الكفار على المؤمنين في العدد والعدة!!!

● وكان من نعم الله تعالى على المؤمنين في معركة الصراع مع الباطل معركة بدر الكبرى ثلاث نعم واضحة هي:

– عندما خاف المؤمنون من قلة الماء أنزل عليهم المطر، فشربوا وتطهروا، وذهبت عنهم وساوس الشيطان؛ فكان المطر نعمة من الله عليهم.

– وعندما حدثتهم أنفسهم بكثرة عدد الأعداء وعدتهم فخافوا، أنعم الله عليهم بالأمن فامتلأت به قلوبهم، فأصابهم النعاس، ولا ينعس إلا الآمن المطمئن، فكان النعاس نعمة من الله تعالى عليهم.

– ولما وجدوا الأرض من تحت أرجلهم رمالا ناعمة تسوخ فيها أقدامهم، فخافوا أن يعيقهم ذلك عن الحركة والكر، جاء المطر فثبت هذه الرمال، فثبتت عليها الأقدام، فذهب عنهم خوف الإعاقة عن الحركة، فكانت تلك نعمة من الله تعالى عليهم.

● فالثبات في هذه الآيات الكريمة ثبات القدم واستقرارها على أرض المعركة بعد ثبات

القلوب والنفوس، فكان من وراء ذلك النصر الكبير الذى حققه الله تعالى للمؤمنين على الكافرين، وللحق على الباطل.

٤ - وجاء الثبات بنفس المعنى الذى نتحدث عنه فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

● والمعنى الذى يدل عليه الثبات فى الآية الأولى من هاتين الآيتين هو ثبات القدم فى أرض المعركة، وهو فى هذه الآية جاء واجبًا أمر الله به، لذلك عُدَّ الفرار من المعركة كبيرة من الكبائر التى يجب أن ينتهى عنها كل مؤمن، إذ الفرار من المعركة سبب فى تمكين الباطل وهزيمة الحق فوق ما فيه من مخالفة ما أمر الله به.

● وفى الآيتين الكريمتين مجمل الأسباب التى تؤدى إلى نصر الحق على الباطل واستعلاء الإيمان على الكفر، وهذه الأسباب - كما تفهم من الآية الكريمة - هى:

- الثبات فى أرض المعركة وترك الفرار؛ حتى لو أدى الثبات إلى الموت والاستشهاد فى سبيل الله تعالى.

- وذكر الله كثيرا، وهذا الذكر يعنى ترديد اللسان لذكر الله تعالى بالتسبيح والتهليل والتكبير وغيرها من كلمات الذكر، كما يعنى التذكر والتفكر والتدبر فى سنن الله تعالى التى دلت على أنه ينصر الحق على الباطل والمؤمنين على الكافرين بعديد من الأسباب، وكثرة الذكر تعنى الاستمرار فيه والاستكثار منه؛ فهو من أوسع أبواب الفلاح فى الدنيا والآخرة.

- وطاعة الله ورسوله: إذ هى الزاد الحقيقى الذى يتزود به من أراد أن ينتصر على عدوه فى أى معركة من المعارك، وأن العدو إنما ينهزم بمعصيته لله تعالى، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يوصى أحد قادته فى الجهاد رضى الله عنه: «واعلم أن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه....».

- ومن أسباب النصر ترك التنازع والفُرقة، مهما تكن أحاديث النفس التى قد يوسوس بها الشيطان، فيوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، وبخاصة فى أجواء المعارك وعند التضحيات.

- ومن أسباب النصر بل من أهم أسبابه الصبر على متاعب المعركة وتكاليفها ومشقاتها، ومن كلمات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يوصى أحد قواده: «وأن النصر مع الصبر»، وحسب الصابر فى المعركة - بل الصابر عموما - أن الله تعالى معه يحفظه ويرعاه، ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

● فالثبات فى هذه الآية الكريمة ثبات قدم فى المعركة وشجاعة تنفى الفرار ومجرد التفكير فيه.

والدعوة إلى الله تعالى معركة بين الحق والباطل، وكل ما يعترض طريقها من عقبات يحتاج إلى الثبات وعدم ترك الموقع مهما كانت المتاعب ومهما بلغت التضحيات.

● وقد جاء الأمر بطاعة الله ورسوله، وبترك أسباب التنازع والاختلاف دليلا على أن النصر لن يتحقق للمؤمنين فى أى معركة إلا بالثبات الذى تسبب فيه طاعة الله ورسوله وترك أسباب التنازع والاختلاف، وإلا كانت الهزيمة والفشل وذهاب القوة وضياع الهيبة أمام الأعداء.

٥ - وجاء الثبات بنفس المعنى وهو تثبيت القدم فى أرض المعركة فى قوله تعالى فى قصة طالوت وجالوت: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ....**﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

● والمعنى أنه لما واجه حزب الإيمان - وكانوا قليلى العدد والعدة - حزب الكفر - وكانوا كثيرى العدد والعدة - وكان حزب الإيمان قد قالوا: ﴿**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾ بينما قال الذين هم على علم منهم بأن وعد الله بالنصر لا يتخلف، وأنه حق: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فكان دعاؤهم ونداؤهم لله تعالى هو تضرعهم إليه قائلين: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ وهى عند التحليل ثلاث دعوات كل واحدة منها تسهم فى تحقيق النصر بإذن الله تعالى وهى:

- «**أفرغ علينا صبرا**» أى أنزل علينا الصبر، والنصر كما هو معروف مع الصبر.

- «**وثبت أقدامنا**» ونحن نلقى العدو، أى جنبنا الفرار والهزيمة والعجز، ومن المعروف كذلك أنه لا نصر مع الفرار والتولى، وعدم الثبات.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهو طلب من الله تعالى ودعاء، ومن المعروف أيضا أن النصر على وجه الحقيقة، إنما يكون من الله عز وجل.

● فكانت النتيجة كما يتوقعون؛ حيث نصرهم الله تعالى على أعدائهم ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمشيئته وحده سبحانه، ومن المعروف أن النصر أصلا من الله وأن العدد والعدة والحذر والكيد وغير ذلك من الأسباب، إنما هي مجرد أسباب يطالب المؤمن بالأخذ بها، وإن كان النصر حقا من عند الله تعالى، والأسباب حقًا قد تخفق حينا وقد تصيب حينا آخر.

● فثبات القدم في المعركة نعمة كبرى تؤدي إلى الانتصار على العدو، وهي نعمة يخص الله بها المؤمنين الذين عمرت قلوبهم بذكر الله، وأيقنوا أن وعده الحق، وأنه ناصر الإيمان على الكفر والحق على الباطل.

● وثبات القدم - كما يفهم من هذه الآية الكريمة - أمل كبير يدعو به المؤمنون، ولسان حالهم وحالنا في كل عصر يقول: اللهم ارزقنا ثبات القدم في كل معركة نخوضها مع الحق ضد الباطل، وانصرنا على كل عدو لدينك ومنهجك وما شرعت للناس من شرائع تحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة.

٦ - وجاء الثبات بمعنى تثبيت القدم في المعركة في قول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

● وفي هذه الآيات الكريمة يُعلم الله تعالى المسلمين كيف يصبرون على متاعب الجهاد في سبيل الله ويضحون بكل شيء حتى بأنفسهم، ويضرب الله تعالى في ذلك الأمثال، وكانت المناسبة هي ما حدث من بعض المسلمين في غزوة أحد عندما أشيع أن النبي ﷺ قد استشهد في المعركة، فعلمهم الله تعالى أن المبدأ والمعتقد الصحيح هو الأبقى من الرجال حتى لو كان الرجل نبيا(١).

(١) لتفصيل ذلك انظر للمؤلف: التربية الإسلامية في سورة آل عمران ص ٢٧٣ - ٢٩١، دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، فإن الله تعالى سوف يبصرك فيما تقرأ وينفعك به.

● والمعنى: ما أكثر الأنبياء الذين قاتل معهم في معركة الحق ضد الباطل رجال مؤمنون، كانوا علامات مضيئة في طريق الإيمان وموكب المؤمنين، فحدث لهم ما حدث للمسلمين في معركة أُحد من ابتلاء فما وهنوا ما أصابهم في سبيل الله من مشقات ومتاعب، وما ضعفوا عن الاستمرار في المعركة على الرغم مما أصابهم، وما استسلموا للجزع ولا خضعوا للأعداء، وإنما كانوا أمثلة تحتذى لمن يجاهدون في سبيل الله من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمة الله، بما بذلوا من جهد وصبر، تضحية وفداء من أجل الحق الذى يؤمنون به.

● هذا هو شأن المؤمنين جميعا في أى زمان ومكان؛ ثبات على الحق مهما قدموا من شهداء، حتى لو كان بعض الشهداء، نبيا رسولا لأن النبى رجل، والمبادئ والعقائد أبقى من الرجال، إذ الأصل أن الناس جميعا: أنبياء وغير أنبياء إلى موت وفناء، وأما ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون فإلى بقاء واستمرار حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

● واستمرار المؤمن على عقيدته وإيمانه بالله تعالى ومنهجه هو الأصل، وهو المطلوب منه شرعا، غير أن هذا الاستمرار على المبدأ الحق لا يتيسر إلا أن تكون في المؤمنين صفات لها علاقة بذلك من أهمها ما نذكره فيما يلى:

– ترك الوهن والجزع لما يصيب المؤمنين من محن وابتلاء،

– وترك الضعف أو التراجع عن الاستمرار في المعركة مهما كانت التضحيات.

– وعدم الاستسلام للعدو أو الفرار منه حتى لو كان المصير هو الاستشهاد في سبيل الله تعالى.

– والصبر على كل ما يصيب المؤمن في المعركة من نصب أو وصب لأن النصر لا يكون إلا مع الصبر.

– والإلحاح على الله تعالى في الدعاء بترديد مقولات المؤمنين في هذه المواقف وأمثالها، وتلك الدعوات هي:

﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ لأن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه.

«**وثبت أقدامنا**» لأن الثبات في معركة الحق مطلب شرعى وتركه كبيرة من الكبائر.

«**وانصرنا على القوم الكافرين**»، وهذا طلب صريح للنصر من الله تعالى، وهو يعنى أمرين:

أحدهما: اليقين بأن النصر من عند الله،

والآخر: عدم الاعتماد على الأسباب حتى بعد اتخاذها.

● ومما يلحظ أن دعوات المؤمنين في هذا المجال جاءت خالية من المطالب الشخصية، والمطالب الدنيوية، ولهذا كانت جديرة بالإجابة.

● وقد أجابهم الله تعالى إلى مطالبهم بما يلي: - كما تدل على ذلك الآية الكريمة -

- ﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا**﴾ وثواب الدنيا هو النصر على عدوهم وهو ثواب لأنه من الله تعالى، وهو ثواب الدنيا لأنه يحقق السعادة الدنيوية للمؤمنين.

- «**وحسن ثواب الآخرة**» وهو مغفرة الذنوب، ودخول الجنة التي هي قمة مطالب المؤمنين في كل زمان ومكان.

وبعد: فتلك جولة في تتبع معنى الثبات في القرآن الكريم، أردنا بها - على سابق عادتنا في هذه السلسلة - «في فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا» أن نتأسى بهذه الآيات القرآنية الكريمة لتعرف معنى الثبات.

وما دامت كلمة الثبات قرآنية فإنها تأخذ من ورودها في القرآن الكريم ثقة ورسوخا في العربية، وتصبح معانيها العديدة وما تدل عليه من مضامين مألوفة مأنوسة لكل مسلم، ولكل عربي اللسان مهما تقلبت في تراكيبها لتأخذ من كل تركيب معنى جديدا، وتستمد من كل سياق مضمونا ينفع في فكر المسلم وثقافته وحياته كلها.

هكذا كانت عادتنا في الحلقات السبع التي أصدرناها من هذه السلسلة، وسوف نستمر عليها حتى الحلقة العاشرة الأخيرة بإذن الله تعالى وتوفيقه.

● ولقد يقول بعض الناس: لماذا التوسع في تتبع الكلمة في كل آية قرآنية وردت فيها؟

وجوابنا على ذلك أن هذا التوسع جاء لأسباب من أهمها:

- أننا نكتب متخذين العربية لغة لنا، والقرآن الكريم إنما جاء بلسان عربي مبين، ومعرفة أي كلمة معرفة دقيقة في دلالتها إنما يكون أوثق وأجدى إذا تتبعت في القرآن الكريم.

- وأننا نرغب في أن تكون ثقافة القرآن الكريم ملء عقول المسلمين وقلوبهم، لتطرد عن هذه العقول والقلوب خبث بعض الثقافات المعاصرة التي تغرى الناس بالتحلل من القيم الإسلامية بما تحمله إليهم من غثاء يضر ولا ينفع، وتضليل عن الحق، بل صد عن سبيل الله تعالى.

– وأننا نحب أن نصل القارئ المسلم بالقرآن الكريم يتدبره، ويسترشد بما فيه، ويهتدى بهديه ويعمل بتشريعه وينهج بمنهجه فى حياته كلها، حتى يحقق به سعادة الدنيا والآخرة.

– وأننا نرجو بهذا أن نقرب القرآن الكريم إلى الناس ليفهموه ويعتزوا به، ويرفضوا أى منهج سواه، ويعلموا أن ما جاء فى القرآن الكريم من القصص والأخبار والأحكام والآداب والقيم هو من أجل صلاح الإنسان صلاحا حقيقيا أى دائما مستمرا، لا يتغير بتغير الزمان والمكان والظروف، فإذا علموا ذلك من خلال ما نقدمه لهم من دراسات حول بعض سور القرآن الكريم[1] فى سلسلة التربية فى القرآن الكريم.

ومن خلال سلسلة مفردات التربية الإسلامية[2].

ومن خلال هذه السلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا. وغير ذلك الكتب التى ألفها غيرنا من العلماء فتوجهوا بها إلى القرآن الكريم يستلهمونه، ويلقون حول آياته الكريمة من الضوء ما يوضح مدلولا منها بلغة هذا العصر الذى نعيشه.

إذا علم المسلمون من خلال هذه الدراسات حول القرآن الكريم أن القرآن منهج حياة إنسانية كريمة، أدركوا الأهداف الحقيقية وراء الحملات التى تستهدف تشويه القرآن الكريم[3] فلم ينخدعوا بما يقوله هؤلاء الأعداء من باطل ولم ينصرفوا عن كتابهم الذى فيه ذكرهم وشرفهم وعزهم وسعادة دنياهم وأخراهم.

– كما نرجو أن يجد القارئ فى هذه الدراسات حول بعض سور القرآن الكريم التى قدمنا طريقة النظر الصحيح المتأثر بقيم القرآن الكريم إلى مختلف القضايا المطروحة على الساحة فى العالم الإسلامى، فيكون ذلك له دليلا يهتدى به فى حياته دون أن يصرفه عنه صارف.

● فكل دراسة حول سورة من سور القرآن الكريم أو جملة من آياته الكريمة زاد يتزود به

---

(١) صدر منها: – سورة المائدة وسورة النور وسورة آل عمران وسورة الأنفال وسورة الأحزاب – دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة وسوف نصدر إذا أذن الله سورتى النساء والتوبة.

(٢) صدر من هذه السلسلة: التربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية العقلية، وسنوالى إصدار باقى المفردات العشر تباعا إذا أذن الله تعالى وأمد بالعون والتوفيق.

(٣) فى هذه الحملات: انظر للمؤلف: الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى. الفصل الأول: حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام نشر دار المنار الحديثة بالقاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م.

المسلم فى طريقه، ومنار يهتدى به فى ذلك الجو الحالك الذى يصطنعه أعداء الإسلام ويروج له جهلة المسلمين الذين ينظرون إلى القرآن الكريم على أنه نص أدبى أو فنى!!! أو يزور به أولئك الذين يتهمون القرآن بأنه ملىء بالغيبيات التى لا يقرها العقل، أو أولئك الذين يسخرون من الجنة والنار والملائكة، ولا يجرؤون أن يسخروا من الشيطان مع أنه من الغيبيات، ولكن فصيلا منهم عبد الشيطان!!! وفصيلا آخر عبد شهواته وأهواءه وضلوا فى ذلك ضلالا مبينا.

وروى الدارمى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله إن أمتك ستفتن من بعدك قال: فسأل رسول الله ﷺ، أو سئل: ما المخرج منها؟ قال: «الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ومن ولى هذا الأمر من جبار فحكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم فيه خبر من قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو الذى سمعته الجن فلم تتناها أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عبره ولا تفنى عجائبه».

● لهذا وغيره من الأسباب توسعنا فى الاستشهاد على معنى الثبات من القرآن الكريم، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا أجر من تعلم القرآن وعلمه.

وبعد:

فمن أجل توثيق معنى الثبات وتعزيز هذا فى نفوس المسلمين، نعطف البحث عن كلمة الثبات فى السنة النبوية المطهرة على البحث عنها فى القرآن الكريم، إذ السنة النبوية هى المفصلة للقرآن الكريم الشارحة له، الموضحة لمضامينه، والرسول ﷺ «لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى»، فكلمات السنة النبوية تشبه كلمات القرآن الكريم فى عربيتها المبينة وفى هديها الناس إلى الصراط المستقيم صراط الله، ولقد أوتى الرسول صلى الله عليه مثل القرآن بتلك الأحاديث النبوية الشريفة.

فإلى الفصل الثانى من هذا الباب: مفهوم الثبات فى السنة النبوية المطهرة، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

الفصل الثانى

مفهوم الثبات فى السنة النبوية المطهرة

وردت كلمة «الثبات» فى السنة النبوية المطهرة، ووردت بعض مشتقاتها أكثر من ثلاثين مرة، ولها فى كل موضع وردت فيه معنى ودلالة وإيحاء، مما يؤكد أن للثبات معانى عديدة على لسان الرسول ﷺ، أفصح من نطق العربية.

وسوف نحاول أن نرصد من هذه المعانى للكلمة ما يوفق الله تعالى إليه، مما يُجلى معنى الكلمة ويوضح دلالاتها وإيحاءاتها، والله المستعان.

أولا:

الثبات بمعنى ثبات اللسان والقول، وقوة الحجة، نتيجة لتوفيق الله تعالى للمسلم المخلص لله فيما يقول؛ بأن يسوق على لسانه الحق ويهديه إليه.

ومن ذلك ما نذكره فى الأحاديث النبوية التالية:

١ - روى الإمام أحمد بسنده عن علىّ رضى الله عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت يا رسول الله: إنك بعثتنى إلى قوم هم أسنّ منى، لأقضى بينهم قال: «اذهب فإن الله تعالى سيثبت لسانك، ويهدى قلبك»، ورواه أبو داود فى باب الأقضية.

● وفى الحديث الشريف والحوار بين النبى ﷺ وعلى بن أبى طالب من المواقف المعلمة الهادية ما نسوق بعضه فيما يلى:

- من المقرر فى الإسلام احترام الكبار وأصحاب الأسنان؛ إذ وردت فى توقيرهم أحاديث نبوية شريفة، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه يعرف ذلك ويعرف أن من بعثه الرسول ﷺ إليهم من مسلمى اليمن فيهم من هم أسن منه، وأن القاضى يجب أن يكون له من سنه ما يوقع الهيبة لقضائه فى نفوس من يقضى بينهم، ولذلك جاء تساؤله لينم عن دهشة وتعجب، ولكن الرسول ﷺ طمأنه وأمضى بعثه إلى اليمن.

- وأن التقاضى بين المسلمين لا يعيب أحد المتقاضين، إذ لكل منهم وجهة نظر قد تختلف مع وجهة نظر أخيه، وعندئذ فإن القضاء يفصل بينهم بالحق، فينصاعون إليه راضين

متقربين بذلك الانصياع إلى الله تعالى.

– وفى الحديث أن القاضى المخلص لله فى قضائه سوف يثبت الله تعالى لسانه على قول الحق، وسوف يمنحه الحجة القوية التى يقنع بها أطراف التقاضى، وسوف يمنحه الله تعالى من التوفيق فى الرأى ما يجعل لسانه ثابتا على الحق «فإن الله سيثبت لسانك ويهدى قلبك» والقلب هنا بمعنى العقل.

– فالثبات فى الحديث الشريف استقرار القلب واللسان على الحق، مع قوة الحجة والبرهان.

٢ – وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال: رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها، فإذا الإنسان دُفن فتفرق عنه أصحابه جاءه ملك فى يده مطراق فأقعده. قال: ما تقول فى هذا الرجل؟.

فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: صدقت، ثم يفتح له باب إلى النار فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك فيفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه فيقول له: اسكن، ويفسح له فى قبره.

وإن كان كافرا أو منافقا يقول له: ما تقول فى هذا الرجل؟

فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا،

فيقول: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا، ويفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه قمعة بالمطراق يسمعها خلق الله كلهم غير الثقلين.

فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق إلا هُبل عند ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت».

ورواه النسائى بسنده فى باب الجنائز.

● فكلمة الثبات فى الحديث الشريف تعنى: ثبات اللسان على الحق، وإلهام القلب الهدى والسداد، وكل ذلك من توفيق الله تعالى.

٣ – وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو:

رب أعنى ولا تُعن علىَّ، وانصرنى ولا تنصر علىَّ، وامكر لى ولا تمكر علىَّ، واهدنى ويسر الهدى إلىَّ، وانصرنى على من بغى علىَّ.

رب اجعلنى لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا: إليك مخبتًا، لك أواها منيبا.

رب تقبل دعوتى، واغسل حوبتى[1]، وأجب دعوتى، وثبت حجتى، واهد قلبى، وسدد لسانى واسلل سخيمة قلبى»، ورواه أبو داود بسنده فى باب الوتر.

– وثبت حجتى؛ أى أعطنى قوة الحجة وثبات اللسان على الحق.

٤ – وروى الترمذى بسنده عن الزبير بن العوام رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم؛ الحسد والبغضاء هى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

فالثبات هنا يعنى تثبيت المحبة والمحبة تثبيت للإيمان، والإيمان تثبيت لدخول الجنة، وكل ذلك من توفيق الله تعالى لعباده المؤمنين بأن يسوق على لسانهم الحق، ويقوى حجتهم فى الإيمان.

ثانيا:

الثبات بمعنى ثبات القدم وثبات الموقف، والصبر على المتاعب، وهذه معانٍ تُعد فى الإسلام من الفضائل التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم، ومن ذلك ما نذكر فيما يلى:

١ – روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين كشف الستارة والناس خلف أبى بكر رضى الله عنه، فنظرت إلى وجهه كأنه ورقة مصحف، فأراد الناس أن يتحركوا فأشار إليهم «أن اثبتوا»، وألقى السجف، وتوفى فى آخر ذلك اليوم ﷺ.

● واثبتوا هنا؛ تعنى قفوا فى أماكنكم ولا تتحركوا.

---

(١) الحوبة الإثم والحاجة، والهَمّ، والحالة، ومن يأثم الإنسان فى عقوقه كالأبوين. والمقصود بها فى الحديث: الإثم.

٢ – وروى ابن ماجة بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال الغداة فخفض فيه ورفع، حتى ظننا أنه فى طائفة النخل[١]، فلما رجعنا إلى رسول الله ﷺ عرف ذلك فينا، فقال: ما شأنكم؟ فقلنا يا رسول الله: ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ثم رفعت حتى ظننا أنه فى طائفة النخل، قال: «غير الدجال أخوفنى عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه قائمة كأنى بعبد العزى بن قطن، فمن رآه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه يخرج من خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله «اثبتوا» فقلنا يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟

قال: أربعون سنة... «الحديث»[٢].

● وكلمة «اثبتوا» تعنى الثبات على إيمانهم وموقفهم من التمسك بالحق، فلا ينهزمون أمام الدجال ولا يفرون منه، وإنما يواجهونه ولو ماتوا شهداء.

٣ – وروى أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أُحرّم ما بين لابتى المدينة أن يقطع عضاها، أو يقتل صيدها، وقال: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة».

فالثبات فى هذا صبر وتجلد واحتمال للمشقات، فهو ثبات قدم فى موقف صعب شاق، والثبات على المشاق والمتاعب فى سبيل الله من الفضائل العظيمة، بل الثبات والصبر على أى مشقة من مشاق الدنيا فى سبيل الله تعالى، له عند الله أجر عظيم.

وروى الإمام مسلم هذا الحديث فى باب الحج.

٤ – وروى الدارمى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله، فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت».

---

(١) كناية عن أن الدجّال قرب منهم، كأنه فى نخلهم.

(٢) انظر الحديث كاملا فى سنن ابن ماجة ٢ / ٥٠٩ ط دار الفكر ببيروت – دون تاريخ فى صدر الطبعة ولكن فى ختامه: ختام طبعه فى ١٧ من شهر المحرم سنة ١٣٤٩ هـ بالمطبعة التازية بمصر المحمية.

• والثبات هنا هو ثبات القدم فى المعركة والصبر والشجاعة، مع الاستعانة بذكر الله والصمت لكسب المعركة مع أعداء الله، وتلك الثلاثة: الثبات وذكر الله والصمت من عوامل النصر بكل تأكيد.

والقاعدة التى يمكن أن تؤخذ من الحديث الشريف هى: أن الجيش الذى يحدث جلبة وضجة ينهزم أمام الجيش الثابت الذى يذكر الله ويصمت.

٥ - وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أو نام صلىَّ بالنهار ثنتى عشرة ركعة، قالت: وما رأيته قام ليلة إلى الصبح ولا صام شهراً متتابعا إلا رمضان، وقالت: كان رسول الله ﷺ يعمل عملا يثبته، وفى رواية: إذا عملْ عملا ثبته».

ورواه مسلم فى باب المسافرين.

والثبات هنا هو الاستقرار والاستمرار فى العمل حتى يثبت دون أن يخطف العمل خطفا، فيمارس مرة واحدة أو مرتين، وفى هذا تعليم للمسلمين أن يثبتوا على العمل الصالح، ولا يكتفوا بمجرد القيام بالعمل على عجل ودون استقرار واستمرار.

ثالثا:

الثبات بمعنى ثبات القلب:

١ - روى الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك» فقلت: يا نبى الله: آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء»

ورواه ابن ماجة بسنده أيضا.

فالثبات فى قوله ﷺ: «ثبت قلبى على دينك» يعنى ثبات القلب على الحق وتمكن الدين منه، وفى هذا الدعاء النبوى ما يجعل المؤمن على خوف من أن ينقلب قلبه، فعندئذ يكثر من الطاعات حتى يثبت الله قلبه على الدين.

٢ - وروى أحمد بسنده عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس فى سفر فنزل منزلا فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة نعبث بها، فأنكرت عليه فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا كلمتى هذه فلا تحفظوها علىَّ، واحفظوا منى ما

أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هذه الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك قلبا سليما، وأسألك لسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

ورواه النسائي بسنده في باب السهو، وباب الدعوات.

● والثبات في الأمر ثبات القلب على الحق وعلى الدين.

٣ - وروى أحمد بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا تريحني من ذي الخلصة - وهو بيت في خثعم يسمى كعبة اليمانية - قال - جرير -: فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس - وكانوا أصحاب خيل - فأخبرت رسول الله ﷺ أني لا أثبت على الخيل، فضرب في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: «اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا»، فانطلق إليها - أي إلى ذي الخلصة - فكسرها وحرقها، فأرسل إلى النبي ﷺ يبشره، فقال رسول جرير لرسول الله ﷺ: والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب، فبارك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات».

ورواه البخاري بسند في باب الجهاد.

كما رواه ابن ماجة بسنده في مقدمة سننه.

● والثبات هنا ثبات قلب يؤدي إلى الاستقرار على ظهور الخيل، إذ هو شجاعة نابعة من القلب.

رابعا:

الثبات بمعنى تأكيد القول والعمل والتثبت منهما.

١ - روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما:

يا رسول الله: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله».

وقال الآخر: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فمرني بأمر أتثبت به.
فقال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل».

وأتثبت هنا بمعنى أؤكد العمل الذى تأمرنى به .

٢ – وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أفتى بفتيا غير ثبت، فإنما إثمه على من أفتاه» .

غير ثبت أى متأكد منها تمام التأكد .

٣ – وروى ابن ماجة بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد، فأرادوا أن يقتربوا فنزلت: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (١٢) ﴾ [يس:١٢] فثبتوا؛ أى استقروا ولم ينتقلوا فأكدوا بذلك ثوابهم عند الله تعالى .

٤ – وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: بعثنى رسول الله ﷺ مع أخى عبد الرحمن بن أبى بكر فأعمرنى من التنعيم مكان عمرتى التى فاتتنى . . . وأمر رسول الله نساءه فحللن بعمرة، وأمر رسول الله الناس أن يُحل من لم يكن معه هدى من أشراف الناس أن يثبت على حرمه» أى إحرامه .

ويثبت هنا يستقر ولا يغير إحرامه .

٥ – وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين ثم يقال: ألا تَتْبعَ كلُّ أمة ما كانوا يعبدون، فيتمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب الصُّور صُوَره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا تَتْبَعُون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك: الله ربنا، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويثبتهم، ثم يتوارى ثم يطلع فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك، نَعُوذ بالله منك، الله ربنا وهذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويثبتهم . . .» .

٦ – وروى أحمد بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لايبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» قال . . أى ابن مسعود – : وأتى رسول الله ﷺ مالٌ فقَسَّمه، قال – أى ابن مسعود – فمررتُ برجلين، وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة، فتثبتُ حتى سمعتُ ما قالا: ثم أتيت رسول الله ﷺ، فقلت

يا رسول الله: إنك قلت لنا: لايُبْلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا، وإنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا، قال - أى ابن مسعود -: فاحمَرَّ وجه رسول الله ﷺ، وشق عليه ثم قال: «دعنا منك، فقد أوذى موسى أكثر من ذلك ثم صبر».

٧ - وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن زيد - وهو أخو الحارث بن الخزرج - رضى الله عنهما، أنه رأى رؤيا فلُقِّن الأذان: الله أكبر الله أكبر... إلى آخر الأذان، فأخبر بها رسول الله ﷺ فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه فإنه أندى صوتا منك، فلما أذَّن بلال، وسمعها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه وعن بلال - فقال - أى عمر -: وهو فى بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر إزاره وهو يقول: يا نبى الله، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد، فذاك أثبت».

وبعد: فتلك كانت جولة فى سنة رسول الله ﷺ، تتبعت فيها كلمة الثبات وبعض مشتقاتها، لتعرف دلالاتها ومعانيها وإيحاءاتها، أرجو أن أكون قد وفقتُ فيها، وأسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة.

الفصل الرابع

الثبات فى تاريخ المسلمين

كان للثبات فى تاريخ المسلمين مكانة ومكان.

● أما مكانة الثبات فى تاريخهم، فكانت أعظم مكانة وأرفعها قدرا، بل كانت مكانته الذروة، لأن الثبات أوضح ما يكون وأكثر ما يطلب فى الجهاد فى سبيل الله، والجهاد كما نعرف هو ذروة سنام الإسلام كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

كما أن مكانة الثبات أرفع المكانات؛ لأنه تشبث بالحق وإصرار عليه وتضحية فى سبيله، إذ لولا الثبات على الحق لضاع الحق، ولو ضاع الحق لفقد المسلمون أعز ما يعتزون به.

وكذلك يرتبط الثبات بالصبر، والصبر من أبرز الصفات التى يجب أن يتحلى بها المؤمن فى حياته كلها ومع كل شدة يقع فيها، والجهاد فى سبيل الله لايتم معه النصر إلا بالصبر، فقد روى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «... واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

● فكل من الجهاد، والحق، والصبر، يحتاج إلى ثبات، ولولا الثبات فى هذه الأمور لما كانت أصلا، ولما نقصت لو كانت.

- فمن المسلَّم به أنه بغير الثبات فى الجهاد فى ميدان القتال يكون الفرار والتولى، وهذا من أكبر الكبائر.

- ومن المقطوع به أنه بغير الثبات على الحق بعد التواصى به لن يكون حق، إذ كيف يكون الحق وأصحابه غير ثابتين عليه؟

- ومن المؤكد أنه بغير الثبات لن يكون صبر على مكروه ولا على شدة، ولن يكون نصر بغير صبر، فالنصر فى أى معركة يحتاج صبرا، والصبر فى أى وقت يحتاج ثباتا.

● وهكذا تتضح مكانة الثبات فى تاريخ المسلمين، بحيث لا يكون المسلمون فى أى زمان أو مكان أو موقف إلا والثبات صفة أصيلة من صفاتهم.

● وأما مكان الثبات بين المسلمين، فله أعلى مكان وأرفعه، إذ هو من أهم الصفات الفاضلة التى دعا الإسلام إلى التحلى بها فى كل موقف، إذ لامصداقية لمسلم غير ثابت على دينه وعلى الحق وعلى المحنة والفتنة بحيث لاتزعزعه عما يؤمن به من الحق، وإنما يثبت حتى ينتصر أو يلقى ربه شهيدا، فتلك هى المصداقية المطلوبة من كل مؤمن بالله تعالى.

● وتاريخ المسلمين يبدأ برسول الله ﷺ ثم بصحابته رضوان الله عليهم ثم بتابعيهم ومن بعدهم من أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون، ثم بالمصلحين والصالحين من المؤمنين على مر العصور، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

● ولو شئنا أن نستشهد على ثبات كل هؤلاء، فى مواقف الحق والجهاد والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما وسعتنا صفحات هذا الكتاب كله، ولكننا نكتفى بأن نسوق إلى القارئ بعض الشواهد والأمثلة تاركين باقى النماذج لمن أراد أن يتعمق فى قراءة السيرة النبوية وسير الصحابة رضى الله عنهم، وتاريخ المصلحين والمجددين وصالحى المؤمنين.

● ولنبدأ ببعض الأمثلة لثبات الرسول ﷺ فى كل موقف يحتاج إلى ثبات:

١ - نماذج من ثبات الرسول ﷺ.

كان الثبات بكل معنى من معانيه التى أوضحنا صفة أساسية من صفاته ﷺ، وكل صفاته ﷺ فاضلة لاتفارقه أبدا، فهو جامع لكل صفات الخير، وحسبه ما خاطبه به ربه سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[القلم:٤]، وهذا الخلق العظيم كما جاء على لسان زوجه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: «كان خلقه القرآن...»، وتلك نماذج من ثباته ﷺ:

أولا:

ثباته على الحق.

وكان هذا الثبات ملازما له منذ خطا خطواته الأولى فى الدعوة إلى الله، فمنذ أن واجه الرسول ﷺ المشركين بدعوة التوحيد وتحقير شأن الأصنام والمعبودات من دون الله، وهو عرضة لأذاهم، حتى بلغ بهم حد محاولة قتله ﷺ، فضلا عن التضييق والتعذيب والتحدى، ومع كل ذلك فقد كان ثابتا لايتزحزح عن الحق الذى يدعو إليه، لا يقبل

مساومة، ولايهاب وعيدا أو تهديدا، كما نوضح ذلك فيما يلي:

أ - ذكرت كتب السيرة النبوية ثباته أمام محاولات كفار قريش، ومساوماتهم، وتهديدهم؛ ما ننقله عن سيرة ابن هشام، قال:

- مشت قريش إلى أبى طالب عم النبى ﷺ وكافله بعد وفاة جده عبد المطلب، مشوا إليه ثلاث مرات يحاولون أن يتخلى أبو طالب عن ابن أخيه، وأبو طالب يرفض هذا التخلى، وكان ذلك كما يلى:

● مشى إلى أبى طالب أشراف قريش وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه... فردهم أبو طالب رداً جميلا.

● ومشوا إليه ثانية ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان فتى قويا جميلا، فطلبوا من أبى طالب أن يتخذ عمارة ولدا له، وأن يسلمهم محمداً ﷺ، فأبى أبو طالب ذلك.

● ومشوا إليه ثالثة - وهم أكثر شرا - فقالوا: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنته عنا، وإنا والله لانصبر على هذا، من شَتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعَيْب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

وعظم ذلك عند أبى طالب وخاف عاقبته، فبعث إلى النبى ﷺ فقص عليه رسالة قريش، ثم قال له: فَأَبْقِ علىّ وعلى نفسك، ولا تَحملنى من الأمر ما لا أطيق.

فقال النبى ﷺ لعمه: «ياعَمّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ماتركته».

● هذا هو الثبات على الحق والإصرار عليه وعلى المضى فى طريقه دون خوف أو وجل مهما تكاثر الأعداء وكانوا أصحاب الكلمة والقوة والقدرة على ممارسة الشر، وهذا أحد مواقف الثبات فى حياة النبى ﷺ.

ب - وذكر ابن هشام فى السيرة النبوية، قال:

- «اجتمع رؤساء قريش ووجوهها يوما عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا فيه؛ فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فائتهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا - وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداءٌ، وكان عليهم حريصا؛ يحب رشدهم ويعز عليه عَنَتُهم - حتى جلس إليهم:

فقالوا له: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك...

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا.

وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذى يأتيك رِئياً تراه قد غلب عليك،

- وكانوا يُسمُّون التابع من الجن رئيا - فربما كان ذلك،

بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نُعْذَرَ فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتُ بما جئتُ أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىَّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىَّ أَصْبِر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم»(١).

● وذاك موقف من مواقف الثبات على الحق مع ضخامة المغريات وعظم الوعود، وشدة التهديد والإرهاب بالوعيد.

جـ - وروى ابن إسحاق قال:

- غالَتْ قريش فى التضييق على الرسول ﷺ وأرادوا أن يأخذوا عليه العهد ليكف عنهم دعوته، ذلك عندما علموا أن أبا طالب قد اشتكى من مرض الموت وثقل، فقالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، فليأخذ على ابن أخيه وليعطه منا، والله ما نأمَن منْ أن يبتزونا أمرنا، أو قالوا: فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه - أى إلى النبى ﷺ - شىء،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ مع بعض الاختصار. ط. الحلبى - القاهرة: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

فتعيرنا العرب؛ يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إليه فكلموه – وهم خمسة وعشرون رجلا – وهم أشراف قومه – فقالوا: يا أبا طالب؛ إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوَّفنا عليك؛ وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكُفَّ عنا ونكف عنه، وليدعنا ودينا وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب فجاءه – ﷺ – ؛ فقال له أبو طالب: يا ابن أخى، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه، من عدم تعرض كل فريق للآخر.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم...»؟!

فلما قال ذلك، توقفوا، وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحدّ، ثم قال أبو جهل: ما هى؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها.

قال – ﷺ –: «لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه».

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريدنا يا محمد أن نجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه.

وفى هؤلاء نزل قول الله تعالى: ﴿**صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)**﴾ [ص: ١، ٧].

- وذلك موقف من مواقف الثبات على الحق، لكل مؤمن فيه قدوة بخاتم الأنبياء ﷺ.

د – وذكر ابن هشام فى السيرة النَّبَوية:

قال: غالَتْ قريشٌ فى التضييق على الرسول ﷺ وعلى المسلمين بعد هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة وحصولهم هناك على مأمن لدى النجاشى، حيث أرسلت قريش وفدا

إلى النجاشى يحمل إليه الهدايا ويطلب منه استرداد المهاجرين، فرفض النجاشى وخاب مسعى قريش، فزادت من تضييقها على النبى ﷺ وأصحابه، فاجتمع رؤساء المشركين وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه ضد النبى ﷺ وبنى هاشم وبنى المطلب، أجمعوا فى هذا العقد على ألا يُنْكحوا إليهم ولا يُنْكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا على ذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم.

وحبسوهم فى شعب بنى هاشم ما يقرب من ثلاث سنين، يعانون من هذه المقاطعة الصارمة الباغية، حتى أكلوا ورق الأشجار وأكلوا الجلود، وكانوا لايخرجون من الشعب لشراء حوائجهم إلا فى الأشهر الحرم، وكان أهل مكة يزيدون عليهم فى الأسعار نكاية فيهم.

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى الشعب واجتمعوا له، وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم[١].

● كل ذلك حدث ورسول الله ﷺ ماض فى دعوته يدعو قومه ليلاً ونهارا، وسرًا وجهارا، مباديا بأمر الله لايتقى فيه أحدا من الناس.

وذلك هو الثبات على الحق والمضى فى طريقه مهما تفاقمت الأزمات وزادت المشقات، وذلك شأن أصحاب الدعوات.

هـ - وقال ابن إسحاق:

« ... فجعلت قريش حين منع الله رسوله منها، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم.

ومنهم من سَمَّى لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن فى عامة من ذكر الله من الكفار.

- فكان ممن سمَّى لنا من قريش ممن نزل فيه القران عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية - حمالة الحطب - أنزل الله فيهما: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ [سورة المسد].

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام: مرجع سابق: ١/٣٥٢.

– ومنهم أمية بن خلف بن وهب، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [سورة الهمزة].

– ومنهم العاص بن وائل السهمي، وفيه أنزل الله تعالى فيه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ – ٨٠].

– ومنهم أبو جهل عمرو بن هشام، وقد أنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

– ومنهم النضر بن الحارث بن علقمة، أنزل الله تعالى فيه عددا من الآيات الكريمة منها: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5) ﴾ [الفرقان: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) ﴾ [الجاثية: ٧،٨]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨ – ١٠٠].

– ومنهم الأخنس بن شريق، كان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠،١٣].

– ومنهم أبي بن خلف بن وهب، وعقبة بن أبي معيط، وكانا متصافيين على عداوة رسول الله ﷺ وإيذائه، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٩].

● كل هؤلاء تحدوا رسول الله ﷺ وآذوه وأنزل الله فيهم قرآنا، وغيرهم ممن جاء ذكرهم في

الآيات الكريمة التى نزلت فى الكافرين والمعاندين.

● وكان ﷺ ثابتا فى كل تلك المواقف التى تحدوه فيها وآذوه بما لم يحتمله إلا هو ﷺ.

و - جاء فى السنة النبوية ما يؤكد ثباته على الحق ﷺ

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيت فى الله وما يُؤْذَى أحد، وأُخفتُ فى الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لى ولبلال - رضى الله عنه - ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها، وقد سألت رسول الله ﷺ عما لقى من قومه، فقال: «لقد لقيت من قومك؛ وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال: إن الله قد سمع كلام قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم؛ فنادانى ملك الجبال فسلَّم علىّ ثم قال: يامحمد، فقال ذلك، فما شِئْتَ؛ إن شئتَ أطبق عليهم الأخشبين، قلت بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئا».

● أهناك ثبات على الحق - على الرغم مما يلاقيه المتمسك بالحق من عناء - أعظم من هذا الثبات؟

ثانيا:

ثبات فى الحرب

لقد كان ﷺ مضرب المثل فى الثبات فى أرض المعركة جهادا فى سبيل الله؛ حتى تكون كلمة الله هى العليا، وكل المعارك التى خاضها رسول الله ﷺ كانت دليلا على هذا الثبات وذلك الإصرار على مواجهة العدو مهما كانت التضحيات.

ولنذكر فى هذا المجال بعض الشواهد:

أ - فى معركة بدر الكبرى

كان الثبات فى معركة بدر الكبرى أن فئة قليلة العدد والعدة لقيت فئة كثيرة العدد والعدة - ثلاثمائة يلاقون ألفاً -!!!

وكان الرسول ﷺ قد خرج إلى بدر ليعترض عير قريش لا ليقاتل، فما كان قد استعد هو وأصحابه لهذه الحرب استعداد قتال، ومع ذلك دخل المعركة وقاتل وانتصر!!!

أليس ذلك هو الثبات فى الحرب بأجلى معانيه؟

لقد كانت معركة بدر معركة الثبات، ثبات القلة المؤمنة أمام الكثرة الكافرة الظالمة.

ب - وفى معركة أحد

وهى المعركة التى ابتلى فيها المسلمون بهزيمة موجعة فى ميدان القتال، لمخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ ومغادرتهم لأماكنهم عندما رأوا الجولة الأولى للمسلمين على المشركين.

ولقد كان الثبات فى هذه المعركة للرسول ﷺ ولقلة من المسلمين حوله فى أرض المعركة - على الرغم من أن رسول الله ﷺ أصيب فى هذه المعركة بجراح - ولكنه ثبت فى المعركة، وما حدثته نفسه بأن يتراجع فضلا عن أن يفر أو ينهزم!!!

وكان من الثبات أن أصر على لقاء المشركين فى «حمراء الأسد» عقب معركة أحد مباشرة، وقبل أن تبرأ جراحه وجراحات المسلمين!!!

جـ - وفى معركة الأحزاب «الخندق»

لم يكن المشركون يرغبون فى شىء من رسول الله ﷺ أكبر من أن يكف عن دعوتهم إلى الحق، فيهادنوه أو يصالحوه فيستريحوا من الحرب ولأوائها.

ولكنه ﷺ ما أجابهم إلى ذلك ولا إلى شىء منه، وإنما ثبت على الحق الذى يدعو إليه، وعلى متاعب الحرب وآلامها.

- وكانت معركة الأحزاب رمزاً لهذا الثبات، إذ قد تحزب ضده من المشركين واليهود عشرة آلاف مقاتل، بحيث أصبح الأمر فى نظر من يرقب الأحداث أن ذلك التحزب هو القضاء على الإسلام والمسلمين فى تلك المعركة، التى تحالف فيها ضد المسلمين ذلك الحشد الهائل من المشركين والغدر الهائل من اليهود.

● ولكن رسول الله ﷺ ثبت وثبت معه صحابته وحفروا الخندق وعانوا فى حفره ما عانوا، وواجهوا الحصار والمشقة والجوع والبرد وخيانة اليهود، حتى نصرهم الله تعالى على أعدائهم وفرقهم عنهم، وكان الثبات فى هذه المعركة مثيراً للدهشة!!!

د – فى غزوة حنين

فقد توجه المسلمون إلى هذه المعركة وهم أكثر عددا وعدة، إذ كانوا اثنى عشر ألف مقاتل – حتى قال بعضهم: لن نغلب اليوم! فشقت هذه الكلمة على رسول الله ﷺ.

ووقع جيش المسلمين فى كمين أعده مالك بن عوف قائد المشركين عند مهبط وادى حنين، وهاجمهم الأعداء بعد أن أمطرهم الكمين بالنبل، فانكشف المسلمون وانشمروا راجعين لايلوى فيهم أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة.

وهنا ظهر ثبات رسول الله ﷺ فى أرض المعركة وجعل ينادى: هلموا إلىّ أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، وظهر من شجاعته وثباته ﷺ ما لانظير له، فى أى موقف مماثل، فقد طفق يركز بغلته قِبَل الكفار وهو يقول:

أنا النبى لا كـذب   أنا ابن عبد المطلب

وليس مثل هذا ثبات يسمع عنه الناس، الثبات فى أرض المعركة بعد وقوع المسلمين فى كمين!!!

هـ – وفى غزوة تبوك

وهى غزوة كان المسلمون حينها يعانون من الشدة والعسر، حتى سمى هذا الجيش جيش العُسْرة.

وكانت هذه المعركة ضد الروم والقبائل العربية التى توالى الروم كغسان وغيرها.

● وكان الثبات فى أجلى صوره أن يتوجه رسول الله ﷺ – وهو فى هذه الظروف – إلى حرب الروم، حتى إن ثمانية عشر رجلا من المسلمين كانوا يتعاقبون بعيرا واحدا!!! وحتى أكلوا ورق الأشجار، وعانوا من قلة الماء.

● وكان من نتيجة هذا الثبات أن الروم وحلفاءهم لما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ، أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم نحو المسلمين فضلا عن لقائهم، بل تفرقوا فى البلاد

داخل حدودهم، فكان لهذا الثبات أعظم الأثر فى سمعة المسلمين العسكرية، وجاءت القبائل التى كانت تحالف الروم تصالح الرسول ﷺ وتعطيه الجزية لحمايتها من الروم، فيكتب لهم الأمان ويقبل منهم الصلح.

وبعد، فهذه صور من ثبات رسول الله ﷺ ليست هى كل الصور، وإنما هى ذات دلالة تقوم عندنا مقام الشاهد والمثال.

٢ - نماذج من ثبات الصحابة رضى الله عنهم

الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أكثر المسلمين تأسيا برسول الله ﷺ إذ كانوا فى معيته، وأكثر التصاقا به وتأثرا بأخلاقه وصفاته، وحسبهم شرفا أن سموا صحابة رسول الله ﷺ.

● وسوف نذكر من ثباتهم بعض الأمثلة والشواهد، لأن الحديث عن كل مواقفهم فى الثبات يحتاج إلى أسفار، لا كتاب كهذا أو صفحات من هذا الكتاب.

أولا: من ثبات أبى بكر الصديق رضى الله عنه

أخرج الحافظ أبو الحسن على بن خليل الطربلسى المتوفى سنة ٨٤٤هـ بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ - وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا - ألَحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل»، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ.

وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضُربوا فى نواحى المسجد ضربا شديدا، ووطئ أبو بكر، وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلتْ المشركين عن أبى بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولايشكون فى موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه: أم

الخير، انظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه، فلما خَلَتْ به ألحتْ عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: والله ما لى علم بصاحبك،

فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه،

فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله،

فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن آتى معك إلى ابنك؟ قالت: نعم،

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دَنِفاً؛ فدنت أمُّ جميل، وأعلنت بالصياح وقالت: إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت: هذه أمك تسمع.

قال: فلا شيء عليك منها.

قالت: سالم صالح.

قال: أين هو؟

قالت: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم.

قال: فإن لله علىَّ أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا، حتى آتى رسول الله ﷺ.

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجْل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ.

قال: فكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

هذا مثال من ثبات أبى بكر الصديق رضى الله عنه على الحق وتحمله – من أجل الحق والدعوة إلى الله – كل هذا العناء.

ثانيا: من ثبات عمر بن الخطاب رضى الله عنه

أخرج ابن إسحق عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما قال:

لما أسلم عمر رضى الله قال: أى قريش أنقل للحديث؟

فقيل له جميل بن يعمر الجمحى فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: - وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل كل ما رأيت - حتى جاءه فقال له: أعلمتَ يا جميل أنى أسلمتُ ودخلتُ فى دين محمد ﷺ؟

قال: فو الله ما راجعه؛ حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، قال يقول عمر من خلفه: كَذَبَ، ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، قال: وطلح - أى أعيا - فقعد.

وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل؛ لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حُلةٌ حبرة وقميص موشى، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر، قال: فمه!!! رجل اختار لنفسه أمرا، فماذا تريدون أترون بنى عدى يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلُّوا عن الرجل. قال فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه.

قال عبد الله: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟

قال: ذاك - أى بنى - العاص بن وائل السهمى[1].

فهذا ثبات عمر واستمساكه بالحق الذى كان قد آمن به، وتحمله من أجل هذا الحق، كل هذه المتاعب.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ٣/٨٢. الطبقة الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م المطبعة السلفية ومطبعة السعادة بالقاهرة.

ثالثا : ثبات عثمان بن عفان رضى الله عنه

أخرج ابن سعد في طبقاته بسنده عن محمد بن إبراهيم التيمى قال : «لما أسلم عثمان ابن عفان رضى الله عنه أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطا، وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين مُحْدَث؟ والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين.

فقال عثمان : والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه.

فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه.

وذاك هو الثبات على الحق وإن تعرض صاحبه للتعذيب أو الموت، وبهذه المواقف من الثبات وأمثالها انتشر الإسلام وقويت الدعوة إلى الله تعالى.

رابعا : من ثبات طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي رضى الله عنه

أخرج البخارى بسنده فى التاريخ عن مسعود بن خراش رضى الله عنه قال : بينا نحن نطوف بين الصفا والمروة إذ أناس كثيرة يتبعون فتى شاباً موثقا بيده فى عنقه. قلت ما شأنه؟ قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله صبأ، وامرأة وراءه تدمدم تسبّه. قلت من هذه قالوا : الصعبة بنت الحضرمى أمه.

وروى البيهقى بسنده عن إبراهيم بن محمد بن طلحة قال : « .... فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة ... فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدهما فى حبل واحد، ولم يمنعهما بنو تيم.

وكان نوفل بن خويلد يدعى «أسد قريش» فلذلك سمى أبو بكر وطلحة؛ القرينين.

وقال النبى ﷺ : «اللهم اكفنا شر بن العدوية»[1].

خامسا : من ثبات الزبير بن العوام رضى الله عنه

أخرج أبو نعيم فى الحلية[2] بسنده عن أبى الأسود قال : أسلم الزبير بن العوام... وكان عم الزبير يعلق الزبير فى حصير ويدخن عليه بالنار، وهو يقول : ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير : لا أكفر أبدا.

---

(١) وجاء ذلك فى البداية والنهاية لابن كثير : ٣/٣٩ مرجع سابق.

(٢) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء : ١/٨٩. دار الفكر. دون تاريخ.

• وأخرج الحاكم النيسابورى فى المستدرك بسنده عن شيخ من الموصل قال: «صحبت الزبير بن العوام رضى الله عنه فى بعض أسفاره فأصابته جنابة بأرض قفر، فقال: استر فسترته، فحانت منى التفاته فرأيته مجدعا بالسيوف، قلت: والله، لقد رأيت بك آثارا ما رأيتها بأحد قط، قال: وقد رأيت ذلك؟ قلت نعم. قال: أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله ﷺ وفى سبيل الله».

سادسا: من ثبات سعيد بن زيد وزوجته رضى الله عنهما

أخرج البخارى بسنده عن قيس قال: سمعت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه فى مسجد الكوفة يقول: والله، لقد رأيتنى وإن عمر رضى الله عنه لموثقى على الإسلام.

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن أنس رضى الله عنه قال: خرج عمر رضى الله عنه متقلدا السيف فلقيه رجل من بنى زهرة قال: أين تعمد يا عمر؟

فقال: أريد أن أقتل محمدا.

قال: كيف تأمن بنى هاشم وبنى زهرة إذا قتلت محمدا؟

قال: فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذى كنت عليه.

فقال: أفلا أدلك على ما هو أعجب من ذلك؟

قال: وما هو؟

قال: أختك وختنك قد صَبَوَا وتركا دينك الذى أنت عليه.

قال: فمشى عمر ذامراً - أى متهددا - حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبَّاب رضى الله عنه.

فلما سمع خباب حِسَّ عمر توارى فى البيت.

فدخل عليهما عمر فقال: ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم؟

وكانوا يقرءون: «طه».

فقالا: ما عدا حديثا تحدثناه بيننا.

قال: فلعلكما صبوتما!!!

فقال له ختنه : أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟

فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئا شديدا، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده نفحة فدمَّى وجهها.

فقالك – وهي غضبى – يا عمر إن كان الحق في غير دينك!!

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

فلما يئس عمر قال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فاقرأه – وكان عمر يقرأ الكتب– .

فقالت أخته : إنك رجس ولايمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ.

فقام عمر فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ : طه، حتى انتهى إلى قوله : ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤)**﴾.

فقال عمر : دلوني على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال : أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس : «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام..» ثم سرد قصة إسلام عمر رضي الله عنه، وهي معروفة.

فأي ثبات ذلك لسعيد بن زيد وزوجته أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما؟

إنه ثبات المتمسكين بالحق الذي يتحملون من أجله المتاعب والمشقات.

سابعا : ثبات بلال رضي الله عنه

أخرج الإمام أحمد وابن ماجة بسنديهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أول من أظهر الإسلام سبعة :

رسول الله ﷺ،

وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم.

فأما رسول الله فمنعه الله بعمّه،

وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه،

وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه فى الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الوِلْدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة، وهو يقول: أحد، أحد.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن إسحاق: كان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللأت والعُزَّى، فيقول .. وهو فى ذلك البلاء: أحد، أحد.

- هذا ضرب من الثبات لايعرفه إلا من كان فى إيمان بلال رضى الله عنه، وفى تمسكه بالحق وإصراره عليه.

ولقد ظل بلال فى هذا العذاب، وما يثنيه العذاب عن إيمانه، حتى أعتقه أبو بكر رضى الله عنه فأنجاه الله تعالى من هذا العذاب.

ثامنا: ثبات عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه

أخرج البيهقى وابن عساكر عن أبى رافع قال:

وجَّه عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيشا إلى الروم وفيهم رجل يقال له: عبد الله بن حذافة السهمى من أصحاب رسول الله ﷺ، فأسره الروم فذهبوا به إلى ملكهم فقالوا له: إن هذا من أصحاب محمد، فقال له الطاغية:(١)

هل لك أن تنصَّر وأشركك فى ملكى وسلطانى؟

فقال عبد الله: لو أعطيتنى ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال: إذن أقتلك،

قال: أنت وذاك،

فأمر به فصلب وقال للرماة: ارموه قريبا من يديه، قريبا من رجليه، وهو يعرض عليه، وهو يأبى.

ثم أمر به فأنزل،

---

(١) الطاغية: لقب ملوك الروم، وربما أطلقه العرب على غيرهم، وهو: من طغى فى الكفر وجاوز القدر فى الشرك.

ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ثم أمر به أن يلقى فيها، فلما ذُهب به بكى، فقيل له: إنه قد بكى، فظن أنه جزع فقال: ردوه فعرض عليه النصرانية فأبى.

فقال: ما أبكاك إذن؟

قال: أبكاني أني قلت في نفسي: تلقى الساعة في هذه القدر فتذهب، فكنتُ أشتهي أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في الله.

قال له الطاغية: هل لك أن تُقَبِّل رأسي وأُخَلِّيّ عنك؟

قال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبد الله: فقلتُ في نفسي: عدو من أعداء الله، أُقَبِّل رأسه يخلي عني وعن أسارى المسلمين! لا أُبالي. فدنا منه فقبل رأسه فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر رضي الله عنه، فأخبر عمر بخبره.

فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يُقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر فقبل رأسه.

ولو شئنا أن نذكر نماذج لثبات الصحابة رضي الله عنهم لاتسع بنا المجال، فحسبنا هذا.

٣ – من نماذج ثبات من جاءوا بعد الصحابة رضي الله عنهم

وذلك بحر واسع، ومدى عريض، إذ ما دخل الإيمان قلب واحد من المؤمنين إلا وكان الموت أحب إليه من أن يَتَزَحزح عن إيمانه.

وما أكثر المؤمنين في تاريخنا، بل ما أكثر المؤمنين الذين عمر الإيمان قلوبهم فآثروا التمسك به والثبات عليه مهما كانت تضحياتهم في هذه السبيل!!!

وإن قرنا واحدا من القرون التي عاشها الإسلام في قلوب المسلمين لمليء بمئات المؤمنين بل بالألوف منهم، ممن ثبتوا على الإيمان ودفعوا لهذا الثبات أبهظ الأثمان!!!

وليس ذلك غريبا على رقعة العالم الإسلامي التي تمتد من المحيط إلى الخليج، ومن البحر المتوسط إلى أعماق إفريقيا في جنوبيها وشرقيها وغربيها، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا بعد أن جاء نصر الله والفتح!!!

ليس ذلك غريبا، بل إن المؤمنين المتمسكين بإيمانهم الثابتين عليه زادوا عن ذلك كثيرا، وهذه الكثرة تجعل عملية الاختيار لعدد منهم والاستشهاد على ثباتهم أمرا بالغ الصعوبة.

- لذلك سوف نكتفي بالقليل بل أقل القليل، لأنه ما من مائة سنة تمر على المسلمين إلا ويبعث الله فيهم من يجدد لهم أمر دينهم، فقد روى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»؛ وذلك من رحمة الله تعالى بالمسلمين، وقد يكون لهذا الإصلاح والتجديد للدين سبب يمكن أن نفهم الإشارة إليه من الحديث النبوى الذى رواه أبو داود بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأُمَمُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قال قائل: ومن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن» فقال قائل: يارسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

- والقرن الأول خير القرون هو الذى عاش فيه الرسول ﷺ وأصحابهُ، فقد كان بحق خير القرون.

- والقرن الذى يليه هو قرن التابعين أى الذين رأوا الصحابة رضى الله عنهم وأخذوا عنهم العلم والعمل والجهاد فى سبيل الله تعالى.

- والقرن الثالث هو قرن تابعى التابعين، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رجل: يارسول الله أى الناس خير؟ قال: «القرن الذى أنا فيه، ثم القرن الثانى، ثم الثالث».

ثم تغيرت أحوال المسلمين بعد ذلك فدب فيهم الضعف، قال الحافظ ابن حجر: واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله مَنْ عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتُحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن وتغيرت الأحوال تغيرا شديدا، ولم يزل الأمر فى نقص إلى الآن - إلى زمن ابن حجر رحمه الله (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) - وظهر قوله ﷺ: «ثم يفشو الكذب» ظهورا بينا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات، والله المستعان[١].

---

(١) الحافظ بن حجر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى: ٧/٨ ط دار الريان للتراث - القاهرة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

● وفى هذه الفترة التى كثرت فيها الفتن كانت محنة العلماء أصحاب المذاهب كالإمام مالك وأبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله جميعا.

● وقد ثبتوا على الحق لم يتزحزحوا عنه شيئا؛ على الرغم من الكيد والسلطة والقوة التى واجهتهم!!!

● ونكتفى هنا بأنموذج واحد منهم هو:

أولا: ثبات الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

تعرض الإمام أحمد رحمه الله - لمحنة وابتلاء شديدين، حتى إنه ضرب بالسياط وعذب وسجن ثمانية وعشرين شهرا، من أجل أن يقول - كما يقول المأمون ومن خلفه المعتزلة وعلى رأسهم أحمد بن أبى دؤاد - بأن القرآن الكريم مخلوق.

وكانت محنته رحمه الله مستمرة فى خلافة ثلاثة من خلفاء بنى العباس هم:

المأمون،

والمعتصم،

والواثق.

وقد استمرت محنته فترة من حكم المتوكل، ثم أخلى المتوكل سبيله، فخرج الإمام من محنته مثقلا بالجراح وآثار الضرب المبرح، واعتلال البدن والمرض الذى استمر معه، مما أدى إلى أن يحال بين أحمد وبين درسه وتعليمه الناس فى المسجد ما يقرب من خمس سنوات، ثم عاد بعد أن برئ إلى درسه وتلاميذه!!!

وكانت عودته إلى الدرس سنة ٢٣٢هـ.

وكان الواثق أخف هؤلاء الثلاثة الخلفاء فى إيقاع الأذى البدنى بالإمام أحمد، إذ رأى أن تعذيبه وسجنه يزيد من حب الناس له، ويعمل على نشر قوله: «إن القران غير مخلوق» فى الناس الذين أطلق عليهم ابن أبى دؤاد حَشْو الأمة - أى العامة - فكتب الواثق إلى أحمد يمنعه من لقاء الناس، قائلا له: «لاتجمعن إليك أحدا ولاتساكنى فى بلد أنا فيه»، فأقام الإمام أحمد مختفيا، لايخرج إلى صلاة ولا إلى غيرها، حتى مات الواثق!!!

ولم يكن أحمد وحده الممتحن بهذه المحنة، ولكن عددا من العلماء والفقهاء والمحدثين خاض هذه المحنة، وسقط بعضهم شهداء فيها، مثل يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى

صاحب الإمام الشافعى الذى حمل مقيدا مغلولا حتى مات فى أصفاده، ومثل: نعيم بن حماد الذى مات فى سجن الواثق، وغيرهما.

● ويمكن تلخيص فتنة القول بخلق القران فى كلمات وردت على لسان أحد الشيوخ الذين عذبوا بها، موجها كلامه إلى أحمد بن أبى دؤاد رأس هذه الفتنة. قال الشيخ المبتلى: «شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا على، تدعو أنت الناس إليه، ليس يخلو؛ أن تقول علموه أو جهلوه!!!

فإن قلت علموه وسكتوا عنه، وسعنى وإياك من السكوت ما وسع القوم، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع بن لكع، يجهل النبى ﷺ والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئا وتعلمه أنت!!».

● وقد سئم الناس الخوض فى هذه الفتنة التى لايقدم الخوض فيها أدنى نفع للمسلمين، بل يكون لها فيهم الضحايا والمعذبون، حتى صارت من الهزل على بعض الألسنة.

فقد رووا أن عبادة المضحك دخل على الواثق فقال: يا أمير المومنين: أعظم الله أجرك فى القرآن، قال: ويلك، القرآن يموت؟

قال يا أمير المؤمنين: كل مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين بم يصلى الناس التراويح، فضحك الواثق وقال: قاتلك الله، أمسك»[1].

وبعد: فمهما نقل فى ثبات أحمد على الحق الذى اقتنع به فهو أقل من وصف هذا الثبات!!!

● وفى كل قرن من قرون تاريخ الإسلام كان هناك من يُمتحنون فى دينهم، وكان لهم فى ذلك ثبات وصبر منقطع النظير.

● ولنختر من هؤلاء المصلحين المجددين على مر القرون من نوضح كيف ثبت على الحق، وكيف صبر وكيف تحمل، لنؤكد بذلك ما قلناه تحت عنوان هذا الفصل الرابع من هذا الكتاب وهو:

«الثبات فى تاريخ المسلمين» سائلين الله التوفيق.

● ولتكن حياة أحمد بن تيمية مجالا لمعرفة ثباته وصبره وإصرار على الحق.

---

(١) من أراد معرفة تفاصيل محنة أحمد فليرجع إلى المقدمة الضافية الواعية الحاذقة التى قدم بها المرحوم الشيخ أحمد شاكر لمسند الإمام أحمد. ط٣ دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م.

● من ثبات أحمد بن تيمية – رحمه الله

سيرة أحمد بن تيمية حافلة، فهو عالم جليل ولد سنة ٦٦١هـ وتوفى فى سجنه بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ، لقب بشيخ الإسلام، كان داعية إلى الله مصلحا مجددا لايهاب فى إعلان الحق أحدا، له من المؤلفات والفتاوى ما يدل على رسوخ قدمه فى العلم وطول باعه فى جدل أهل الباطل ومناظرتهم.

وأهم كتبه فى الدفاع عن العقيدة وعن أهل السنة والجماعة وعن الفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية. ويقول ابن شاكر الكتبى فى كتابه «فوات الوفيات» إن مؤلفات ابن تيمية تبلغ ثلاثمائة مجلد.

أما محنته فقد تنوعت إلى أربع محن، اثنتان منها في مصر واثنتان فى دمشق.

– كانت محنته الأولى فى مصر بعد أن ذهب إليها، فجادله علماؤها فى العقيدة، مجادلة من يحرج مجادله ولا يعطيه الفرصة فى التعبير عن نفسه، فأوغروا صدر الحاكم عليه؛ فكانت محنته الأولى هى السجن من شهر رمضان سنة ٧٠٥ هـ إلى ٢٣ من ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ أى ٢٨ شهرا، وسجن معه أخواه شرف الدين وزين الدين فى سجن يقال له: «الجبّ» بمصر.

وطلب منه أن يتنازل عن قوله ليخرج من السجن فأبى.

وكان نائب السلطان فى مصر هو «سلار» الذى حاول أن يصلح بينه وبين العلماء فلم يستطع.

● ولما أخرج من السجن بعد ثمانية وعشرين شهرا عاد إلى الدرس ولقاء الناس وإفتائهم فى أمور الدين، لكن سرعان ما عاجلته المحنة الثانية.

– وكانت المحنة الثانية فى مصر أيضا – بعد أن كان ابن تيمية متوجها إلى الشام إذ أعيد من الطريق، وكان سببها – كما قيل – هجومه على الصوفية الذين يقولون بوحدة الوجود والموجود – أى بين الخالق والمخلوق – وهو مذهب محيى الدين بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ الذى تأثر فيه بالفلسفة الهندية.

وخلاصة المذهب أن من أخذوا به وبلغوا من التربية الرياضية الروحية حَدًّا معينا أصبحوا أعلى من التكليف الشرعى!!

ولما كان للصوفية آنئذ مكانة عند السلطان فقد شكوا ابن تيمية وحمل الشكوى إلى نائب السلطان بن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم، وقد جمع نائب السلطان بينهم وبين ابن تيمية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يثنوه عما يعتقد أنه الحق، وزاد على ذلك قوله بإبطال الاستغاثة بغير الله ولو كان المستغاث به هوالنبى ﷺ.

وقد خيره نائب السلطان بين الذهاب إلى الإسكندرية أو دمشق بشرط ألا يعلن معتقده، أو يدخل السجن، فكان لسان حاله: رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، فأدخل السجن مرة ثانية فى يوم ٢٩ من شهر صفر سنة ٧٠٩هـ إلى أول شهر شوال من نفس العام، وقد بقى فى السجن سبعة أشهر.

– وكانت المحنة الثالثة بعد عودة ابن تيمية إلى الشام، حيث سجن بسجن القلعة فى دمشق فى ٢٢ من شهر رجب سنة ٧١٩هـ وما أخرج منه إلا فى يوم ١٠ من شهر المحرم سنة ٧٢١ هـ، أى بقى فيه خمسة أشهر وثمانية عشر يوما.

وكان سبب هذه المحنة – كما يقال – انه أفتى بأن اليمين بالطلاق لايوقع الطلاق على الزوجة، وإنما أن يقول لها أنت طالق أو يعلق الطلاق على شرط فيتحقق الشرط، وكان رأيه هذا مخالفا لآراء الفقهاء.

– وكانت المحنة الرابعة – وهى الأخيرة – وهو فى الشام أيضا وقد سجن فى قلعة دمشق أيضا يوم ٢٧ من شهر شعبان سنة ٧٢٦هـ إلى أن وافاه أجله فى السجن فى ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ٧٢٨هـ.

وكان السبب فى تلك المحنة – كما قالوا – منعه زيارة القبور حتى الروضة الشريفة، والعجيب أن هذه الفتوى كان قد أفتى بها منذ سبعة عشر عاما منصرمة!!!

- وفى كل محنة من هذه المحن كان الشيخ ثابتا راسخا لايزعزعه، ولا يزحزحه عن موقفه السجن وحبس الحرية ومنعه من الدروس ومن لقاء الناس!!!

رحمه الله رحمة واسعة.

ثالثا: محمد بن أبى بكر «ابن قيم الجوزية»

وهو رجل يعد من أركان الإصلاح الإسلامى، عالم جليل القدر، تعلم على يد ابن تيمية، ولد سنة ٦٩١هـ وتوفى سنة ٧٥١هـ فى دمشق.

له من المولفات تصانيف بالغة الجودة منها: زاد المعاد فى هدى خير العباد ﷺ، والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية، وإعلام الموقعين، ومفتاح دار السعادة، وطريق الهجرتين، وغيرها مما يزيد عن أربعين كتابا.

● وقد امتحن ابن القيم وأوذى مرات عديدة، وحبس مع ابن تيمية بقلعة دمشق - منفردا عنه - وأهين وعُذب وطيف به على جمل مضروبا بالعصى!

وظل محبوسا حتى توفى ابن تيمية فى سجنه، فأطلق سراح ابن القيم بعد ما عانى كثيرا.

ولكنه ثبت على ما يعلم أنه الحق، وما لان أو تراجع عن الحق الذى يؤمن به أبدا، فكان بذلك مضرب المثل فى الثبات، كما كان أستاذه ابن تيمية كذلك، رحمهما الله تعالى رحمة واسعة.

رابعا: أحمد بن على بن حجر مؤلف كتاب «فتح البارى» فى شرح صحيح البخارى

من أئمة العلم بالدين، وينسب إلى عسقلان حيث ولد، وهى من مدن فلسطين، وقد ولد سنة ٧٢٣هـ وتوفى فى القاهرة سنة ٨٥٢هـ، وقد لقب بحافظ الإسلام، قصده طلاب العلم من كثير من الأقطار الإسلامية.

رحل إلى اليمن والحجاز وتلقى العلم عن كبار الشيوخ فيهما، ثم استقر به المقام فى القاهرة، وتلقى عن علمائها وذاع صيته بها حتى تولى القضاء فيها.

● ومن أشهر مؤلفاته: فتح البارى بشرح صحيح البخارى، والإصابة فى تمييز أسماء الصحابة، وتهذيب التهذيب فى رجال الحديث، والقول المسَدَّدُ فى الذب عن مسند الإمام أحمد، ورفع الإصر عن قضاة مصر، وعشرات غيرها فى علوم الدين وفى التاريخ وفى علم رجال الحديث، وفى مصطلح الحديث.

وقد عرض عليه القضاء أيام كان بالشام فرفض.

ثم عرض عليه فى مصر فقبله، لكنه كان متمسكا بما يرى أنه الحق، وكان ثابتا على رأيه، مما أدى إلى عزله عن القضاء، ثم توليته إياه مرات عديدة، نشير إليها فيما يلى:

١ - تولى قضاء مصر سنة ٨٢٧هـ فى شهر المحرم.

ثم عزل عن القضاء فى ذى القعدة من سنة ٨٢٧هـ.

٢ – أعيد إلى القضاء سنة ٨٢٨ هـ.

ثم عزل عنه سنة ٨٣٣هـ.

٣ – ثم وُلِّىَ القضاء سنة ٨٣٤هـ.

ثم عزل عنه سنة ٨٤٠هـ.

٤ – ثم وُلِّىَ القضاء سنة ٨٤١هـ.

وعزل عنه سنة ٨٤٢هـ.

٥ – ثم وُلِّى القضاء سنة ٨٥٠هـ.

ثم عزل سنة ٨٥٠ هـ.

٦ – ثم ولى سنة ٨٥٢هـ،

ثم عزل فى نفس السنة ٨٥٢هـ.

وما كان توليته القضاء إلا لعلمه ومكانته،

وما كان عزله عن القضاء إلا لتمسكه برأيه الذى قد لايعجب السلطان أو العلماء.

لكنه على الرغم من كل ذلك ثابت على الحق يجادل عنه ولا يتزحزح مهما تكن النتائج.

● ثم نتعرض لنوع من الثبات أمام الحكام الظالمين فى الفترة التى خضعت فيها معظم بلدان العالم الإسلامى للقوى الاستعمارية بعد تحالف الشرق والغرب على إسقاط دولة الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

ولقد سبق هذا الإسقاط حكم فاسد فى كثير من بلدان العالم الإسلامية، وحكام ضعفاء يمالئون الأعداء على الإسلام والمسلمين، ويعرضون المصلحين للمحن والابتلاء.

ومن هؤلاء المصلحين عدد غير قليل فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، كان لكل منهم صبر على الحق وقوة فى التمسك به واستماتة فى الثبات عليه، مما جعلهم موضع التقدير والحب والاحترام فى تاريخ الإسلام.

ومن هؤلاء من نذكرهم بإيجاز فيما يلى:

خامسا: جمال الدين الأفغاني

هو السيد جمال الدين الحسيني، ولد في أسعد أباد سنة ١٢٥٤هـ الموافقة لسنة ١٨٣٨م من أسرة تنتمي إلى الإمام الترمذي المحدث صاحب السنن، وتنتهي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

- عمل جمال الدين ما وسعه، وجند كل طاقاته في سبيل توحيد كلمة المسلمين وجمع شتاتهم وتحرير بلادهم تحت لواء دولة إسلامية وخلافة عظمى، ومن أجل تحقيق هذا الهدف بذل كل ما استطاع من جهد، وتحدى كل حاكم أو قوة استعمارية تحول بينه وبين تحقيق هدفه.

لذلك لم يكن عجبا أن حورب ونفي وشرد من عدد من الحكام وعدد من المسئولين، ومن المستعمرين البريطانيين.

- ولسنا نبالغ إن قلنا: إن حياته سلسلة من الصراع مع كل تلك القوى، لكنه ثبت ولم يستسلم حتى قضى نحبه مريضا سنة ١٨٩٧م(١).

- وكان لابد أن تحارب جمال الدين كل القوى المعادية للإسلام ولوحدة المسلمين. وإن نظرة إلى الموضوعات التي كتب فيها جمال الدين أو حاضر أو خطب تؤكد نشوب هذه الحرب ضده.

وهذه الموضوعات هي:

١ - الوحدة الإسلامية:

وهو موضوع تعاديه إنجلترا وكل القوى الاستعمارية، وكثير من حكام المسلمين الذين يجرون في ركاب المستعمرين.

وهو يدعو إلى هذه الوحدة ويحلل ويعلل لماذا تفشل في تلك الظروف.

٢ - ومقاومة أعداء الإسلام:

وهم في نظره، بل في الواقع أصناف أهمهم:

أ - الإنجليز الذين استعمروا واحتلوا عديدا من بلاد المسلمين،

---

(١) للتوسع في معرفة سيرته: انظر للمؤلف: جمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه - نشر دار عكاظ بالسعودية سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، وهو كتاب موسع زاد على ستمائة صفحة.

ب – والفرنسيون الذين احتلوا جانبا من بلاد المسلمين،

د – وكل القوى التى لاتتصدى للأعداء من حكام ومسئولين وعلماء.

٣ – والتصدى للفكر المنحرف عن الإسلام:

وهذا الفكر فى نظره كان له تياران:

أ – تيار اصطنعه العدو الأجنبى وشجع عليه مثل:

- البابية،
- والمهدية،
- والداروينية،
- والتغريب عموما.

ب –وتيار نبع من غافلى المسلمين مثل:

- الدهرية،
- والقول بسد باب الاجتهاد،
- ومحاولة إقصاء لغة القرآن الكريم،
- والانغلاق ومقاومة كل جديد، دون وعى.
- وكان تبنِّيه لهذه الأفكار جالبا عليه النفى والتشريد والاعتقال، وعداء الانجليز وتربصهم به.

فقد نفى من إيران أكثر من مرة،

ونفى من مصر،

ونفى من الهند.

وحورب فى مجلته التى أصدرها بمعاونة الإمام محمد عبده، وتحداه الخديو توفيق، وناصر شاه، والإنجليز، ورجال الحكومة فى مصر وإيران والأستانة.

- وكانت له جهود فى التعليم والمحاضرات، وجهود فى السياسة، وفى الصحافة، وفى محاولة جمع كلمة المسلمين، ودار حوار بينه وبين الخديو توفيق جاء فيه:

قال له الخديو: «إنى أحب كل الخير للمصريين، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح، ولكن مع الأسف، إن أكثر الشعب خامل جاهل لايصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة».

فأجابه جمال الدين قائلا: «ليسمح لى سمو الأمير أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظرة الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم.

وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تَسُنّ القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم»(١).

● وحسبنا يمثل هذا الحوار دليلا على قوة جمال الدين وثباته على ما يعتقد أنه الحق.

سادسا: عبد الرحمن بن أحمد الكواكبى

هو عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبى، ولقبه: السيد الفراتى، ولد فى مدينة حلب سنة ١٢٦٥هـ وتوفى سنة ١٣٢٠هـ (١٨٤٩ - ١٩٠٢م).

وهو من رجال الإصلاح والتجديد فى هذا العصر، رحالة تنقل فى عديد من بلدان العالم الإسلامى من حلب إلى مصر إلى شرقى إفريقية إلى الهند وإلى كثير من البلاد العربية.

● كان داعية يتخذ من الصحافة منبرا، فأنشأ جريدة «الشهباء» فى حلب، فضاقت الحكومة بما يدعو إليه فأغلقت هذه الجريدة.

ثم أنشأ جريدة «الاعتدال» فما لبثت الحكومة أن عطلتها كتلك.

وما لبث أن ضاق به المسئولون وحنقوا عليه، فأدخل السجن، ثم أخرج منه، ثم أعيد إليه، ثمن صودرت أمواله، فما كان منه إلا أن رحل إلى مصر.

● وكان ألدّ أعدائه «عارف باشا» والى حلب، ثم أبا الهدى الصيادى ذا اليد الطولى فى الآستانة والمقرب إلى السلطان عبد الحميد. وكلا الرجلين آذاه وتسبب فى سجنه ونفيه.

● من أبرز أعماله النقدية الإصلاحية كتابان هما:

- «طبائع الاستبداد» فى نقد الحكومات المسلمة.

---

(١) محمد باشا المخزومى: خاطرات جمال الدين الأفغانى، ط بيروت ١٩٣١م.

- «وأم القرى» فى نقد الشعوب المسلمة آنذاك.

وقد قال فى مقدمة كتابه: «طبائع الاستبداد»:

«إنى نشرت فى بعض الصحف أبحاثا علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درسته ومنها ما اقتسبته، غير قاصد بها ظالما بعينه، ولا حكومة مخصصة، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار، ولا على الأقدار، ثم أضفت إليها بعض زيادات وحولتها إلى هيئة الكتاب».

ولقد وصف المستبد فأبدع فقال عنه:

- المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم،

- والمستبد عدو للحق، وعدو للحرية وقاتلها،

- والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب، وكلابا تتذلل وتتملق،

- والمستبد تسرّه غفلة الشعب لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم،

- والمستبد يخاف رعيته كما تخافه رعيته،

● ووصف الحكومة المستبدة بأوصاف أهمها:

- الحكومة الاستبدادية سبب فى اختلال نظام الثروة، فهى تجعل رجال السياسة والدين ومن يلحق بهم يتمتعون بحظ عظيم من مال الدولة..

- والحكومة المستبدة تغدق على صنائعها، ومن يعينها على طغيانها،

- وتيسر للسفلة طرق الغنى بالسرقة والتعدى على الحقوق العامة،

- والاستبداد يفسد الأخلاق، ويفسد العقول، ويعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

- والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم البعض،

- والاستبداد يحول بين الناس وبين التعاون على الخير،

- والاستبداد يفسد التربية والتعليم، لأن التربية الصحيحة لاتكون فى ظل الاستبداد،

- والاستبداد يمنع الترقى...

● ثم رسم طريقا لمقاومة الاستبداد، فقال :

- الاستبداد لايقاوم بالقوة، وإنما يقاوم باللين وبالتدريج،

- وبث الشعور بالظلم عن طريق التعليم والتحميس؛ وذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات :

قوة الجند،

وقوة المال،

وقوة رجال الدين،

وقوة الأغنياء.

فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة فى توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة.

● وقد أوضح ماذا يقصد بالحكومة المستبدة فقال :

- إنها تشمل حكومة الحاكم الفرد والمطلق،

- وتشمل حكومة الجمع ولو كان منتخبا إذا استبد،

- ولا عبرة بأسماء الحكومات وإنما العبرة بحقيقتها.

● ولأنه قال ذلك فى مقالات وسجله فى كتاب لَقِيَ ما لقى من العنت والتشريد ومصادرة الأموال.

لكنه ثبت على ما يعتقد أنه الصواب، وكان مثالا فى ثباته، شأنه فى ذلك شأن المصلحين المجددين من رعاة الإسلام فى كل زمان ومكان.

سابعا : الشيخ أبو الأعلى المودودى

داعية إلى الله مصلح مجدد ولد فى ١٩٠٣/٩/٢٥م فى مدينة «أورنك أباد» فى ولاية حيدر أباد، وأسرته تنحدر عن جد شهير هو قطب الدين مودود جشتى مؤسس الطريقة الجشتية فى الهند خلال القرن السادس الهجرى.

● وقد رباه والده فى المنزل عزوفا عن المدارس التى تتبنى مناهج التعليم الغربية فى الهند.

● وقد عمل المودودى فى بداية حياته بالصحافة، وما لبث أن تولى رئاسة التحرير فى كبريات صحف الهند مثل: «تاج» و «مسلم» وصحيفة «الجمعية» فى دلهى.

وكانت هذه المجلات والجرائد تدافع عن مصالح المسلمين فى الهند وتطالب بحقوقهم.

● وفى عام ١٩٢٣م أصدر مجلة شهرية مستقلة هى مجلة «ترجمان القرآن» فكانت ذات تأثير كبير فى الحركة الإسلامية فى الهند كلها.

● ومن أبرز أعمال أبى الأعلى فى مجال الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه ما نشير إليه فيما يلى:

– تَصَدَّى للرد على التصريحات التى كان يصرح بها «غاندى» وكانت تتضمن افتراء على الإسلام، وطعنا فيه، أو إثارة الشبهات حوله على أقل تقدير، مما حدا بالمودودى أن يؤلف كتابه المعروف «الجهاد فى الإسلام» فند فيه مزاعم غاندى وأكاذيبه عن الإسلام.

– وتصدى للأحقاد الغربية ضد الإسلام التى أفرزت مفتريات وأضاليل رغبة ملحة فى صرف المسلمين عن دينهم، وتحويلهم إلى تبنى فكر الغرب وثقافته بديلا عن فكر الإسلام وثقافته.

فوجه اهتمامه لمعالجة القضايا التربوية والسياسية والاقتصادية من وجهة نظر إسلامية اجتهد فيها لتلائم العصر الذى يعيش فيه الناس.

– وتَصَدَّى للدعوات المنحرفة عن الإسلام وإن قام بها مسلمون مدفوعون بتيارات معادية للإسلام؛ إذ كشف القناع عن الملحدين والزنادقة، والقاديانيين وأمثالهم.

– وتصدَّى لتفنيد مزاعم من ينكرون حجية السنة النبوية وأبطل مزاعمهم.

– وتصدَّى لكشف وجه الحقيقة فى موضوع قفل باب الاجتهاد، فنعي علي بعض العلماء جمودهم، وأوضح أن ذلك الجمود مضاد لمصالح المسلمين.

● وكل هذه الردود معارك خاضها بجدارة واقتدار، ودفع لها أثمانا باهظة من حريته إذ أدخل السجن أكثر من مرة، ومن حياته نفسها إذ حكم عليه بالإعدام مرة ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، وما خرج من سجنه إلا بعد إلغاء الأحكام العرفية.

● وقد احتمل كل ذلك بصبر وجلد وثبات عظيم، حتى إنه لم يكف عن نشاطه الإسلامى وعمله من أجل مصالح المسلمين.

● وأسس المودودى الجماعة الإسلامية فى لاهور سنة ١٩٤١م وأعلن أن هدف الجماعة هو : الإصلاح الشامل لحياة المسلمين اليوم على أساس الإسلام الصحيح النقى مما ألصقه به الحاقدون من شوائب، مع اتخاذ الشريعة الإسلامية دستورا للبلاد، وقد اختير أميرا للجماعة دون منازع .

● وكان له جهد مشكور فى قيام دولة باكستان، حيث شن حملة قوية لإقناع المسلمين فى الهند بأنهم أمة متميزة، وأن عليهم أن يحكموا أنفسهم فى دولة خاصة بهم، إذا كانوا يريدون صَدّ الاضطهاد الهندى للمسلمين فى الهند .

وبعد قيام دولة باكستان هاجر إلى لاهور، وكرس جهده وحياته لوضع منهج شامل مأخوذ من الإسلام : الكتاب والسنة تقوم عليه دولة باكستان الإسلامية .

● وتحمل بصبر وثبات ما وجهه إليه المسلمون الغافلون من حكام باكستان من حرب وعداوة وسجن وتضييق، إذ مكث فى السجن عامين من ١٩٤٨م إلى ١٩٥٠م[١].

● ولقد تعرضت الجماعة الإسلامية فى باكستان لمحنة شديدة فى حكم المشير أيوب خان سنة ١٩٥٨م وصدر قرار بحلها مع حل الأحزاب كلها بقرار عسكرى!!! لكن الجماعة أعيدت بقوة القانون .

● ثم تعرضت الجماعة لمحنة سنة ١٩٦٤م، فاعتقلت الحكومة قادة الجماعة ولكنها تراجعت تحت ضغط الجماهير .

● وقد شن المودودى أعنف حملاته على الوحشية التى يعامل بها الهنود المسلمين فى كشمير، وعارض قرار وقف إطلاق النار الذى صدر فى طشقند فى ١٠/١/١٩٦٦ لأنه يقرر انتصار حاسما وكاملا للهند على المسلمين .

● وكان له نشاط بارز خارج باكستان يؤيد به جميع الأقطار الإسلامية فى قضايا السياسة، إذ زار فلسطين والجزيرة العربية ومصر مؤيدا لقضايا المسلمين .

● وكان المفكر لإنشاء الجامعة العربية فى المدينة المنورة سنة ١٩٦١م .

● وكان أحد مؤسسى رابطة العالم الإسلامى وحضر مؤتمرها المنعقد فى مكة سنة ١٩٦٦م .

---

(١) مما يلحظ هنا أن عام ١٩٤٨م كان عام حظر جماعة الإخوان المسلمين فى مصر وعام ١٩٤٩م اغتيال الإمام حسن البنا فى القاهرة – مما يؤيد أن أعداء الإسلام من الخارج كانوا وراء حرب هاتين الجماعتين .

● ونادى بضرورة أن يكتفى كل بلد مسلم اكتفاء ذاتيا فى الناحية العسكرية.

● وتحمل المودودى من أجل ما نادى به من إصلاح وتجديد فى الإسلام وتحرير المسلمين من أعدائهم، تحمل كثيرا من المتاعب لكنه قابل كل ذلك بثبات المؤمنين، حتى حكم عليه بالإعدام، فقابله بنفس الثبات قائلا كلمته المشهورة: «إن كانت تلك إرادة الله فإنى أتقبلها بكل فرحة، وإن لم يكتب لى الموت فى الوقت الحاضر فلا يهمنى ما يحاولون فعله. فإنهم لن يستطيعوا إلحاق أقل ضرر بى».

ثامنا: عبد الحميد بن باديس

مجاهد جزائرى ولد فى قسنطينة، من أسرة علم وفضل وشرف ومكانة، وكان مولده فى ٥/١٢/١٨٨٩م، تلقى العلم على أيدى أكابر العلماء مثل الشيخ محمد النخلى، والشيخ الطاهر بن عاشور حيث انتقل فى طلب العلم إلى كثير من البلاد الإسلامية، فقد درس فى جامع الزيتونة بتونس، وفى الحجاز على يد شيخه أحمد حمدان الونيسى الذى كان قد هاجر إلى الحجاز، كما جاء إلى مصر ودرس على يد الشيخ محمد بخيت أحد أعلام علماء مصر.

● وعاد ابن باديس إلى قسنطينة بعد أن تزود فى رحلاته تلك بمزيد من العلم والإجازات العلمية والأسانيد، عاد ليمارس التدريس فى مسجد «سيدى قموش» يقضى يومه فى تعليم الإسلام الصحيح ومبادئ العلوم، أما ليله فكان دعوة إلى الله فى الجامع الأخضر حيث يلتف حوله المحبون من كهول وشيوخ يعلمهم الدعوة إلى الله ومنهج الإصلاح الإسلامى، ووسائل النهوض بالمسلمين.

● ومن أجل أن يزيح عن عقول المسلمين غشاوة الجهل وقصر النظر فى الحكم على الناس والأشياء، ومن أجل مقاومة الأعداء الأجانب والأعداء من الداخل عمل بالصحافة لتنوير الأذهان.

- فأسهم فى إنشاء جريدة النجاح،
- ثم أسس وحده جريدة المنقذ، ورأس تحريرها، واستكتب فيها كبار العلماء المصلحين كالشيخ مبارك الميلى، والشيخ الطيب العقبى.

وكان ينقد فيها هو وكتابها أسلوب تفكير الجزائريين، ويرى أنهم بهذا الأسلوب فى خطر، وظل ينتقد حكام الجزائر الموالين لفرنسا المحتلة لبلادهم، حتى عطلت جريدته بقرار.

- وأصدر بعد ذلك جريدة الشهاب، تمشى على منوال جريدته السابقة، فحاربها الاستعمار الفرنسى والمستوزرون الجزائريون وحاربوه، حتى إنهم حاولوا اغتياله سنة ١٩٢٧م، وتحولت الجريدة - بسبب الضغط عليها - إلى مجلة أسبوعية، ثم إلى مجلة شهرية، اهتمت بشئون الجزائر كلها الدينية والعلمية والسياسية والاجتماعية.

- وشارك فى نادى الترقى الذى أنشأه المصلحون الغيورون من أهل الجزائر، وكان هدفه النهضة بالجزائر.

● وكان من يمن الطالع على الجزائر كلها أن اللجنة التحضيرية لنادى الترقى انبثقت عنها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فتأسست هذه الجمعية وكان قد مضى على احتلال فرنسا للجزائر مائة عام، وكان شعار العلماء فى هذه الجمعية هو:

- الإسلام ديننا؛ فى مواجهة رغبة فرنسا القضاء على الإسلام فى الجزائر،

- العربية لغتنا، فى مواجهة القضاء على العربية لتحل محلها الفرنسية،

- الجزائر وطننا، فى مواجهة قول فرنسا إن الجزائر امتداد لفرنسا!!!

وفى شهر مايو من سنة ١٩٣١م انتخب عبد الحميد بن باديس رئيسا لندوة العلماء المسلمين، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يحتج على الحكومة الجزائرية نوعين من الاحتجاج:

الأول: بوصفه رئيسا لجمعية العلماء.

والآخر: باسمه الخاص، وكان ذلك النوع من الاحتجاج أشد وأعنف؛ إذ كشف فيه فضائح الاستعمار الفرنسى ومخازيه.

وظل يواصل نقد الحكم الفرنسى للجزائر غير مبال بما يتعرض له من متاعب.

● وفى شهر يونيو من سنة ١٩٣٦م تأسس المؤتمر الإسلامى الجزائرى، وقرر العلماء أن يشارك فيه الشيوخ:

عبد الحميد بن باديس،

والطيب العقبى،

والبشير الإبراهيمى،

ومحمد خير، وغيرهم.

فكان لهؤلاء العلماء فضل فى إفشال مشروع الاندماج فى فرنسا، ذلك المشروع الذى كان سيؤدى إلى ضياع الجزائر نهائيا.

● وكان هذا المؤتمر قد نبتت فكرته فى أذهان الجبهة الشعبية الفرنسية بعد فوزها فى انتخابات ١٩٣٦م، وكان أغلب من دعوا إلى هذا المؤتمر من الفرنسيين، والجزائريين الذين يرغبون فى دمج الجزائر فى فرنسا وهو ما عرف بمشروع:

«بلوم فيولين».

وقد جاء فى مطالب جمعية العلماء المسلمين الممثلة فى أشخاص هؤلاء المشاركين ما يلى:

- المحافظة على الشخصية الإسلامية فى الجزائر،

- وإلغاء كل ما اتخذ ضد اللغة العربية من وسائل، وإلغاء اعتبارها لغة أجنبية،

- وإصلاح هيئة المحاكم الشرعية لتطابق روح القانون الإسلامى،

- وإرجاع سائر المعاهد الدينية إلى الجماعة الإسلامية،

- وإرجاع أموال الأوقاف لجماعة المسلمين، لتتمكن بهذه الأموال من رعاية المساجد والمعاهد الدينية.

وكان إصرار هؤلاء الشيوخ على تلك المطالب سببا فى فشل المؤتمر فى فكرة دمج الجزائر فى فرنسا.

● وعندما قامت الحرب العالمية الثانية ألحت فرنسا على أن يرسل الجزائريون برقيات تأييد لفرنسا فى هذه الحرب، فرفض عبد الحميد بن باديس أن يؤيد أعداءه، وكان هذا مما أثار فرنسا وحكام الجزائر المتفرنسين على عبد الحميد بن باديس وعلى جمعية علماء المسلمين، ففرضت الإقامة الجبرية «تحديد الإقامة» على عبد الحميد بن باديس فى قسنطينة ومُنع من مغادرتها.

● وقد حاول الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الثانية الاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل العربية، فقال لهم: لا أسمح بهذا حتى أموت دونه.

وكانت محاولتهم الثانية أن ينتزعوا منه كلمة يفهم منها تأييده لفرنسا فى حربها ضد ألمانيا، ففشلوا...

وظل ثابتا شجاعا لايخشى القوة الفرنسية الغاشمة ولا الحكومة الجزائرية الممالئة لفرنسا، ويتعرض من أجل ذلك لمزيد من المتاعب، حتى وافاه أجله يوم ١٦ من شهر إبريل سنة ١٩٤٠م.

– ويقال إنه مات مسموماً!!!

تاسعا: عز الدين القَسَّام

هو محمد عز الدين القسام، مجاهد مصلح ولد فى جَبَلة – من أعمال اللاذقية بسوريا – سنة ١٣٠٠ هـ – ١٨٨٢م – وتوفى بفلسطين سنة ١٣٥٤ هـ – ١٩٣٥م شهيداً، على أيدى الإنجليز المحتلين لفلسطين.

- تعلم القسام فى الأزهر بمصر، وعاد إلى بلده ليشتغل بالتعليم والوعظ، إلى أن احتل الفرنسيون ساحل سوريا عام ١٩١٨م بعد الحرب العالمية الأولى، عندئذ ثار عز الدين القسام مع عدد من تلاميذه ومحبيه ضد الفرنسيين، فطارده الفرنسيون فقصد دمشق إبان الحكم الفيصلى، ثم احتل الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٠م وطاردوا القسَّام، فذهب إلى حيفا بفلسطين.
- وفى حيفا تولى إمامة جامع الاستقلال والخطابة فيه.
- ورأس فى حيفا جمعية الشبان المسلمين.
- وفى هذه الأثناء استفحل الخطر الصهيونى ١٩٢٠م بعد وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا لليهود بوطن قومى فى فلسطين، وعندئذ ثارت فلسطين على الإنجليز ثورة معروفة كانت فى سنة ١٩٣٤م، وفى هذه الثورة كان للقسام قصب السبق فى شحن الفلسطينيين ضد الإنجليز، وفى المشاركة الفعلية فى هذه الثورة؛ حيث قاد مجموعة مجاهدة اتخذت من الجبال والكهوف مأوى لها، وكَبَّدَتْ الإنجليز خسارة فادحة، ولم يستطع الإنجليز الوصول إلى القسام إلا بخيانة أحد العرب الذى دلّ الإنجليز على مكان القسّام!!! وكان هذا العربى يعمل جاسوسا للإنجليز.
- ومن أبرز أعماله:

– قام بالدعوة إلى الله والتعليم والوعظ، وأبلى فى ذلك أحسن البلاء،

– وقام بتنظيم الحلقات السرية الجهادية ضد الانتداب البريطانى على فلسطين وسماه

احتلالا، وتحيزا لليهود،

– وقاد ثورة مسلحة فى جبال جنين بفلسطين،

– وكان بحق شيخ ثوار فلسطين وأستاذهم،

– وعبَّأ المشاعر ضد الصهيونية، كون مجموعة من المجاهدين ضد الإنجليز والصهاينة، وبخاصة فى مدينة حيفا وشمالى فلسطين،

– وأوقع الرعب فى نفوس الإنجليز والصهاينة،

– وتسببت أعمال القسّام فى إلهاب حماس الناس، ومشاركتهم فى الكفاح ضد أعدائهم من الإنجليز واليهود،

– وعقد اتفاقا مع رجال الحركة الوطنية بالقدس،

– وهو صاحب فكرة إعلان العصيان والتمرد على الاستعمار الإنجليزى لفلسطين،

– وهو الذى أعلن الثورة الفلسطينية السادسة على الإنجليز وقاد معارك عنيفة ضدهم وألحق بهم خسائر فادحة.

وبعد : فهذا أنموذج من نماذج الثبات على الحق وتحمل الشدائد والأهوال حتى الموت دون التخلى عنه.

عاشرا : سعيد النورسى – بديع الزمان –

ولد سنة ١٢٩٣هـ – ١٨٧٣م فى قرية تابعة لقضاء «هيزان» بتركيا من أبوين كرديين، وتلقى تعليمه فى عدد من المدارس المحيطة بقريته، ولم يمض من العمر ثمانية عشر عاما حتى أجاد علوم الآلة «اللغة والعلوم العقلية على اختلافها» بالإضافة إلى علم الفقه وأصوله وعلوم القرآن الكريم.

● وكان شديد الحفظ حتى يقال : إنه حفظ القاموس المحيط من أوله إلى حرف السين، وحفظ كتاب جمع الجوامع فى أصول الفقه، حتى اشتهر بذلك بين مجالس العلم، فلقّب بينهم «ببديع الزمان» و «بسعيدى مشهور».

● وكان فى حياته زاهدا متقشفا، وكان دستوره فى الحياة : «دَعْ ما يريبك إلى ما لايريبك».

وكانت حياته سلسلة من الجهاد أعد نفسه لها من إجادة للرمى واستعمال السلاح وركوب الخيل والقدرة البدنية.

● وكان حسه الإسلامى شديدا واهتماماته السياسية عالية. قرأ يوما تصريح وزير المستعمرات البريطانى فى بعض مجالسه الاجتماعية الخاصة، وكان هذا التصريح هو: «مادام القرآن بيد أيدى المسلمين مُعزَّزاً، فإنه سيعيق سبيلنا، لابد من إخفاء هذا الكتاب عنهم أولا...»!!!

عندئذ ثار بديع الزمان، وأعلن أمام من كانوا حوله أنه سوف يكرس حياته كلها لخدمة القرآن والكشف عن المزيد من مظاهر إعجازه.

ثم قصد استانبول وأخذ يسعى إلى تأسيس مدرسة تضاهى الجامع الأزهر فى مصر، سماه: «الزهراء».

● **موقفه من «جمعية الاتحاد والترقى».**

هذه الجمعية كانت تظهر الاقتناع بالدين وتخفى رجس الماسونية واليهودية، وقد أنشئت سنة ١٩٠٨م.

وقد وقف حياته على حرب هذه الجمعية، فأنشأ جمعية باسم: «الاتحاد المحمدى» وانضم إليه فيها ألوف الناس.

ورأى أن الحرب الصريحة لجمعية الاتحاد والترقى لاتفيد، لأن عددا من الشيوخ وكثيرا من بسطاء المسلمين قد افتتنوا بهذه الجمعية، فقد رأى أنهم سوف يرون في حربها محاربة للإسلام، فأخذ ينادى بشعار الحرية التى تنادى به جمعية الاتحاد والترقى ولكن ربط ذلك بتشريع الإسلام وعقيدته، ومن كلماته فى ذلك قوله: «إن لم نلتجئ إلى الحرية التى خط طريقها الإسلام، فإن استبدادا واستعبادا عظيمين سيلحقان بنا، وسنصبح ضحية للحرية عما قريب»، وهكذا حاربهم بنفس شعارهم.

● وثارت مخاوف الماسونيين من بديع الزمان، فأرسلوا رئيس محفلهم الثرى اليهودى: «قرصّوا» لمقابلة بديع الزمان، وقابله ولكنه خرج من عنده يقول: «لقد كاد هذا الرجل العجيب أن يزجنى فى الإسلام بحديثه».

● و«قرصّوا» هذا صهيونى، ماسونى كان من أهم من عملوا على إسقاط الخلافة العثمانية، وخلع السلطان عبد الحميد، واستلاب فلسطين!!!

● **أول محاكمة لبديع الزمان ١٩٠٩/٣/٣١م**

قبض عليه وعلى كثير من المصلحين أمثاله وعلى كثير من أتباعه وحكم عليهم الطاغية الغاشم «خورشيد باشا»؛ فحكم على خمسة عشر منهم بالإعدام وأعدموا فعلا، ثم توجه «خورشيد» إلى بديع الزمان قائلا: «وأنت أيضا تدعو إلى تطبيق الإسلام» وطلب منه أن يقول ما لديه.

فقال بديع الزمان كلاما ليس لغيره أن يقوله، جرأة وشجاعة وكان مما قاله: «... لقد كانت الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، والآن فإنها تعادى الحياة، وإذا كان الحكومة هكذا فليعش الجنون... وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم!!!

– لقد سألتمونى: هل أنت داخل فى جمعية الاتحاد المحمدى؟ وأنا أقول لكم: مع الفخر إننى من أصغر أفرادها، ولكن هل تخبروننى من هم الذين يوجدون خارج هذه الجمعية غير المجانين والسفهاء؟

– وكانت جريمتى الأخرى: أننى تصديت للرد على دعاة الماسونية والإلحاد من أصحاب الصحف... وإننى أقول الآن: كما أنه لايناسب الشيخ الوقور أن يلبس لباس الراقصين، فكذلك لا يناسب إستانبول أن تلبس أخلاق أوروبا....».

– ونشرت الصحف ردوده لتحرش به الحكام والناس، ولكن خاب ظنهم، فسرعان ما تجمهر آلاف المسلمين من أتباع بديع الزمان حول المحكمة يهدرون ويهددون ويوعدون.

وكانت النتيجة أن حكم عليه بالسجن لا الإعدام، وسرعان ما أُخلِىَ سبيله.

● ولابد من معرفة رأيه فى الدولة العثمانية والأمة الأوروبية وذلك من خلال سؤال طرحه عليه الشيخ بخيت شيخ الأزهر الذى كان فى زيارة إستانبول حيث قال له: ما قولكم فى الدولة العثمانية والأمة الأوروبية؟

فأجاب بديع الزمان باللغة العربية: «إن أوروبا اليوم حاملة بالإسلام وستلده يوما مًّا، والدولة العثمانية حاملة بالنهج الأوروبى وستلده يوماً مًّا».

فقال الشيخ بخيت معجبا به وبإجابته: إن مثل هذا الشاب لايناظر.

● وفى أثناء الحرب العالمية الأولى تطوع فيها برتبة ضابط كبير، ثم وقع أسيرا فى أيدى الروس، وحكم عليه بالإعدام ثم عفى عنه، ونفى إلى سيبيريا، وبقى فيها فترة طويلة

وعانى فيها كثيرا، لكنه استطاع أن يهرب وأن يعود إلى إستانبول.

● وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى استولى الإنجليز على إستانبول سنة ١٩١٨م، ووجهوا ستة أسئلة إلى علماء المشيخة الإسلامية - كان القصد منها البدء بسلسلة أعمال للقضاء على الإسلام، فوجهت المشيخة الأسئلة إلى بديع الزمان ليجيب عليها بستمائة كلمة فحسب - كرغبة الإنجليز - فكان جوابه:

«إن هذه الأسئلة لايجاب عليها بستمائة كلمة، ولا بست كلمات، ولا بكلمة واحدة، بل ببصقة واحدة على أفواه السائلين».

وكان أن حكم عليه بالإعدام مرة ثالثة، ثم خفف خشية ثورة الأناضول ضد الإنجليز.

● **بديع الزمان ومصطفى كمال.**

حينما حدث عصيان الأناضول الذى دعا إليه بديع الزمان - وكان مصطفى كمال على رأس الحركة - استدعى بديع الزمان إلى أنقرة لتكريمه سنة ١٩٢٠م وذهب بديع الزمان ولكنه فوجئ هناك بخيبة أمل عظمى، إذ رأى هناك اتجاها إلى معاداة الشريعة الإسلامية، فقاطع حفل التكريم، ثم اختفى، ثم أرسل إلى المجلس النيابى الذى كان يرأسه مصطفى كمال بيانا من عشر فقرات كان له تأثير جيد فى أعضاء المجلس، حتى إن ستين منهم استقاموا على التدين وإقامة الصلاة فأثار ذلك حفيظة مصطفى كمال، فاستدعى بديع الزمان، ثم ناقشه قائلا: لقد دعوناك هنا للاستفادة من آرائك، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هو بث الفرقة فى أهل المجلس!!!

فأجابه بديع الزمان، مشيرا إليه بإصبعه قائلا بحدة:

«باشا ... باشا ... إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هى الصلاة، إن الذى لايصلى خائن، وحكم الخائن مردود».

● ومنذ ذلك الحوار أدرك بديع الزمان خيبة مسعاه فى أن يخرج من الحكومة الكمالية نور وخدمة الإسلام.

وأدرك مصطفى كمال أن بديع الزمان خطر على حكومته، فأراد أن يشتريه بأن عينه رئيسا للوعاظ فى شرق الأناضول كله، وعضوا فى رئاسة جامعة «دار الحكمة» ومنحه «فيلا» ضخمة يسكن فيها، وحاول أن يقربه إليه.

– غير أن بديع الزمان لم يوافق على قبول شيء من ذلك، ولم يلبث أن غادر أنقرة إلى «وان» سنة ١٩٢١م.

– ومن «وان» كان يبعث صيحات التوجيه والإرشاد بين صفوف الشباب وبخاصة المثقفون منهم، تلك الصيحات أو هذه الرسائل التى عرفت برسائل النور والتى أدت إلى تشكيل جماعة النور.

– ورسائل النور هى مائة وخمس وثلاثون رسالة، تحدث فيها عن كل الشئون السياسية والاجتماعية والعقلية، من منطلق القرآن الكريم والسنة النبوية.

– وقد حاربت الحكومة الكمالية هذه الرسائل وحظرتها، فكان من يتلقى رسالة منها يكتب منها نسخا ويرسلها إلى من يعرف ويطالبه بكتابة نسخ وإرسالها إلى من يعرف... وهكذا، فطار صواب مصطفى كمال، وأسفر عن وجهه القبيح فى معاداة الإسلام، فألغى اللغة العربية وكل بحوث أو دراسات مكتوبة بها، وحارب التدين وأحل محله العلمانية، وحارب المساجد فحول بعضها إلى مخازن أو إلى مرابط خيل، وأخذ يعتقل ويعذب كل من له توجه إسلامى!

– وأصدر أمره باعتقال بديع الزمان، ونفاه فى «بارلا» وهى منفى فى «أسبارتا» النائية، وبقى بديع الزمان فى منفاه ثمانى سنوات يعانى ألواناً من العنت والشدة.

– ثم رأى مصطفى كمال استمرار تأثير بديع الزمان فى الناس فقرر نقله مخفورا مع مائة وعشرين من تلاميذه إلى سجن «أسكى نهر»، وقدمه إلى محاكمة اتهم فيها بتأليف جمعية سرية تعمل على قلب نظام الحكم، وصدر عليه الحكم بالسجن أحد عشر شهراً.

● ولكن الحكومة التركية أذنت لجماعة النور بالاتصال برائدها بديع الزمان، كما تغاضت عن طبع هذه الرسائل، وما هى إلا فترة وجيزة حتى رأت الحكومة أن حركة النور راحت تكتسح البلاد كلها، بل وتتجاوزها إلى باكستان والهند، بل إن بعضها كان ينثر على الناس بوساطة الطائرات التى يقودها ضباط ينتمون إلى هذه الحركة.

– عندئذ أسقط فى يد الحكومة وخافوا أشد الخوف على الإلحاد والعلمانية، فقررت الحكومة إلغاء القبض على بديع الزمان مع مجموعة من كبار أتباعه، وأحالوهم إلى محاكمة كبرى فى ولاية «أفيون» بنفس التهم السابقة، وكانت هذه المحاكمة فى عام ١٩٤٨م.

– وضُيق على بديع الزمان فى سجنه، وعذب بالإقامة فى مكان قذر والحرمان من الطعام إلا كسرة خبز وقليل ماء كل يوم، وحكم عليه بعشرين شهرا فى السجن.

– وبعد خروجه من السجن أمضى بقية حياته وقد فرضت عليه العزلة عن الناس، إلى أن توفاه الله فى ٢٧ من شهر رمضان سنة ١٣٧٩هـ مارس ١٩٦٠م.

هكذا ثبت بديع الزمان وما لانت له قناة على الرغم من كل ما تعرض له من أهوال.

حادى عشر: حسن البنا

ولد حسن البنا فى المحمودية بمحافظة البحيرة بمصر سنة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م واستشهد فى ١٣٦٨هـ فبراير ١٩٤٩ بالقاهرة.

نشأ فى طاعة الله، ومارس العمل من أجل الإسلام وهو طالب فالف فى المدرسة جمعية سماها «جمعية محاربة المنكرات»، ودأب على أن يكتب رسائل إلى بعض الشخصيات ناصحا دون أن يذكر اسمه.

- تخرج فى دار العلوم – بعد أن أنهى دراسته فى معهد المعلمين – فكان ترتيبه الأول على دفعته، وعين مدرسا فى الإسماعيلية التى كان يجثم على صدرها جيش الاحتلال البريطانى، ولذلك أخذت مدينة الإسماعيلية الطراز الأوروبى فى معمارها، وكانت مقرا للعاملين فى شركة قناة السويس.

- وكان البنا يرى أن الإنجليز الذين احتلوا مصر سنة ١٨٨٢م قد أذلوا الشعب المصرى واستعبدوه، ونشروا الإباحية والفساد وأخذ هذا التيار الإباحى يتسع حتى شمل معظم بلدان العالم الإسلامى، وبخاصة بعد تآمر دول الغرب والشرق على إسقاط الخلافة الإسلامية فى تركيا على يد مصطفى كمال سنة ١٩٢٤م.

- كما كان – رحمه الله – يرى محاولة الغربيين فى استئصال الإسلام واستعباد المسلمين، ويفكر كيف يتخلص من هذا الداء الوبيل، لذلك فكر فى إنشاء جمعية أو جماعة أو هيئة تضع حرب هؤلاء الأعداء فى برنامجها الإصلاحى التجديدى، كخطوة تالية لإصلاح النفوس وإعدادها إعدادا إسلاميا شاملا، فكانت جماعة الإخوان المسلمين، وأعانه على ذلك صفوة من المخلصين الغيورين على دينهم وأوطانهم من هذا الامتهان والاحتلال.

● ثم نقل البنا إلى القاهرة، فافتتح داراً للإخوان اعتبرت المركز العام الذى تتبعه الفروع فى الإسماعيلية والمنزلة وغيرهما من الشعب فيما بعد، وزاد نشاط أعضاء الجماعة، وكانت الجماعة دائما موضع تحسب الإنجليز وترقبهم، وإغراء حكومات مصر بالجماعة.

● وقد تعرض الإمام البنا للاعتقال مدة شهر على إثر خطاب ألقاه، هاجم فيه سياسة الإنجليز – أثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤١م – وكان ذلك من أسباب التضييق على الجماعة قبل اعتقال الإمام البنا ومعه وكيل الجماعة والسكرتير العام للجماعة، ومن مظاهر هذا التضييق ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

– نقل الإمام البنا إلى قنا نقلا تعسفيا فى ٢٠/٥/١٩٤١م.

– وصادرت حكومة حسين سرى مجلتى الشعاع والتعاون، وكانتا للجماعة، كما صادرت مجلة المنار الإسلامية الشهرية وكان البنا يتولى تحريرها،

– وأغلقت الحكومة مطبعة «الإخوان» ومنعت طبع رسائلهم فى أى مطبعة،

– ومنعت اجتماعات الإخوان فى الشعب،

– ثم اعتقلت الإمام البنا ووكيل الجماعة وسكرتيرها.

– ولابد لى أن أنبه هنا – وأنا بصدد الحديث عن فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا – وفى كتاب ركن الثبات بالتحديد إلى أحداث هامة مرت بالجماعة أسوقها فى سرد تاريخى، لأوضح من خلاله كيف ثبت حسن البنا أمام كل هذه العقبات وواجه هذا التحدى، بقلب ثابت وقدم راسخة.

وذلك على النحو التالى، وتحت هذا العنوان:

أحداث هامة فى تاريخ الجماعة:

بعد أن انتقلت الجماعة إلى القاهرة عام ١٩٣٢م، مارست أعمالا جليلة أحببت أن أرصدها – وقد عايشت كثيرا منها – وأسجلها فى أعمال، وبذلت جهدا جهيدا فى ترتيبها تاريخيا – ولست بمؤرخ – لتكون سجلا لأعمال الجماعة؛ طمعا منى فى أن أكون قد أحسنت قراءة التاريخ وحللت منه وعللت ما وفقنى الله إليه.

وترتيب هذه الأحداث التى يعد معظمها إنجازات ضخمة يجىء عندى على هذا النحو:

١ – فى ديسمبر سنة ١٩٣٢م صدر العدد الثانى من: «رسالة المرشد» وحدد فيه الإمام الموسس أهداف الجماعة ومبادئها.

٢ – فى ٢٢ من شهر صفر ١٣٥٢هـ الموافق ١٩٣٣م عقد مجلس الشورى العام الأول « المؤتمر الأول للجماعة، فى مدينة الإسماعيلية، وانتقل لذلك إلى الإسماعيلية المرشد العام ونواب فروع الإخوان المسلمين بالقطر المصرى كله.

٣ – فى مايو من عام ١٩٣٣م تأسست مجلة « الإخوان المسلمون » الأسبوعية ورأس تحريرها الكاتب الإسلامى الغيور محب الدين الخطيب وكانت لسان حال الجماعة.

٤ – فى شهر شوال من عام ١٣٥٢ هـ الموافق ١٩٣٣م أيضا – أى فى نفس العام الذى عقد فيه المؤتمر الأول للجماعة – عقد مجلس الشورى العام الثانى للجماعة والمؤتمر العام الثانى، وكان مكان انعقاده فى مدينة بور سعيد، وحضره المرشد العام وانتقل إليه نواب الفروع من القطر المصرى كله.

٥ – فى شهر ذى الحجة من عام ١٣٥٣هـ الموافق مارس ١٩٣٥م عقد مجلس الشورى العام الثالث « المؤتمر العام الثالث بمدينة القاهرة فى عطلة عيد الأضحى، وكانت له قرارات جيدة سوف نتحدث عنها فى الفصل الرابع من هذا الباب بإذن الله تعالى. وكان هذا العام عام خير على الجماعة ففيه تم:

٦ – تأسيس مطبعة الإخوان المسلمين ١٣٥٣هـ – ١٩٣٥م.

٧ – وفى نفس العام ١٣٥٣هـ – ١٩٣٥م أنشئت جريدة الإخوان المسلمين.

٨ – وفى نفس العام أنشىء فريق الرحلات.

٩ – وفى نفس العام وضع النظام والتكوين العملى والإدارى والمالى للجماعة.

١٠ – وفى نفس العام وُضعتْ لائحة الحج.

١١ – وفى نفس العام وُضعتْ لائحة الزكاة والصدقات.

١٢ – وفى نفس العام خرجت الجماعة بفكرها وعملها إلى الأقطار الشقيقة، وبخاصة فلسطين وسوريا ولبنان.

١٣ – وفى نفس العام تبنت الجماعة قضية فلسطين، وقدمت للفلسطينيين كل ما تستطيع من المساعدات.

١٤ – وفى عام ١٩٣٦م أنشأت الجماعة فرق الجوالة، وألحقتها بجمعية الكشافة المصرية، وكان للجماعة فضل فى تعديل قانون الكشافة بحيث أخذ الصبغة الإسلامية.

١٥ - وفى نفس العام أعلنت الجماعة معارضتها لمعاهدة سنة ١٩٣٦م التى عقدها النحاس باشا مع الإنجليز.

١٦ - وفى ذى الحجة من عام ١٣٥٤هـ - فبراير ١٩٣٦م عقدت الجماعة مجلس الشورى العام الرابع «المؤتمر العام الرابع».

١٧ - وفى نفس العام أرسل مكتب الإرشاد خطابا مفتوحا لرئيس وزراء مصر آنئذ يطالبه بأن يعمل ما يستطيع من أجل قضية فلسطين.

١٨ - وفى شهر شعبان سنة ١٣٥٦هـ الموافق نوفمبر ١٩٣٧م أرسل مكتب الإرشاد خطابا إلى السفير البريطانى ليرفعه إلى حكومته من أجل قضية فلسطين.

١٩ - وفى نفس العام تم إنشاء نظام الكتائب، وكانت الكتائب تقوم التربية فيها على أخذ أعضائها بنظام تربوى صارم يقوم على: قيام الليل، والتفكر والتأمل، والتدريب الجماعى، حتى أصبح من المألوف فى أوساط الجماعة أن يقال: إن فلانا من إخوان الكتائب، ليدل ذلك على مكانته فى الجماعة وعميق التزامه وشديد انتمائه.

٢٠ - وفى عام ١٣٥٧هـ فى شهر المحرم الموافق مارس ١٩٣٨م اهتمت الجماعة بالعمل الطلابى اهتماما شديدا، وعقدت لهم فى هذا التاريخ مؤتمرا كبيرا.

٢١ - وفى نفس العام تم إنشاء قسم الرحلات الصيفية.

٢٢ - وفى نفس العام تم إنشاء المعسكرات الصيفية.

٢٣ - وفى نفس العام تم إنشاء فرق الوعظ والإرشاد الصيفية كذلك، وكان للعضوية فيها شروط، وكان مقرها منطقة شبرا بالقاهرة، وكان المرشد هو الذى يقوم بالتدريس فيها، وكانت الدراسة فيها أسبوعين.

٢٤ - وفى نفس العام كونت الجماعة رأيا فى التعليم الدينى، وقابل المرشد العام الشيخ المراغى شيخ الأزهر آنذاك، وألقى محاضرة باهرة فى التربية الدينية كان أشد الناس إعجابا بها «منصور باشا فهمى»، وكان يوم استمع إلى المحاضرة عميدا لكلية الآداب.

٢٥ - وفى الثالث عشر من ذى الحجة عام ١٣٥٧هـ - الموافق فبراير ١٩٣٩م[١] عقد مجلس الشورى العام الخامس «المؤتمر العام الخامس» بسراى لطف الله بالجيزة، وهو من أهم

---

(١) هذا هو الضبط التقويمى للتاريخ، وهو على خلاف ما كتب فى كثير من الكتب والرسائل فأغلبها يجعله عام ١٩٣٨م.

المؤتمرات التى عقدتها الجماعة - كما سنوضح ذلك عند حديثنا عن المؤتمرات العامة للجماعة فى الفصل الرابع من هذا الكتاب.

٢٦ - وفى نفس العام تولت الجماعة إصدار مجلة (المنار) الإسلامية بعد وفاة صاحبها السيد محمد رشيد رضا بالتفاهم مع ورثته، وأصدرت العدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين فى غرة جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ - ١٨/٧/١٩٣٩م، ثم والت الجماعة إصدار خمسة عشر عددا من هذه المجلة.

٢٧ - وفى نفس العام حددت الجماعة موقفها من الحكومات والأحزاب المتعددة فصالحت وخاصمت من منطلق الإسلام فكره وعمله.

٢٨ - وفى سبتمبر عام ١٩٣٩م أعلنت الجماعة رأيها فى الحرب العالمية الثانية، وكان رأيا متمشيا مع مصالح البلاد والعالمين العربى والإسلامى.

٢٩ - وفى أكتوبر من نفس العام - وكانت الحكومة المصرية قد أعلنت الحرب على دول المحور ممالئة للإنجليز - قدمت الجماعة مذكرة لرئيس الوزراء فى هذا الموقف بعد إعلان مصر الحرب بأيام.

٣٠ - وفى نفس العام أعلنت الجماعة رأيها فى موقف مصر الدولى.

٣١ - وفى ٥ من شهر شعبان ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م أعلنت الجماعة رأيها فى الإصلاح الداخلى بمصر، وأبلغت به رئيس الوزراء آنذاك.

٣٢ - وفى ذى الحجة من عام ١٣٥٩هـ - يناير ١٩٤١م عقدت الجماعة مجلس الشورى العام السادس «المؤتمر العام السادس» وكان آخر هذه المؤتمرات حيث شكلت بعد ذلك الهيئة التأسيسية لتكون مجلس الشورى الدائم للجماعة.

ومن أبرز قرارات هذا المؤتمر جواز دخول أعضاء الجماعة فى الانتخابات العامة لمجالس «البرلمان» مجلسى النواب والشيوخ.

٣٣ - وفى نفس العام طورت الجماعة نظام الجوالة فيها، وأصبحت رئاسة هذا النظام للإمام البنا نفسه، واختير المرحوم الصاغ محمود لبيب مفتشا عاما للجوالة، وأصبح اشتراك جميع الإخوان فى الجوالة واجبا.

٣٤ - وفى نفس العام تعرضت الجماعة للضغوط الحكومية التالية:

أ – نقل الأستاذ البنا نقلا تعسفيا إلى قنا ٢٠/٥/١٩٤١م،

ب – وصادرت وزارة حسين سرى مجلتى الشعاع والتعاون الأسبوعيتين وكانتا للإخوان تعبران عن رأيهما،

جـ – وصادرت الحكومة مجلة (المنار) الإسلامية الشهرية وكان الإخوان يتولون تحريرها،

د – ومنعت الحكومة طبع رسائل الإخوان فى أى مطبعة،

هـ – وأغلقت الحكومة مطبعة الإخوان،

و – ومنعت الحكومة اجتماعات الإخوان فى الشعب،

ز – ثم اعتقلت الحكومة الإمام البنا ووكيل الجماعة آنئذ أحمد السكرى وسكرتيرها عبد الحكيم عابدين، وظل الإمام معتقلا لمدة شهر.

٣٥ – وفى عام ١٩٤٢م تقدم الإمام المؤسس بأوراق الترشيح لمجلس النواب، ولكن النحاس باشا استدعاه وطلب منه أن يعدل عن ترشيح نفسه بناء على أوامر الإنجليز، وكان تفاوض بين الإمام والنحاس باشا، واستشارة من الأستاذ لإخوانه ثم عدول عن الترشيح فى مقابل إرخاء قبضة الحكومة عن الجماعة والسماح لها بممارسة أنشطتها التى كانت قد منعت من ممارستها.

٣٦ – وفى عام ١٩٤٣ شكلت الجماعة «النظام الخاص» بهدف حماية الجماعة من الإنجليز وغيرهم، وأعدت له لائحة خاصة.

٣٧ – وفى أكتوبر ١٩٤٤م تولى أحمد ماهر باشا تأليف الوزارة بعد إقالة حكومة الوفد، وحل مجلس النواب وبدأ الإعداد للانتخابات، فخاض الإخوان هذه الانتخابات ببرنامج إسلامى، ولكن الحكومة – وكانت تمثل أقلية حزبية – حالت بين الإخوان وبين النجاح فى هذه المعركة الانتخابية بالطريقة التقليدية للحكومات المصرية وهى تزييف الانتخابات وتحدى المرشحين والقبض على وكلائهم وأعوانهم!

٣٨ – وفى نفس العام اغتيل أحمد ماهر باشا بعد إعلانه الحرب على المحور مستجيبا فى ذلك لأوامر الإنجليز فاغتاله أحد أعضاء الحزب الوطنى، وعلى الرغم من ذلك قبض على الإمام المؤسس ووكيل الجماعة وسكرتيرها، ولم يفرج عنهم إلا بعد اعتراف القاتل، وعلى الرغم من اعتراف القاتل ومحاكمته وإعدامه إلا أن حكومة عبد الناصر الحاقدة

على الإسلام والمسلمين حاولت من جديد أن تلصق التهمة بالجماعة، وصنعت من أجل ذلك الحملات الإعلامية المسعورة التى تستهدف الباطل والتشويه.

٣٩ – وفى نفس العام تولى الحكومة النقراشى باشا خلفا لأحمد ماهر باشا، ففرض على الجماعة قيودا صارمة – على الرغم من براءة الجماعة من قتل سلفه – ولكن الإنجليز –أولياء نعمته والذى أتوا به إلى الوزارة– رأوا ذلك، فانساق فى تحدى الجماعة وأعلن أن الوفد كان أقل تشددا مع الجماعة.

٤٠ – وفى ٣ من شوال سنة ١٣٦٤هـ – ٨ سبتمبر ١٩٤٥م عقدت الجماعة لقاء حافلا ضم مسئولى الشُعب ومراكز الجهاد ومسئولى المناطق، وكان هذا اللقاء فى القاهرة، وألقى فيه الإمام المؤسس خطابا جامعا سنشير إلى محتواه فى الفصل الرابع من هذا الباب بإذن الله تعالى.

٤١ – وفى شهر شوال سنة ١٣٦٤هـ – ٨ سبتمبر ١٩٤٥م عقدت الجماعة جمعية عمومية لها، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية فى ٢ سبتمبر ١٩٤٥م، وفى هذه الجمعية العمومية قررت الجماعة تكوين الهيئة التأسيسية لها، ووزعت السلطات بين الهيئة التأسيسية ومكتب الإرشاد والمرشد العام.

٤٢ – وفى نفس العام – وبعد صدور القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٥م الخاص بتنظيم الجماعات والمؤسسات الخيرية، أنشأت الجماعة قسما فيها سمته: «جماعات أقسام البر والخدمة الاجتماعية للإخوان المسلمين» وكان لهذا القسم نشاط اجتماعى جيد فى أكثر من خمسمائة شعبة من شعب الإخوان المسلمين فى مصر.

٤٣ – وفى نفس العام عبأ الإخوان جهودا ضخمة فى المدن والقرى، وعقدوا كثيرا من المؤتمرات المحلية للمطالبة بمطلبين رئيسيين هما:

أ – جلاء الإنجليز عن مصر والاستقلال التام.

ب – ووحدة وادى النيل «مصر والسودان»، وكان الإنجليز قد أخذوا يكرسون انفصال السودان عن مصر.

٤٤ – وفى مستهل عام ١٩٤٦م ركز الإخوان على النشاط الطلابى فى الجامعات والأزهر والمدارس الثانوية، دعما لتأييد القضية الوطنية وإظهارا للسخط على الإنجليز المحتلين.

٤٥ – نظم الإخوان المسلمون مظاهرة طلابية ضخمة يومى ٩، ١٠ فبراير سنة ١٩٤٦م احتجاجا على رد الحكومة الإنجليزية بالرفض على مذكرة للحكومة المصرية تتضمن طلبا من الحكومة الإنجليزية بالدخول مع مصر فى مفاوضات لإعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦م، مما اعتبره الإخوان إهانة للحكومة المصرية وللشعور الوطنى.

وهذه المظاهرة وإن كان الإخوان قد نظموها للطلاب وحدهم إلا أن شعارات السخط على المحتل جذبت إليهم من غير الطلاب أعدادا كبيرة من الوطنيين الذين يضيقون بالاحتلال الإنجليزى لبلادهم.

وهذه المظاهرة هى المشهورة بمظاهرة كوبرى عباس، وقد نسبت إليه لأن قوات الأمن المغلوبة على أمرها قد فتحت هذا الكوبرى لتمنع تقدم الطلاب من جامعة القاهرة – حيث بدأت المظاهرة – إلى داخل القاهرة، مما أدى إلى وقوع عدد كبير فى النيل وإصابة عدد كبير آخر برصاص شرطة القمع، وقد نجحت هذه المظاهرة أيما نجاح لأنها أدت إلى أن تستقيل حكومة النقراشى باشا فى يوم ١٥ فبراير ١٩٤٦م أى بعد المظاهرة بخمسة أيام، ثم تولى الوزارة بعد سقوط النقراشى إسماعيل باشا صدقى.

٤٦ – وفى هذا العام تعرضت الجماعة لحملة تشويه حزبية مضللة من الوفديين والشيوعيين تستهدف هذه الحملة اتهام الجماعة بممالأة حكومة صدقى باشا، والجماعة من ذلك بريئة كل البراءة، لأنها تقدمت لحكومة إسماعيل صدقى بمطالب محرجة لها مع الإنجليز.

٤٧ – وفى نفس العام نظمت الجماعة مظاهرة مضادة لحكومة صدقى باشا، وطالبت الحكومة بالمطالب التى أشرنا إليها آنفا والتى هى:

أ – أن يفاوض صدقى الإنجليز من موقف القوة، وأن يتخلى تماما عن مضمون مذكرة النقراشى للحكومة الإنجليزية، فقد كانت مذكرة ضعيفة لا يقوم عليها الاستقلال التام وجلاء الإنجليز عن مصر.

ب – وعدم التقيد بمعاهدة ١٩٣٦م.

جـ – وضرورة أن يكون وقت المفاوضات قصيرا، حتى لا تضيع فرصة عرض القضية على مجلس الأمن.

د – والإصرار على الجلاء التام غير المشروط عن مصر.

هـ - ودعت الجماعة إلى تضافر جهود الأمة استعدادا لمواجهة نتائج المفاوضات إذا لم تأت محققة لآمال الأمة.

و - وأعلنت الجماعة أنها تفضل الجهاد على المفاوضات.

ز - وامتلأت صحف الإخوان - وكانت آنئذ أكثر من صحيفة - بالمقالات المؤيدة لهذه الخطة والناقدة لأى حكومة أو حاكم يتهاون قيد شعرة مع الإنجليز أو يفاوضهم من موقع أنهم المسيطرون على البلاد.

٤٨ - وفى عام ١٣٦٥هـ وبالتحديد فى شهر مايو سنة ١٩٤٦م حصلت الجماعة على ترخيص بإصدار صحيفة «الإخوان المسلمون» اليومية، فأصدرتها، وكانت هذه الصحيفة نقطة تحول فى الدعوة والإعلام، وجهود الإخوان فى توزيعها بعد أن حاربتها شركات التوزيع.

٤٩ - أعلن المرشد العام باسم الجماعة أن المفاوضات مع الإنجليز لا جدوى من ورائها ودعا إلى الاستعداد بالقوة، لأن الحقوق لاتُعطى وإنما تؤخذ بالقوة والجهاد، وكان ذلك فى نفس العام (١٩٤٦م) ولم ترض الحكومة عن هذا الإعلان وذلك البيان.

٥٠ - وفى نفس العام اتخذت الحكومة ضد الجماعة التدابير والأعمال التالية:

أ - منعت الاجتماعات الإخوانية بصورة ضارية حتى راقبت المصلين فى المساجد خشية أن يكونوا من الإخوان ويعقدوا اجتماعات ضد حكومة صدقى باشا!!

ب - وأوقفت نشاط الجوالة إيقافا تاما تحسبا لأى عمل تقوم به الجوالة وبخاصة أنها فرق منظمة ومدربة.

جـ - واعتقلت الحكومة أعدادا كبيرة من أعضاء الجماعة، دون أن يقوم أحدهم بعمل مباشر يستوجب اعتقاله.

د - ومن عجب أن انتهز حزب الوفد هذه الفرصة التى كبلت فيها الجماعة وأخذ يكيل لها الاتهامات الباطلة بأنها توالى حكومة صدقى على الرغم مما فعلته حكومة صدقى بالجماعة مما هو مشاهد لكل ذى عينين، الأمر الذى حمل الإمام المؤسس على أن يرد على تلك الأباطيل.

٥١ - وفى نفس العام سافر صدقى باشا إلى إنجلترا لمفاوضة الإنجليز - فى المفاوضات المعروفة

باسم: «مفاوضات صدقى بيفين» - وعقب سفره أعلن الإخوان رفضهم الكامل لهذه المفاوضات إلا إذا تحقق الجلاء الكامل عن مصر.

٥٢ - وفى نفس العام دعت الجماعة الملك ورئيس وزرائه صدقى باشا إلى مقاطعة الإنجليز مقاطعة تامة، اقتصاديا، وثقافيا، واجتماعيا.

٥٣ - أعلن الإخوان المسلمون أن صدقى باشا لايمثل إرادة الأمة إذا ما استمر فى المفاوضات مع الإنجليز، وكانت هذه صفعة وجهت إلى حزب الوفد الذى يتهم الإخوان بممالأة صدقى باشا.

٥٤ - نظم الإخوان مظاهرات عامة، نفذت فى مختلف أنحاء القطر المصرى؛ احتجاجا على سفر صدقى باشا للمفاوضات، وكانت هذه المظاهرات قبل سفره بيوم واحد.

٥٥ - بعد عودة صدقى من إنجلترا بشهر واحد بدأت الدراسة فى الجامعات، ونظمت الجماعة مظاهرات عديدة للاحتجاج على هذه المفاوضات مما أحرج حكومة صدقى باشا أيما إحراج.

٥٦ - وفى نفس العام ١٩٤٦م نظمت الجماعة يوما سمته يوم الحريق أحرقت فيه فى الميادين العامة الصحف والمجلات وبعض الكتب الإنجليزية إظهاراً للسخط على الإنجليز، وهنا فقدت حكومة صدقى أعصابها واعتقلت عددا كبيرا من الإخوان، وأغلقت الجامعة وعطلت الدراسة، وصادرت الصحف واعتقلت وكيل الجماعة - لأن الإمام المؤسس كان يؤدى فريضة الحج - واضطربت الأمور أيما اضطراب.

٥٧ - وفى نفس العام ونتيجة لهذا التخطيط المعادى للإنجليز وللحكومة الموالية لهم، لم يسع حكومة صدقى باشا إلا أن تستقيل تحت ضغط هذه الظروف، فاستقال فى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٦م.

٥٨ - عاد النقراشى مرة ثانية للوزارة بعد استقالة صدقى فألفها فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦م وشاركه فيها الدستوريون، ولم تستطع هذه الحكومة أن تكون على مستوى ثقة الشعب فى مصر، فضلا عن ثقة الإخوان المسلمين.

٥٩ - أعلن المرشد العام فى بيان قوى أن طريق المفاوضات لن يؤدى إلى خير، ودعا إلى اختصار هذا الطريق وإنهاء المفاوضات والسير فى طريق الإعداد للجهاد.

٦٠ - وفى نفس العام أخذت صحف الجماعة ووسائل إعلامها تهاجم تعاقب الحكومات

والوزارات والأحزاب، وترى فى ذلك خداعا للناس، وأعلنت فى صراحة أن الحل الحقيقى كامن فى: دستورية القرآن الكريم، وإنفاذ نظام الإسلام.

٦١ - أعلن الإخوان أنهم لن يهدأ لهم بال حتى يروا القرآن دستورا فى مصر وغير مصر، وتوجست الحكومة من هذا البيان ومن الإخوان عموما وبيتت للجماعة شرا، وتوقع الإخوان أنهم مقبلون على محنة مع حكومة النقراشى، ولم يكن هذا التوقع بعيدا عن الصواب بعد حين قليل.

٦٢ - ألقى النقراشى بيان حكومته أمام مجلس النواب، وكان بيانا هزيلا لم يرتفع إلى مستوى مطالب الشعب وطموحه، فضلا عن مطالب جماعة الإخوان المسلمين، فهاجم الإخوان هذا البيان ووصفوه بالغموض، ودعوا صراحة إلى إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦م، ونادوا بعرض القضية على مجلس الأمن، فإذا فشل مجلس الأمن فى حل القضية فليس أمام الجماعة إلا الجهاد فى سبيل الله لتحرير الوطن من عدوه الغاصب.

٦٣ - وفى ٢٥ يناير ١٩٤٧م قرر مجلس الوزراء فى مصر عرض القضية على مجلس الأمن، وربما كان ذلك استجابة لما طالب به الإخوان مرارا، ولهذا أرسل المرشد العام برقية تأييد للنقراشى باشا، وفى الوقت نفسه استنكرت الجماعة موقف الوفد وزعيمه النحاس الذى أرسل إلى مجلس الأمن برقية يقول فيها: إن النقراشى باشا ليس صوتا شرعيا لمصر، وقد أدى ذلك إلى شن حزب الوفد لحملة على الإخوان المسلمين يشوههم ويتهمهم بالباطل.

٦٤ - فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٤٧م عرضت القضية على مجلس الأمن، وأرسلت الجماعة مندوبا عنها إلى هيئة الأمم المتحدة، وألقى هذا المندوب خطبة قوية استنكر فيها المفاوضات وطالب بالجلاء ووحدة وادى النيل، وقاد مظاهرة أمام مبنى هيئة الأمم المتحدة، وطُرد ولكنه عاد متخفيا إلى مصر [1].

٦٥ - وفى هذا العام الحافل بالأحداث أخذ موقف الجماعة يتراوح ما بين تأييد لحكومة النقراشى أو معارضة حسب موقف الحكومة من قضية البلاد، وقد بلغ تأييد الجماعة للنقراشى لرفضه المفاوضات حد أن قامت الجماعة بمظاهرة قادها الإمام بنفسه تأكيدا لرفض المفاوضات مع الإنجليز، بل إن الجماعة استقبلت النقراشى باشا عند عودته بعد فشل القضية فى مجلس الأمن، وطالبته الجماعة بأن يعينها على تعبئة الجماهير ضد

(١) هذا المندوب هو المهندس مصطفى مؤمن.

الإنجليز، ولكن الجماعة كانت حسنة الظن أكثر من اللازم بالنسبة لهذا المطلب.

٦٦ - وفى نفس العام أصدرت الجماعة بيانا طالبت فيه الدول العربية والإسلامية بمقاطعة الهيئة الدولية للأمم المتحدة، والدول الأوروبية التى عارضت القضية المصرية فى مجلس الأمن، وصمتت الحكومة إزاء ذلك صمتا مطبقا ومحيرا، ودالا على أنها قد غيرت موقفها.

٦٧ - وفى نفس العام غيرت الجماعة من تعاطفها مع حكومة النقراشى، فأصدرت بيانا هاما هاجمت فيه الحكومة وانتقدت تصرفاتها من القضية المصرية.

٦٨ - وفى ١٩٤٧/١١/٢٩ صدر قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وكان لذلك القرار صدى واسع وعميق فى الأمة العربية كلها وفى فلسطين بالذات وفى جماعة الإخوان المسلمين - التى كانت أول من نبه الحكومات العربية إلى قضية فلسطين وأول من ساعد الفلسطينيين وأعانهم بالمال والسلاح - على وجه الخصوص.

٦٩ - وللجماعة الإخوان المسلمين موقف من القضية الفلسطينية لايضاهيه موقف فى نبله وفى دقة تصوره للقضية على أنها قضية المسلمين والعرب والفلسطينيين، وكان لهذا الموقف مفردات نشير إليها فيما يلى:

أ - دعت الجماعة إلى تأييد الفلسطينيين ضد اليهود وضد الإنجليز منذ عام ١٩٣٦م، وعملت ما وسعها فى سبيل هذا التأييد، مما أشرنا إلى بعضه آنفا.

ب - وأسهمت الجماعة منذ عام ١٩٣٦م بجمع التبرعات والأسلحة لمد الفلسطينيين بها عن طريق الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وأحد أبطالها.

جـ - وبعد قرار التقسيم أرسلت الجماعة نائبها للشئون العسكرية والصاغ محمود لبيب، لتدريب الفلسطينيين عسكريا فى بلادهم، وظل يدربهم هناك حتى ضاق به الإنجليز وطلبوا منه مغادرة البلاد.

د - وساعدت الجماعة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين على الحصول على حق اللجوء السياسى فى مصر عندما وصل إليها عام ١٩٤٦م.

هـ - وشكل الإمام البنا مع اللواء صالح حرب وعلوبة باشا «لجنة وادى النيل» لجمع المال والسلاح للمتطوعين فى حرب فلسطين.

و – وأخذت الجماعة تدرب شباب الجوالة فيها، وإذا تم تدريبهم أرسلتهم متطوعين لحرب اليهود فى فلسطين.

ز – وكان لبعض أفراد النظام الخاص جهد مشكور غير منكور فى التدريب وفى التطوع لقتال اليهود فى فلسطين.

ح – واقنعت الجماعة الجامعة العربية بقصر الاشتراك فى حرب فلسطين على المتطوعين إلى جانب الدعم السياسى والديبلوماسى، واستطاعت الجامعة العربية أن تقنع النقراشى باشا بذلك، ولكنه اشترط أن يتولى التدريب لهؤلاء المتطوعين أحد ضباط الجيش فوافقت الجماعة.

ط – ووصلت كتائب الإخوان إلى ميدان الحرب فى فلسطين واشتركت فى الحرب هناك ابتداء من شهر إبريل سنة ١٩٤٨م، وكان لكتائب الإخوان فى فلسطين أعمال وبطولات تحدث عنها الأولياء والأعداء، واستشهد منهم من نال إحدى الحسنيين.

ولعل ذلك أبرز الجماعة – أمام أعدائها – وما أكثرهم وما أكثر أنواعهم – فى مظهر الجماعة القوية التى تملك قوة مسلحة تستطيع أن تخوض ميادين القتال وهو أمر جعل الأعداء يتمالئون ضدها.

٧٠ – كان أبرز هذه الأحداث التى نحاول رصدها وتسجيلها هو صدور قرار من حكومة النقراشى باشا يقضى بحل الجماعة، بناء على توصية من مؤتمر عقده قناصل بعض الدول الغربية إنجلترا وفرنسا وأمريكا، وطلبوا فى هذه التوصية من السفير البريطانى أن يطلب من النقراشى رئيس حكومة مصر حل الجماعة ومصادرة أموالها وأملاكها واعتقال رجالها وتلفيق القضايا لهم، وتعريضهم لأشد أنواع التعذيب حتى ينصرفوا عن هذه الجماعة...

والعجيب أن الغافل التابع الذليل قد فعل، فصدر قرار الحل فى شهر ديسمبر عام ١٩٤٨م.

وبعد:

فذلك كان سرداً لكبريات الأحداث فى تاريخ الجماعة حاولت ما وسعنى أن أرتبه تاريخيا، وأظننى قد وفقت إلا فيما يستدركه علىّ من هو أقدر منى فى هذا المجال فأرحب به وأدعو له، وآخذ بتعديله مادام صوابا.

لقد رأيت فى كل حدث من هذه الأحداث صلة بمنهج الجماعة فى التربية وارتباطا بهذا المنهج فى نحو من الأنحاء ورأيت فى ذلك ثباتا من الإمام البنا على مبادئ الجماعة ما ثناه عنها تهديد أو وعيد.

ولا أدعى أن ذلك تأريخا للجماعة، لأنى لست من المؤرخين ولا تخصصت فى هذا المجال من العلم، وإن كان تخصصى فى الأدب تاريخه ونقده قريبا جدا من التاريخ، ولكننى أترك التأريخ للمؤرخين.

ثانى عشر: سيد قطب

هو: سيد قطب إبراهيم – ولد سنة ١٩٠٦م فى قرية من قرى محافظة أسيوط، من أسرة متدينة، تعلم فى مدرسة القرية ثم فى معهد المعلمين، ثم التحق بكلية دار العلوم، وقد حفظ القرآن الكريم صغيرا.

● وعند تخرجه عين مدرسا فى وزارة التربية ثم مفتشا، لكنه اشتغل بالأدب والكتابة والتأليف والنقد الأدبى فترة طويلة فى حياته هى التى ألف فيها معظم مؤلفاته الأدبية والنقدية مثل؛ قصصه:

– طفل من القرية،

– والأطياف الأربعة بالاشتراك مع أخيه محمد وأختيه حميدة وأمينة.

– وأشواك،

– والمدينة المسحورة،

ومثل دراساته النقدية ومنها:

– مهمة الشاعر فى الحياة،

– والنقد الأدبى؛ أصوله ومناهجه،

– ونقد كتاب: مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين.

– ونقد كتاب: هذه هى الأغلال لعبد الله القصيمى،

– ونقد رواية: خان الخليلى لنجيب محفوظ،

– ونقد كتاب: الملك أوديب لتوفيق الحكيم.

وغيرها.

● أما كتبه الإسلامية فكثيرة من أبرزها:

- العدالة الاجتماعية فى الإسلام،
- والسلام العالمى والإسلام،
- ونحو مجتمع إسلامى،
- وخصائص التصور الإسلامى،
- والإسلام ومشكلات الحضارة،
- وهذا الدين،
- والمستقبل لهذا الدين،
- ومعالم فى الطريق.

● ومن التحولات البارزة فى حياته أن نشر مقالاً فى أكتوبر سنة ١٩٤٦م انتقد فيه الحضارة المعاصرة، يمكن اعتباره البداية الفعلية للفكر الملتزم بالإسلام، وانتقد فيه المجتمع المصرى بجميع فئاته وأوضاعه السياسية والاجتماعية والأخلاقية، نقدا شديدا، وطالب المسلمين أن يقوموا بعمل مّا على الصعيد الإصلاحي العام، مؤكدا أن القرآن الكريم أمر بذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** (١٠٤) ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

● وأهم فترة فى تاريخ سيد قطب هى من سنة ١٩٥١م يوم آثر الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين ليشارك فى العمل الإيجابى الذى تقوم به الجماعة من أجل الإسلام، وليطبق عمليا ما دعا إليه فى مقالة «مدرسة للسخط» وما تحدث به فى كتابه «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» الذى صدر فى أخريات عام ١٩٤٨م.

● ومن سنة ١٩٥١م وقبلها بقليل عندما سافر فى بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة مناهج التعليم، حدث له تحول كبير فى نظرته للأدب وللحياة نفسها.

- فبعد أن كان يرى الأدب كسائر الفنون الجميلة لا علاقة له البتَّة بالدين، أصبح يدعو إلى أن تكون موضوعات الأدب جميعها نابعة من الإسلام بصورة مباشرة.
- وبعد أن كان - كغيره من الكتاب - يستهلم الروح الإغريقية وهو يكتب، أصبح يرى استلهام الروح الإسلامية، ويؤخذ مباشرة من الإسلام الذى يتميز بفلسفة خاصة به فى النظرة إلى الكون والحياة والإنسان.

- وأصبح سيد قطب ينتقد بشدة مجندى فكرة فصل الدين عن الدولة، أو إقصاء الدين عن السياسية، أو الأخذ بنظرية العلمانية التى أخذت بها تركيا وغيرها من بلاد المسلمين.

- وأصبح ينادى بأن يعمل الأزهر - المؤسسة العلمية التعليمية العريقة - على إيجاد ثقافة إسلامية شاملة متكاملة يتضح فيها المفهوم الخاص للإسلام فى الحياة الإنسانية بكل جوانبها، فليس هناك من هوأجدر من الأزهر فى القيام بذلك.

- وأصبح من أقوى المنادين بضرورة تطبيق مبادئ الإسلام عمليا فى الحياة اليومية، وهاجم بشدة كل من يعوق هذا التطبيق سواء أكان فردا أو جماعة أو حكومة، واتخذ من جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية منبرا يدعو منه إلى كل ما يريد أن يحققه(١).

● واعتقل سيد قطب سنة ١٩٥٤م وعذب وأهين كغيره من الإخوان المسلمين، ثم حوكم وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما مع الأشغال الشاقة قضاها فى: «ليمان طرة»، ثم تدخل الرئيس العراقى عبد السلام عارف فأفرج عنه سنة ١٩٦٤م.

● وبعد أن خرج سيد قطب من سجنه ألف كتابه «معالم فى الطريق» وهو كتاب دافع فيه بحرارة عما يدين به من منهج فى الإصلاح يستمد من الإسلام عقيدة وشريعة ونظاما، وهاجم فيه بضراوة كل معوق من المعوقات التى تحول دون ذلك.

وكان للكتاب دوى كبير أهاج عليه حكومة عبد الناصر أو عبد الناصر نفسه، إذ لم تكن له حكومة تملك إبداء رأى فى شىء!!!

● وفى عام ١٩٦٥م أُتهم الإخوان بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم، واعتُقل منهم ألوف مؤلفة، وقبض على سيد قطب وحوكم محاكمة ناصرية هازلة فأدين بعد التعذيب والإكراه، وحكم عليه بالإعدام، وأعدم فى عام ١٩٦٦م على الرغم من أن حشداً هائلاً من أهل العلم والرأى والمنصب والجاه ناشد عبد الناصر إعادة النظر فى حكم الإعدام(٢)، لكنه أبى ونفذ الحكم فعلا.

● وأما ثبات سيد قطب، فقد عبر عنه فى محنته؛ صبرا وشجاعة لانظير لهما، وعبر عنه وهو يساق إلى تنفيذ حكم الإعدام، وهكذا يكون الثبات على العقيدة والمبدأ.

---

(١) تولى سيد قطب رئاسة تحرير هذه الجريدة سنة ١٩٥٤م وظل فى ذلك المنصب حتى اعتقل فى أخريات سنة ١٩٥٤م مع الإخوان المسلمين عقب اتهام مجموعة من الإخوان بمحاولة قتل جمال عبد الناصر فى ١٩٥٤م.

(٢) من هؤلاء الأشخاص والمؤسسات: ولى عهد الأردن، ومفتى تونس والسيد علال الفاسى، وأحمد الخطيب، وفتحى يكن، وأمجد الزهاوى، وزعماء أحزاب: جامات إسلامى، ومجلس نظام الإسلامية، والجامعة الإسلامية، وجامعة عوامى، واتحاد الرابطات الإسلامية فى بريطانيا، والجمعية التأسيسية بالسودان.

الباب الثاني

شرح كلمة الإمام البنا فى الثبات

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أنواع الثبات. وفيه:

١ - ثبات الإيمان (ثبات القلب والعقل والجوارح).

٢ - والثبات على الحق والتواصى به والصبر عليه،

٣ - والثبات في الجهاد في سبيل الله (ثبات القدم)،

٤ - والثبات على العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتربية، والتمكين لدين الله تعالى.

الفصل الثاني: خلقيات الثبات وأدبياته

١ - الخلقيات التى تحكم الثبات وهي:

أولا: الاستقامة،

ثانيا: الصدق،

ثالثا: الإخلاص،

رابعا: الصبر،

خامسا: التوكل على الله تعالى.

٢ - الأدبيات التى تحكم الثبات وهي:

أولا: الرجاء والخوف،

ثانيا: المراقبة،

ثالثا: الورع،

رابعا: الطمأنينة.

الفصل الثالث: طبيعة الطريق فى العمل من أجل الإسلام،

وضرورة الثبات وفيه:

١ - طول المدى في هذا الطريق،

٢ - وتعدد المراحل فيه،

٣ - وكثرة العقبات.

نص كلمة الإمام البنا فى الثبات

قال رحمه الله فى «ركن الثبات» الركن السابع من أركان البيعة العشرة، ما يلى:

«وأريد بالثبات أن يظل الأخ عاملا مجاهدا فى سبيل غايته، مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحسنيين، فإما الغاية وإما الشهادة فى النهاية.

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والوقت عندنا جزء من العلاج، والطريق طويلة المدى بعيدة المراحل كثيرة العقبات، ولكنها وحدها التى تؤدى إلى المقصود مع عظيم الأجر وجميل المثوبة.

وذلك أن كل وسيلة من وسائلنا الستة[1] تحتاج إلى حسن إعداد، وتحين الفرص ودقة الإنفاذ، وكل ذلك مرهون بوقته ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) ﴾ [الإسراء: ٥١].

هذه هى الكلمات القليلة التى صدرت عن نظرة عميقة لهذا الركن السابع من أركان البيعة وهو الثبات.

وهذه النظرة العميقة شاملة؛ تناولت:

- أنواع الثبات،
- وأشارت إلى خلقياته وأدبياته،
- وأوضحت طبيعة الطريق التى يسلكها من يعمل من أجل هذا الدين العظيم.

وهذا ما سوف نشرحه ونحلله فى هذه الباب من الكتاب على مدى فصوله الثلاثة، سائلين الله تعالى العون والتوفيق والسداد.

---

(١) يقصد بهذه الوسائل: الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتضحية، والطاعة، وهى الأركان الستة التى سبق الحديث عنها.

الفصل الأول:

أنواع الثبات

● الثبات – كما أوضحنا معناه فيما مضى من هذا الكتاب – استقرار وصبر ودوام على موقف بعينه وعمل بذاته، مع تحمل لأى متاعب أو مشاق من شأنها أن تزحزح الإنسان عما يؤمن به من حق، وتحدّ لأى أمور تجعل المؤمن يفارق ثباته على الحق.

● والثبات – كما عرَّفناه – فضيلة من الفضائل الإنسانية التى يحبب فيها الإسلام، ويدعو إليها العقل، وتتطلبها الحياة الإنسانية الكريمة اللائقة بمكانة الإنسان بين مخلوقات الله تعالى.

وهذا الفصل من الباب الثانى من الكتاب نحاول فيه أن نفصل القول فى أنواع الثبات، تلك الأنواع التى تعددت لدينا إلى أربعة أنواع من حيث التقسيم الذى يزيد الأمور وضوحا، وليس من قبيل التقسيم العقلى الصارم الذى يخضع لمنطق ثابت.

وعلى سبيل المثال التوضيحى فإن الكلمة هى الكلمة وإن قسمها علماء النحو إلى: اسم وفعل وحرف.

والثبات هو الثبات وإن قسمناه نحن إلى ثبات إيمان، وثبات على الحق، وثبات شجاعة فى المعارك، وثبات على العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والتمكين لدين الله فى الأرض، وثبات من أجل المحافظة على هذا التمكين بعد الوصول إليه.

● كل هذه الأنواع من الثبات أشارت إليها كلمة الإمام البنا عليه رحمة الله تعالى، كما سنوضح ذلك فى الصفحات التالية من الكتاب.

وهذه الأنواع الأربعة من الثبات هى:

١ – ثبات الإيمان،

٢ – والثبات على الحق والطاعة، والتواصى بالحق والصبر عليه،

٣ - والثبات في الجهاد في سبيل الله؛ أي ثبات القدم في المعارك التي تكون لإعلان كلمة الله تعالى،

٤ - والثبات على العمل في مجالات: الدعوة والحركة والتربية من أجل الوصول إلى التمكين لدين الله في الأرض.

والله تبارك وتعالى هو المستعان.

١ - ثبات الإيمان

الإيمان - كما هو معروف - تصديق واقتناع داخلى عند الإنسان بعقيدة تملأ قلبه وعقله، وتدعوه إلى التمسك بذلك المعتقد والثبات عليه، والدفاع عنه ضد أى أذى يلحقه، أو أى شائبة تخالطه بما يخالفه أو يحزحزه عن مكانه فى القلب والعقل.

● وهذا الإيمان عند المسلم يقوم على دعائم عرفناها من السنة النبوية المطهرة هى:

- الإيمان بالله تعالى، وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وهى دعائم ست جاءت فى كلمات النبى ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر، ولايعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى....

قال: فأخبرنى عن الإيمان: قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت....» الحديث بتمامه فى صحيح مسلم فى كتاب الإيمان[(١)].

● والإيمان هو العمل بعد التصديق، لأن التصديق أول منازل الإيمان - وهذا هو مذهب أهل السنة - إذ قالوا: الإيمان تصديقٌ؛ أى قول باللسان يطابق ما فى الجنان، وعملٌ.

● والعمل الذى يترجم عن الإيمان ويدل عليه هو مفردات الإسلام وأركانه التى بنى عليها، وهى:

- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،

- وإقام الصلاة،

- وإيتاء الزكاة،

- وصوم رمضان،

- وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا.

(١) الإمام مسلم: صحيحه: كتاب الإيمان: ١/ ٢١ ط. عيسى البابى الحلبى - القاهرة - دون تاريخ.

● ومفردات الإيمان كثيرة، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة - أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

● وللإيمان طعم ومذاق لايحس به ولايتذوق حلاوته إلا من عمر قلبه بالرضا بالله تعالى ربًّا، والرضا بالإسلام دينا، والرضا بمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

فقد روى الإمام مسلم بسنده عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان مَنْ رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا».

● وهذا الإيمان بتلك الدعائم والشعب، وبهذا الطعم، يجب أن يثبت عليه المؤمن، ولا تزحزحه عنه الحادثات، لأن تزحزحه يعنى أنه قد ذهب، ليحل محله الشك والارتياب حينا، ثم قد يحل به الكفر بعد ذلك؛ فمن أجل هذا كان ثبات الإيمان ثباتا للإسلام وأركانه الخمسة، وثباتا على شعب الإيمان السبع والسبعين، وكان تذوقا لحلاوة الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

● ومعنى ذلك أن ثبات الإيمان هو ثبات القلب والعقل على عقيدة الإيمان، وثبات الجوارح كلها على ممارسة العمل الصالح الذى هو مقتضى الإيمان، وفى ذلك يقول الإمام البنا: «وأريد بالثبات أن يظل الأخ عاملا مجاهدا فى سبيل غايته...»؛ أى عاملا بمقتضى إيمانه، أى ملتزما فى عمله بمنهج الإسلام فى الحياة، والثبات على هذا الالتزام ينبغى أن يستمر مهما تعددت الصوارف أو كثرت أنواع التحدى الموجه إلى المؤمنين.

● وأكبر ما واجه الإيمان والمؤمنين من خطر على مَرّ التاريخ هو محاولات الكفر وأهله زعزعة المؤمنين عن إيمانهم تمهيدا للقضاء على الإيمان والمؤمنين.

● وأهم قضايا الإيمان والمؤمنين على مَرّ التاريخ أيضا هى قضية الثبات على الإيمان، برد أهل الباطل والضلال عن أهدافهم ومقاومتهم، وتلك قضية قديمة منذ أقدم أيام التاريخ، لا تزال هى قضية المؤمنين اليوم وفى كل يوم، وبخاصة فى ظل النظام العالمى الجديد الأحادى القطب والتوجه الذى تقود فيه الولايات المتحدة الأمريكية العالم كله غربه وشرقه غنيه وفقيره إلى تحقيق مصالحها أولا فى أى منطقة من مناطق العالم، كما تقوده إلى حظر ما تتوهم أنه يضرها أو يعوق مصالحها فى أى مكان فى العالم!!!

---

(١) لمعرفة هذه الشعب جميعا: انظر: البيهقى: مختصر شعب الإيمان. ط إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة: ١٣٥٥هـ.

- وهذا النظام العالمى الجديد يعلن صراحة أنه ضد الإسلام والمسلمين ويغالط عندما يزعم أن الإسلام يدعو إلى العنف والإرهاب؛ لأن مفكريه ومنظريه يعلمون بغير شك أنه دين السماحة والتسامح ودفع السيئة بالتى هى أحسن.

- هذا النظام العالمى الجديد الذى يتربص لكل نظام سياسي يعلن أنه يحتكم إلى شريعة الإسلام فيحاصره سياسيا واقتصاديا ويشوهه إعلاميا، ويتحداه ويتحدى مصالحه بكل ما أوتى من قوة وجبروت، ومثال ذلك عداؤه للجمهورية الإسلامية فى إيران ومن قبلها فى باكستان، وفى السودان، وفى الجزائر وتونس، وفى البوسنة والهرسك، وفى الشيشان، بحيث لايعطى الإسلاميين فرصة للتعبير عن منهجهم فى إصلاح بلادهم!!!

أ - محاولات الأعداء فى زعزعة الإيمان والثبات عليه.

● وسوف نستعرض هنا فى عجالة بعض محاولات الكفر وأهله فى زعزعة إيمان المؤمنين وصرفهم عن دينهم، وحملهم على تبنى الأفكار المعادية للإسلام والمسلمين، سواء أَعْلَنَتْ بعض الدول تبنى الشريعة الإسلامية والتزمت بها، أم لم تعلن ولم تلتزم - وإنما حسبها من الشر أن يكون سكانها من المسلمين!!

ولنضرب على ذلك مثالا ممعنا فى القدم، وهو فرعون مصر الذى كان أنموذجا حيًّا فى تحدى الإيمان وأهله، وزعزعة الإيمان تمهيدا لاقتلاعه من نفوس المؤمنين!!!

- وهو فرعون الذى عاصره موسى كليم الله - عليه السلام - إذ بدأ هذا الفرعون يلقى بذور الشك فى قلوب المؤمنين - كما تحكى آيات القرآن الكريم - حيث أعلن للناس أنه يفكر لهم بالنيابة عنهم، ويرى لهم ما يجب أن يراه بغض النظر عن موقفهم هم وآرائهم فى مصالحهم!!! جاء ذلك فى قوله تعالى عن فرعون: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)** ﴾ [غافر: ٢٩].

فسكت الناس ورضوا بأن يفكر لهم فرعون، أو قل غلبوا على أمرهم؛ إذ ألغى عقولهم، وحولهم عما يعتقدون أنه الحق؛ فأعجبه سكوت الناس ورضاهم بزعزعة إيمانهم - إلا قليل منهم - فزاد فى غروره واستبداده واحتقاره لمجموع المزعزعين، فجمعهم فى صعيد وأعلن فيهم ما هو أشد وأنكى من أن يفكر لهم، إذ أعلن أنه إله يجب أن يعبد! تحكى ذلك آيات القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤)** ﴾[النازعات: ٢٣، ٢٤].

● ومذهب فرعون سائد اليوم عند كثير من الطغاة المستبدين الذين يقولون للناس ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ ويمنعون المؤمنين من التعبير عن أفكارهم وعن منهج الإسلام الذى

يؤمنون به وبقدرته على الإصلاح.

● والنظام العالمى الجديد فى حقيقته طاغية مستبد يبيح لنفسه ما يحظر على غيره، ويتهم الآخرين بالعيوب التى يعانيها، ويلوم الناس على تجاهل حقوق الإنسان وإن كان هو ينتهك الإنسان نفسه، ويمنعه من الغذاء والدواء!!!

● النظام العالمى الجديد يعادى الإسلام والمسلمين فى كل مكان على وجه الأرض ويسلط عليهم من الأعداء من بنى جلدتهم وحكامهم وجيوش بلادهم ما لا قبل لهم بدفعه!!!

● وحسبنا دليلا على ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

– التضييق على المسلمين فى إيران بحصارهم اقتصاديا وعسكريا وتأليب دول أوروبا عليهم – بسبب ما أغروا به مغرور العراق من العدوان على الكويت – بحيث أصبحت إيران محاصرة بجيوش النظام العالمى الجديد التى بنت قواعد عسكرية فى دول الخليج المحيطة بإيران بحجة حماية دول الخليج من عدوان آخر من العراق!!!

– والتضييق على السودان بحصاره اقتصاديا، وسياسيا، بتحريش الدول المجاورة له ضده، وبتحريض متمردى الجنوب على الحكومة ومدّهم بالمال والسلاح، والتخطيط لمنع طائراته من التحليق خارج السودان.

– وعملية الإبادة التى دبرت للمسلمين فى البوسنة والهرسك ليقتلوا ويذبحوا وتسبى نساؤهم وتغتصب على أيدى الصرب الذين يؤيدهم فى تلك الوحشية النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا كلها وروسيا. ومع ذلك يتبجحون ويتهمون بعض الدول بانتهاك حقوق الإنسان، ويصرون على رفض تسليح المسلمين فى البوسنة لكى يدافعوا عن أنفسهم ولو كان هذا السلاح من دول مسلمة!!! فى الوقت الذى ينهال فيه السلاح على الصرب من أوروبا كلها!!!

أهناك عدواة أضْرَى من تسليح المعتدى وحرمان المعتدَى عليه من سلاح يدافع به عن نفسه!!!

ثم يكون الحل لمشكلة البوسنة على حساب المسلمين ولصالح الصرب والكروات، فيما عرف باتفاق «دايتون»!!!

– وتأييد إسرائيل تأييدا مطلقا فى كل ما تقوم به من عدوان على البلاد العربية بعد احتلالها لفلسطين وذبح أهلها وبقْر بطون نسائها، وطرد أهلها منها، وسجن الألوف منهم فى

سجون تطول فيها مدة سجنهم إلى مدى حياتهم!!!

والتهاون مع إسرائيل فى عدم تطبيق قرارات مجلس الأمن أو قرارات الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة!!!

وإصرارهم على أن تكون إسرائيل وحدها أقوى فى التسلح من كل العرب مجتمعين ومَدّها بالمال منحة لها دون أن يُرَدّ!!! وإقراضهم لبعض الدول العربية الصديقة لهم بأبهظ الفوائد وأقسى الشروط!

وتأييد إسرائيل بل تشجيعها على إنتاج القنابل الذرية، مع حظر ذلك على أى دولة عربية، وكلما باعتهم طائرة مقاتلة حظرت عليهم استعمالها إلا بموافقتهم ومنعتهم من قطع غيارها إلا بأقسى الشروط وأبعدها عن العدالة!

– والقضاء على الفلسطينيين معنويا وماديا بإذلالهم فى توقيع اتفاقيتى مدريد وأسلو؛ لأنها فى صالح إسرائيل وضد مصلحة الفلسطينيين، وكلما أرادت إسرائيل أن تمارس عدوانا أو ظلما على الفلسطينيين بعد هاتين الاتفاقيتين، أرسلت أمريكا مبعوثها «دينس روس» لإقناع الفلسطينيين بوجهة نظر إسرائيل وتيئيسهم من رفض مشاريع إسرائيل الظالمة من الاستيطان والاستيلاء على البقية الضئيلة الباقية من أرض فلسطين، فإذا تجاسر الفلسطينيون ورفضوا وأدانوا إسرائيل فى مجلس الأمن، واتخذ مجلس الأمن قرارا ضد إسرائيل سارعت أمريكا باستعمال حق «الفيتو» – الاعتراض – على هذا القرار! هكذا دون حياء من الحق ولا من العدل، ولا ممن تزعم أنهم أصدقاؤها من العرب!!!

– وتأييد الروس فى القضاء على مسلمى الشيشان، ومنعهم من الاستقلال فى حين مُنِحتْ دول كثيرة غير مسلمة استقلالها بعد انفراط عقد الاتحاد السوفيتى السابق – أما المسلمون فى الشيشان فلا وألف لا!!!

● فهل بعد ذلك – وهو قليل من كثير – من دليل على أن النظام العالمى الجديد – وعلى رأسه أمريكا – عدو للإسلام والمسلمين!!! إن أحد وزراء فرنسا قال – عند اقتراح إرسال جنود للمحافظة على السلام فى البوسنة – ولماذا نرسل جنودنا للدفاع عن المسلمين؟! هكذا يفكر الغرب المنساق وراء النظام العالمى الجديد، متناسيا ما يطلقونه من شعارات كاذبة عن حقوق الإنسان وعن الحرية والمساواة والإخاء!!!

● ثم كيف أصبحت الجيوش فى كثير من بلدان العالم الإسلامى تصرح بعدائها للإسلام

والمسلمين، على الرغم من وجود حكومات وأنظمة يقولون عنها إنها ديموقراطية!!!

ما للمؤسسات العسكرية وعداء الإسلام والمسلمين فى بلاد المسلمين!!! بماذا تفسر مواقف هذه الجيوش فى تحدى الإسلام والمسلمين؟!

- إن المؤسسات العسكرية فى تلك البلاد هى التى ضربت الإسلاميين وحالت بينهم وبين ممارسة حقوق المواطن فى وطنه(١).

- ومن الذى يدبر هذه الانقلابات العسكرية فى بلاد المسلمين؟ ومن الذى يخطط لهؤلاء العسكر لكى يحاربوا الإسلام والمسلمين؟

- إن هذا النظام العالمى الجديد يمارس ضغوطا رهيبة على المسلمين فى كل مكان لكى يزعزع إيمانهم، ويحول بينهم وبين الثبات على الإيمان، وإذا ضاع الثبات على الإيمان فقد المسلمون القدرة على كل مقاومة لأعدائهم، وهذا هو هدف الأعداء.

- إن الأمة الإسلامية - على مرّ تاريخها - ضربت أروع الأمثال فى الثبات على الحق وعلى الإيمان بالله تعالى وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

- كان للأمة الإسلامية هذا الثبات منذ الخطوات الأولى للإسلام على أرض مكة، يوم كان بلال رضى الله عنه يفتن عن دينه بالتعذيب والتنكيل، فى رمضاء مكة وهجيرها، بوضع الحجر الكبير على صدره، ويُجَر بحبل فى طرقات مكة ليعبث به صبية الكفار، ولكنه على الرغم من ذلك كله ثبت على دينه وأخذ يردّد - والعذاب يحيط به من كل جانب - «أحدٌ، أحدٌ»؛ أى لايعبد إلا الله وحده مهما فعل الطغاة به ليصرفوه عن دين الحق. إنه الثبات على الإيمان وعلى الحق.

- منذ ذلك الزمان وعلى مرّ التاريخ حتى اليوم، وللأمة الإسلامية نماذج مشرفة رائعة فى مجال الثبات على الحق وعلى الإيمان - وقد ضربنا على ذلك الأمثال بالإمام أحمد، وابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، بل فى عصرنا الحديث كان للأمة الإسلامية مواكب للشهداء فى سبيل الله ثابتين على الحق لم يستطع شيء أن يزحزحهم عما يؤمنون به، وحسبنا فى هذا المجال:

عبد الحميد بن باديس،

---

(١) ومثال ذلك ما حدث فى الجزائر وليبيا وسوريا والعراق ومصر - فى حكم مجلس قيادة الثورة - وتركيا الآن التى تتحدى رئيس وزرائها لأنه إسلامى التوجه - على الرغم من أنه تولى رئاسة الوزراء بعد نجاحه فى انتخابات حرة شهد بها القاصى والدانى.

وعز الدين القسام،

وسعيد النورسى،

وحسن البنا،

وسيد قطب.

وعشرات بل مئات الشهداء بأيدى الغدر الإسرائيلية، فضلا عمن لقوا ربهم شهداء فى ميادين القتال ضد اليهود ثابتين على الحق وعلى الإيمان!!!

● إن الإمام البنا - رحمه الله - أراد أن يوقظ هذه المعانى الشامخة فى الثبات، وفى الإصرار على التمسك بالحق، عندما قال: «وأريد بالثبات أن يظل الأخ عاملا مجاهدا فى سبيل غايته....»؛ أى يظل ثابتا على إيمانه عاملا بمنهج ربه، حتى يحقق النصر على عدوه أو يمضى إلى ربه شهيدا قد حقق إحدى الحسنيين بل أفضلهما وهى الجنة.

ب - نتائج زعزعة الثبات:

● وبعد: فما يحدث إذا لم يكن ثبات؟

إن آثار فقد الثبات خطيرة على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة الإسلامية كلها، ومن هذه الآثار ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- عندما لايكون ثبات يتزعزع الإيمان، وعندما يتزعزع الإيمان فلا يصح عمل، ولا تكون هناك طاعة لله ورسوله، وبالتالى فلا التزام بأى قيمة دينية ولا خلق فاضل، وذلك أن العمل الصالح وطاعة الله ورسوله، والقيم الدينية الرفيعة والأخلاق الفاضلة التى دعا الإسلام إلى التمسك بها، كل ذلك لايوجد إذا لم يكن هناك ثبات على الإيمان، لأن الإيمان هو الذى يدعو إليها ويأمر بها وبالثبات عليها فى السراء والضراء.

● أما القائلون بأن القيم الخلقية هى ما كان ملائما للمجتمع سواء أكان هذا المجتمع «رأسماليا» أم اشتراكيا أم شيوعيا، أم بغير مذهب اقتصادى أو سياسى...

والقائلون بأن القيم الخلقية نابعة مما تعارف عليه أفراد مهنة بعينها، أو طائفة بعينها..

والقائلون بأن القيم الخلقية نظام متكامل يتكون من السمات أو الخصائص العقلية التى تميز شخصا ما، وتتيح له أن يسلك سلوكا يلائم ذاته إزاء المواقف المتعددة التى يمر بها...

- كل هؤلاء يحتاج كلامهم ذاك إلى نظر يؤدى بالضرورة إلى رفض كثير مما يقولون، يرفضه المسلم الذى يفهم دينه ويعرف القيم الخلقية التى جاء بها هذا الدين الخاتم الذى أتمه الله وأكمله ورضيه للبشرية كلها دينا.

- والأخلاق التى جاء بها الإسلام هى ما تضمنه القرآن الكريم وما فصلته السنة النبوية المطهرة، تلك الأخلاق التى دعا الإسلام إلى التحلى بها أمراً أو ندبا، وهى التى تحقق للمتحلى بها حسن التعامل مع نفسه ومع خالقه سبحانه وتعالى، ومع أهله وذويه ومع المجتمع كله، بل مع العالم بأسره مسلمين وغير مسلمين، ولا عجب فى ذلك لأن القرآن الكريم كما وصفه الله تعالى يهدى لأحسن الأخلاق وللطريق التى هى أقوم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ... (٩) ﴾ [الإسراء:٩][١].

● وإذا ضاع الالتزام بالقيم الخلقية، فلا أَمْن فى المجتمع، ولا عدالة، ولا حرية، ولا فضائل... وإنما يسود الناس ما أحسسنا به وذقنا مرارته من القيم الخلقية التى تسود النظام العالمى الجديد الآن، أو تلك القيم الخلقية التى كانت تتبناها هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، أو تلك التى كانت تسود عصبة الأمم من قبل، وهى أخلاق أقل ما توصف به أنها غير عادلة، وأنها تكيل بمكيالين أحدهما للقوى أو الغنى والآخر للضعيف أو الفقير، وأقل ما تفصح عنه هذه القيم أنها تستغل الضعيف أو الفقير لصالح القوى أو الغنى، ولا تعرف للحق طريقا إلا أن يكون فى هذا الحق تحقيق لمصالحها؛ والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى؛ ومراجعة قرارات مجلس الأمن وتعامل الدول الكبرى الطاغية مع حق الاعتراض «الفيتو» يؤكد هذا الانحراف عن الحق.

- وما مارسته هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها مع دول العالم الثالث أو النامى أو الفقير -وهى تسميات ظالمة جائرة - أو تعاملها مع دول العالم الإسلامى بوجه خاص، يؤكد أنها هيئة الأمم المتحدة ضد الدول الضعيفة حتى تقضى على اقتصادها وسياستها وتكبلها بالديون الغاشمة والفوائد الظالمة المبيرة لمستقبلها، ويؤكد أنها كالنظام العالمى الجديد هيئات أو مؤسسات أنشئت لتزيد القَوىَّ قوة وتزيد الضعيف ضعفا، وتجعل من الغنى وحشا مرابيا، ومن الفقير فريسة تساق إلى ذبحها وسلخها وأكلها لحما وعظما!!!

---

(١) للتوسع فى معرفة أخلاق القرآن؛ انظر للمؤلف «التربية الخلقية» من سلسلة مفردات التربية الإسلامية. دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

● وليس أحب إلى الظالمين والمستبدين وهيئاتهم ومنظماتهم، وأنظمتهم العالمية من أن يزعزعوا إيمان المؤمنين، لتضطرب أخلاقهم وتضيع فضائلهم، فعندئذ يزداد الظالم ظلما والمستبد استبدادا، والمستغل المرابى الشره استغلالا ووحشية وشراهة.

– لهذا يحرص الظالمون والمستبدون على زعزعة الإيمان فى قلوب المؤمنين ويتخذون من أجل تحقيق هذا الهدف وسائل وأساليب تكاد تكون تقليدية فى كل عصر يسوده الظلم والاستبداد، ومن ذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى، ولكن المؤمنين يستطيعون مقاومة هذه الأساليب – بتوفيق الله تعالى –:

أولا:

مقاومة الإرهاب الفكرى والإعلامى.

وذلك لتخويف المؤمنين وزحزحتهم عن إيمانهم. ولهذا النوع من الإرهاب وسائله وأساليبه التى تبدأ بالكلام والإعلام الكاذب المخادع المخوف المتوعد، ويمر بإرهاب الفكر، وحرمان المؤمنين من الإيمان بما يعتقدون أنه الحق، مستهزئين بالإيمان بالغيب، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ووصف المؤمنين بالرجعية والتخلف والجمود، وكل تلك عندهم صفات التدين.

وكثيرا ما يصحب هذا الإرهاب الإعلامى الفكرى حملات ضارية من السخرية بالدين، ومن إباحة الفسق والفجور، والزنا واللواط والشذوذ وعقوق الوالدين، والزراية بالأسرة والمتاجرة بالمرأة. وما يزعم لها من حقوق عندهم؛ هى فى الواقع قيود وعبودية ورق، بحيث أصبحت المرأة فى ظل تلك الحقوق المزعومة تشارك الرجل فى العمل والكدح والإنفاق على البيت، ولا يشاركها الرجل فى أعمال البيت ولا فى حضانة الأطفال والسهر عليهم!!!

وثبات الإيمان هو الذى يمكن المؤمنين من مقاومة هذا الإرهاب الفكرى الإعلامى.

ثانيا:

مقاومة الإرهاب الوحشى العملى.

وهذا النوع من الإرهاب يأخذ أشكالا عديدة تجمع بينها جميعا وحشية التعامل مع المسلمين الثابتين على إيمانهم، ويتدرج هذا الإرهاب من حرمان من التعبير، ومن حظر على حرية السفر والتنقل، ومتابعة ومراقبة وإحصاء وتصنيف، إلى حرمان من تقلد الوظائف الهامة كالتدريس والقضاء والعمل فى صفوف القوات المسلحة وقوات الشرطة.

ومن هذا الإرهاب الحرمان من الحقوق السياسية، ولا ينتهى مسلسل هذا الإرهاب إلا بالاعتقال والسجن والمحاكمات العسكرية، والإدانة بالإكراه، فضلا عن التعذيب الوحشى الذى لايليق بإنسان!!!

ومنه مصادرة الأموال والممتلكات، والمكتبات، والكتب واضطهاد الأقرباء فضلا عن الأبناء والآباء.

هذا هو الإرهاب الوحشى الذى له فنون وأشكال لانستطيع أن نفصل القول فيها فى هذا المجال وإلا خرجنا عن موضوعنا، وإنما حسبنا أن نقول إنه أسلوب لزعزعة الإيمان، وحرب للثبات على الحق.

وثبات الإيمان هو الذى يحول بين المؤمن وبين الوقوع فى براثن الإرهاب العملى المتوحش.

ثالثا:

الاستعلاء على المساومات.

وهى نوع من الإرهاب كذينك النوعين، والمساومة عند الظالمين والطغاة تعنى أن تكون على رأى الظالم وفى صفه - مع أنه بظلمه بعيد عن الحق - أو تدفع الثمن الباهظ الذى لايتحمله أحد، إذ قد يكون الحياة نفسها.

وهدف المساومة واضح وهو زعزعة الثبات على الإيمان والتنكر للحق وأهله فى مقابل دنيوى حيناً، أو فى مقابل الكف عن ظلم من يساومه وإعطائه بصيصا من حرية.

وعلى فرض أن الذى سووم قد استجاب للمساومة ونقد ثباته على الإيمان والحق، وأعطى مقابلاً لتلك الاستجابة، فإنه يظل موضع شك وارتياب، وقلما يحصل على ثقة الظالم الطاغية أو يكون محلاً لرضاه!!!

والنتيجة أن من يقبل المساومة يخسر ثباته على دينه أولا، ثم يخسر حطام الدنيا الذى ناله، ويخسر بكل تأكيد من ساومه؛ إذ لا احترام لمن لم يثبت على الحق والإيمان.

والظالم الطاغية دائما يقول فى نفسه: إذا قبل أحد من الناس أن يتحول إلىّ بأعراض دنيوية أو بتهديد، فإنه لابد أن يتحول عنى أو علىّ إذ عرض عليه ما هو أكثر، أو هُدِدَّ بما هو أشد!!!

وإذا كان هذا هو موقف الطاغية المستبد، فما موقف مَنْ قبل المساومة؟

وما موقعه ممن ساومه فى هذه الحياة الدنيا التى هى عرض زائل، ونعيم حائل؟

● والتجاوب مع الظالم المستبد وقبول ظلمه أو الرضا عنه، يعنى زعزعة الإيمان وفقد الثبات على الحق، وذلك يؤدى بالضرورة إلى نفاق الظالم الطاغية، والتحول إلى صفوف أتباعه، حيث يصبح من الأبواق التى ينفخ فيها الظالم فتدوى بما يريد، ولو قبل ذلك فإنه سريعا ما يتحول إلى لسان يشيد بالطاغية ويبرر أعماله الغاشمة، وربما قنَّن ما يمارس من ظلم، والتاريخ شاهد على أولئك المتحولين من الحق إلى الباطل ومن الهدى إلى الضلال، ومن أولياء الله إلى أعدائه.

● وزعزعة الإيمان فى نفوس المؤمنين، تعنى استمرار الظلم وغياب العدل، وما يترتب على ذلك من هضم للحقوق وهدر للحريات، وانتشار للفساد والرّشا، وإخلال بالأمن الذى يجب أن يحس به الناس جميعا فى أوطانهم.

ويترتب على ذلك من أنواع المفاسد ما لا نستطيع هنا أن نحصيه، وحسبك شرا بالثراء غير المشروع، واستغلال النفوذ، والانتفاع والتربح من وراء الجاه والسلطان!!! ولاسبيل إلى مقاومة هذه المساومات إلا ثبات الإيمان والتمسك بالحق.

● وبهذا يكون الظالم الطاغية فى حربه للإيمان والثبات عليه يرتكب أعمالا معروفة ويمارس تضليلا وبهتانا، ويعود الناس أن يظلم بعضهم بعضا وأن يطغى بعضهم على بعض، ويكون موقف المؤمن من هذا الظالم الطاغية معروفاً أيضا، وهو رفض الظلم ومقاومة الظالمين ومواجهة الطغاة، باللسان واليد مهما بلغت التضحيات، حتى لو كانت تضحية بالنفس. ويستثنى من تلك القاعدة أن تكون مقاومة الظالم مؤدية إلى فتنة، فعندئذ يكفى إنكار القلب وذلك أضعف الإيمان، تلك القاعدة الشرعية قررتها السنة النبوية المطهرة فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف يقولون ما لايفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون؛ فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وروى مسلم أيضا بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكر فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وبعد : فإذا كانت هذه هي نتائج زعزعة الثبات على الإيمان والحق وهي نتائج وخيمة، فما هي نتائج الثبات على الإيمان والحق؟

ذلك ما نحاول توضيحه فيما يلي، والله المستعان .

جـ- نتائج الثبات على الإيمان .

الثبات على الإيمان له من الفوائد ما لا يُقَادر قَدْرُه، إذ هو أساسي وجوهري للمحافظة على خيري الدين والدنيا معاً، وعلى سبيل المثال فإنه يحقق الفوائد التالية :

أولا :

الاحتفاظ بالإيمان قويا ثابتا .

وهذا الاحتفاظ بالإيمان على هذا النحو ضروري لكل إنسان ضرورة نفسية عقلية اجتماعية، فلا يستطيع إنسان أن يعيش حياته آمنا مطمئنا إلا إذا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وإلا عاش قلقا مضطربا حائرا ضائعا، لايدري لماذا جاء لهذه الدنيا، ولا لماذا يعيش فيها، كما ينادي غير المؤمنين بقوله : لستُ أدري!!!

● أما المؤمن فإنه يدري كل ما يحيط به بنور إيمانه وهدى محمد ﷺ له .

- فهو يدري أنه خلق وجاء في هذه الدنيا لهدف ووظيفة،

- وهو يدري أن الله تعالى خلقه بل فضله على كثير ممن خلق،

- ويدري أن الله تعالى كلفه بتكاليفه عندما فارق الطفولة ودخل مجال الرجولة والعقل، فأمره بعبادته وفق ما شرع،

- ويدري أن الله تعالى أمر باتباع رسله الذين ختمهم بمحمد ﷺ وأنزل إليه القرآن الكريم وأمر باتباعه فيما أمر وفيما نهى، وما أمر إلا بخير ولا نهى إلا عن شر .

- ويدري أن الله تعالى جعل الجنة مأوى للطائعين وجعل النار مَثوىً للعاصين .

● ويا ضيعة من ليس يدري هذه الحقائق!!!

ثانيا :

المحافظة على العبادات .

وتلك العبادات تعود بالنفع في الدنيا والآخرة على الإنسان المتعبد، بشرط أن تكون

العبادة وفق ما شرع الله، وسليمة صحيحة، خالية من كل خلل، والإنسان العابد لله هو الذى يجيد الالتزام بمنهج الله فى الحياة، ويعتز بالانتماء إلى هذا المنهج ويعرف أنه تلقاه عن الله تعالى بوساطة خاتم رسله محمد ﷺ، وأن الالتزام بهذا المنهج فى كل أمر من أمور الحياة فيه سعادة الدنيا والآخرة.

والإنسان بغير عبادة الله تعالى لايمكنه أن يؤدى وظيفته فى الحياة الدنيا، لأن تلك الوظيفة هى عبادة الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [**الذاريات**: ٥٦].

وبغير ثبات على الإيمان فلا عبادة لله، أى لا وظيفة للإنسان فى الحياة الدنيا، ولا ثواب له فى الحياة الآخرة.

ثالثا:

المحافظة على أداء العمل الصالح.

والعمل الصالح هو الترجمة عن الإيمان الصحيح والعبادة السلمية؛ إذ هو امتثال ما أمر الله تعالى به، واجتناب ما نهى عنه، وفعل الخير والكف عن فعل الشر، والإحسان بمعناه العام [١]، رجاء الفلاح عند الله تعالى، فقد روى ابن حبّان بسنده عن جابر بن سليم الهجيمى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة ولايحبها الله، وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بأمر ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه، ودعه، يكن وباله عليه وأجره لك، ولا تَسُبَنَّ أحدا».

وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب».

---

(١) الإحسان بمعناه العام يشمل: الإحسان إلى الله بعبادته وفق ما شرع، والإحسان إلى النفس بإلزامها بشرع الله والإحسان إلى الناس بإيصال الخير لهم، والإحسان بمعنى تجويد أى عمل يقوم به الإنسان وإتقانه، وفى كل ذلك وردت أحاديث نبوية شريفة.

فتلك أنواع من العمل الصالح أوضحها رسول الله ﷺ فى هذين الحديثين، وقد حفلت السنة النبوية بعشرات الأحاديث المماثلة.

وممارسة العمل الصالح تعنى الثبات على الإيمان والاستمرار على أداء العمل الصالح.

رابعا:

المحافظة على القلب عامرا بالإيمان

وذلك أن قلب المؤمن لايجوز أن يكون غافلا، ولا يفارق القلب الغفلة إلا إذا عمر بالإيمان وبالأعمال الصالحة التى تزيد الإيمان وتقويه.

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لايستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل».

وبالإيمان والثبات عليه لا تكون غفلة القلب.

وهذه القلوب التى يجب أن تكون عامرة بالإيمان، إنما تكون أحبّ إلى الله تعالى إذاكانت لينة رفيقة؛ لأن غلظ القلوب وقسوتها مما نهى عنه الإسلام وحذّر من الإنصاف به، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** [آل عمران: ١٥٩].

وروى الطبرانى بسنده عن ابن عنبة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها ألينها وأرقها».

وروى الديلمى -فى مسند الفردوس -بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبدخيراً جعل له واعظا من قلبه».

وهذا الواعظ ليس إلا الإيمان الذى يعمر به قلب المؤمن. وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قوله: إن لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب، فأحبها إليه تعالى؛ أرقها وأصفاها وأصلبها. ثم فسّره فقال: أصلبها فى الدين، أصفاها فى اليقين، وأرقها بين الإخوان.

- إن القلب العامر بالإيمان نقى من الغلّ والحسد، برىء من الحقد، خال من الشوائب التى تعكر القلب وتطرد الإيمان، إنه القلب الذى يحب الخير لنفسه وللناس فى أسرته

ومجتمعه بل العالم كله، إنه القلب الذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، فيقبل على طاعة الله تعالى.

وما يكون ذلك إلا بالثبات على الإيمان.

خامساً:

المحافظة على سلامة التفكير واستقامته

الثبات على الإيمان سبب فى سلامة التفكير عند الإنسان واستقامته، لأن الإيمان يُعَلِّم التفكير الصحيح السليم، والقلب والعقل يترادفان فى كثير من آيات القرآن الكريم وفى كلمات السنة النبوية المطهرة.

● وإذا كان عمل العقل هو الفهم والتصور وإدراك الوازع الأخلاقى، وإدراك ما يحيط بالإنسان من أمور، والتأمل فيما يدركه، والرشد والهدى والصلاح، إذا كان ذلك عمل العقل كما هو معروف ومقرر بين العلماء؛ فإن الإيمان الثابت يحذر العقل من الأعمال التى تضره وتسىء إليه مثل: تقليد السابقين دون تفكير، والاقتداء البليد بأصحاب السلطة والجاه، والخوف من أصحاب السلطة الدنيوية.

● وفى إعمال العقل وتعويده التفكير السليم الصحيح، وتحذيره من العيوب والآفات التى تضره، وردت آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة(١)، وهذه النصوص الإسلامية هى روح الإيمان فيما تدعو إليه وفيما تنهى عنه، بل فيما تندب إليه أو تكره فيه.

ولا يستقيم تفكير الإنسان ويسلم من الآفات إلا إذا استجاب لما يدعوه إليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فالإيمان والثبات عليه يجنب الإنسان شطحات التفكير التى قد ترد به، وتصل به إلى المهاوى، أو تضله وتصيبه بالحيرة والقلق على أقل تقدير.

والإيمان الصحيح هو الذى يدعو صاحبه إلى التفكير الصحيح فيفتح له مجال الاجتهاد وحرية الرأى والاستماع الجيد إلى الرأى الآخر.

والإيمان هو الذى يحمل المؤمن على ترك التقليد، ويعلن أن الإيمان تقليداً للآخرين لا

---

(١) انظر فى ذلك للمؤلف: «التربية العقلية» من سلسلة مفردات التربية الإسلامية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

يكفى ولا يصلح، وإنما هو جمود على ما كان عليه السابقون وهو مرفوض دائماً.

والإيمان الثابت هو الذى يتيح للمؤمن حرية النقد لأى موقف لا يراه صحيحا فيحاور ويناقش حتى يتبين له الحق، ويعطيه حرية الاعتراض كذلك(١).

● إن صحة التفكير واستقامته إنما تكون من خلال النظر فى تاريخ الأمم الماضية مؤمنهم وكافرهم، ومن خلال التدبر فى ملكوت السموات والأرض، والتدبر فى القرآن الكريم، وكل ذلك مما يدعو إليه الإيمان، ولا يخرج هذا النظر والتأمل والتدبر إلى حيز الوجود الفعلى إلا بالثبات على الإيمان.

ولا يستطيع الإنسان أن يحيا حياته الإنسانية الكريمة إلا إذا فكر تفكيراً صحيحاً مستقيمًا فى كل ما يحيط به من ناس وأشياء، ولا يعينه على ذلك إلا إيمانه بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

سادسًا:

اكتساب الفراسة

والفراسة مهارة فى تعرف بواطن الأمور من ظواهرها وهى صفة من صفات المؤمن، ولا يكسب هذه الصفة ويعين عليها مثل الإيمان والثبات عليه.

والفراسة وضوح للرؤية بالنسبة للمؤمن فيما يحيط به من ناس وأشياء وأحداث، حيث ينظر إلى ذلك كله نظرة مستهدية بنور الله الذى بعثه الإيمان فى قلبه وعقله وروحه ونفسه(٢).

وقد روى البخارى – فى تاريخه– وروى الترمذى فى سننه بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل».

● بل إن الإيمان يجعل المؤمن ينطق بتوفيق الله فلا يقول كلاما إلا أن يأتى هذا الكلام صائبًا ونافعًا، لأن الله تعالى قد عمر قلبه بالإيمان وهداه إلى ما يقول وما يعمل؛ فقد روى ابن

---

(١) انظر للمؤلف: التربية العقلية، مرجع سابق.

(٢) هذه الكلمات الأربع: القلب والعقل والروح والنفس تتبادل المواقع والمواضع فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مما يدل على أنها مترادفة أحيانًا ومتقاربة دائمًا.

جرير بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، وينطق بتوفيقه».

والإيمان الثابت الذى عمر القلب هو الذى يجعل صاحبه موفقا فى نظره للناس والأحداث والأشياء، وموفقا فى كل كلمة ينطق بها لسانه، وفى كل عمل تقوم به جوارحه، وما أسعد من حالفه توفيق الله تعالى.

● إن المؤمن الموفق يزرع الخير فى الحياة الدنيا، ليحصد الخير فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

سابعاً:

الاستمرار فى ممارسة الدعوة إلى الله

ثبات الإيمان والقلب على الحق يحفز بل يوجب الاستمرار فى الدعوة إلى الله تعالى دون توقف أو تراخ أو فتور؛ وذلك أن الدعوة إلى الله قد يجهلها كثير من الناس إذ يحسبونها واجب العلماء بالدين الإسلامى وحدهم، وذلك وهم وزيغ عن الفهم الصحيح لوجوب الدعوة إلى الله على كل من كان على بصيرة بما يدعو إليه، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ... (١٠٨)﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقد أوسعنا هذا الموضوع بحثا ودراسة فى أكثر من كتاب لنا- وكان ذلك من فضل الله وتوفيقه[1].

● وبغير الاستمرار فى الدعوة إلى الله تضيع على المسلمين فوائد كثيرة من أهمها:

- أن يضيع على المسلمين انضمام مهتد إليهم بهذه الدعوة بعد أن كان هناك حائراً لا يعرف طريقه.

- وأن يضيع على المسلمين اهتداء غير مسلم إلى الإسلام.

- وأن يضيع عليهم فقه أحد المسلمين للدعوة إلى الله.

● إن الدعوة إلى الله هى الوسيلة المثلى لزيادة عدد المسلمين وزيادة عدد المهتدين، أى زيادة عدد الذين يحبون الخير للناس جميعاً، وزيادة عدد الذين يحببون الناس فى فعل الخير.

● والدعوة إلى الله فى جانب هام من جوانبها هى أمر بكل معروف لكل أحد، ونهى عن كل

---

(١) من أهم الكتب وأوسعها كتابنا: «فقه الدعوة إلى الله» فهو كتاب موسع من جزءين فى أكثر من ألف صفحة - نشر دار الوفاء- ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ط ثالثة.

منكر لكل أحد، وحسبنا بمجتمع يأتمر أهله بالمعروف ويتناهون عن المنكر!!

ثامنًا:

الإقبال على الفهم والإخلاص والعمل وسائر أركان العمل من أجل التمكين لدين الله تعالى

ثبات الإيمان واستقراره يؤدى بل يحبب المسلمين فى ممارسة مفردات العمل من أجل الإسلام- وهى أركان البيعة العشرة التى جعلناها موضوع هذه السلسلة- من فهم وإخلاص وعمل وجهاد وتضحية وطاعة وتجرد وأخوة وثقة.

وهذه المفردات لابد منها ليستمر العمل ويتواصل من أجل التمكين لدين الله تعالى.

● ولولا الثبات ما بذل جهد فى فهم ولا استهدف إخلاص ولا كان عمل، ولا مورس جهاد فى سبيل الله، ولا حببت إلى الناس تضحية، ولا كانت طاعة على أى مستوى من مستوياتها، ولا استعذب تجرد لله ولدعوته، ولا أثمرت أخوة، ولا كانت ثقة بين جندى وقائد، أى لم يكن هناك عمل من أجل التمكين لدين الله تعالى، هذا التمكين الذى هو هدف كل مسلم مؤمن ثابت على إيمانه صابر محتسب لكل ما يلقى فى سبيل تحقيق هدفه.

تاسعا:

دعم الأخوة فى الدين

التآخى بين المسلمين فى الدين هو الأصل الذى يقوم عليه الإيمان كله، فليس بمؤمن من لم يؤاخ أخاه فى الدين، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴿١٠﴾ ﴾ [**الحجرات**: ١٠]، والمعنى - كما قال المفسرون لكتاب الله تعالى، ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خُلَّص لذلك متمحضون.

وقد جمع الإيمان بين المؤمنين فصيرهم إخوة، كإخوة النسب بل أقوى وأبقى، فقد عقد الإيمان بينهم من السبب القريب والنسب اللاصق ما يجعل الأخوة فى الدين أحق بكل رعاية وعناية.

● والأخوة بين المؤمنين قوة لكل أحد فيهم، لأنهم بغير الأخوة فى ضعف وضياع، وهم بالأخوة كالبنيان يشد بعضه بعضا، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى رضى

الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

- والإيمان بالله والثبات عليه هو الذى يدعم الحب والصفاء بين المؤمنين، ويجعل هذا الحب فى الله ومن أجله، وهم بهذا الحب فى الله يفوزون بأعظم المنازل عند الله تعالى، فضلا عما يضفيه عليهم الحب فى الله من قوة ومهابة فى الدنيا.

- وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله».

فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى نبى الله ﷺ، فقال يا رسول الله: ناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجاسلهم وقربهم من الله؟ انعتهم لنا، فسر وجه رسول الله ﷺ لسؤال الأعرابى، فقال ﷺ: «هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوهم نوراً وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله تعالى، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

● والمؤمنون بغير أخوة فى الدين ليسوا المؤمنين الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾، ولا يدعم هذه الأخوة ويثريها كالإيمان والثبات عليه[1].

عاشرا:

الصبر على التحدى والتواصى به

إن الثبات على الإيمان بثبات القلب على الحق هو الذى يوجب على المؤمن صبرا واحتسابا على كل ما يلقى من أعدائه من أجل هذا الدين من تعنت وتحدٍ شديدين.

وما لم يكن صبر وتواصٍ به فى مواجهة أعداء الحق أعداء الله ومنهجه ونظامه، فإنه لا تقدم نحو التمكين لدين الله فى الأرض - كما سنوضح ذلك أثناء حديثنا عن النوع الثانى من الثبات.

*

(١) وانظر فى ذلك للمؤلف: «فقه الأخوة فى الإسلام» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة: ١٤١٣ - ١٩٩٣م: ففيه حديث ضافٍ عن حقوق الأخوة فى الدين وواجباتها.

وبعد : فلعلنى قد أوضحت كيف يحارب أعداء الإسلام والمسلمين ثبات الإيمان، وكيف يعملون ما وسعهم من أجل زعزعة هذا الإيمان، ليخلو لهم الطريق من المؤمنين الذين يقاومون باطلهم وظلمهم وتحديهم للحق وأهله .

إن أعداء الإسلام يقومون بأعمال خطيرة من أجل زعزعة الإيمان فى نفوس المؤمنين، ومن أبرز تلك الأعمال ما تشير إليه فيما يلى :

- العمل على تشويه القرآن الكريم، بادعاء محليته وإقليميته، بل ادعاء أنه ليس من عند الله، ومطالبة بعض الحاقدين منهم بإعادة النظر فى نصوص القرآن!!!

- والعمل على تشويه السنة النبوية المطهرة، بادعاء أنها ليست صحيحة النسبة إلى الرسول ﷺ، وادعاء أن بعض كلمات السنة غير منطقية وغير واقعية، فضلا عن زعمهم أن الرسول ﷺ ليس مرسلا من عند الله ولا وحى ينزل عليه!!!

- والعمل على اتهام المنهج الإسلامى بالقصور، واشتماله على الغيبيات، واتهام المتمسكين به بالرجعية والجمود والظلامية والتعصب والعنف، إلى غير ذلك من المفتريات والأباطيل .

وبعد : فهذا هو النوع الأول من أنواع الثبات، وهو ثبات الإيمان .

وإلى الحديث عن النوع الثانى من أنواع الثبات الأربعة التى نرجو أن نوضح أبعادها ومعالمها فى هذا الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب، والله ولى التوفيق .

٢ - الثبات على الحق والطاعة
والتواصى بذلك والصبر عليه

إذا ثبت المؤمنون على الحق وتواصوا به، وصبروا على ما يلاقون من متاعب الصبر على التمسك به، فقد حققوا فائدتين:

إحداهما: الفلاح فى الدنيا والآخرة.

والأخرى: التصدى لأهل الباطل والحيلولة بينهم وبين ما يريدون من العدوان على الحق وأهله.

● وأجمع وأحكم ما يؤيد ذلك هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾

[العصر: ١-٣].

والمعنى المجمل لهذه السورة الكريمة: أن الله تعالى يقسم بالزمان لما ينطوى عليه الزمان من دروس وعبر وعجائب تستلفت نظر المؤمنين، يقسم سبحانه وتعالى بذلك إن كل إنسان فى نوع من الخسران؛ لما يغلب على هذا الإنسان عموما من تسلط أهوائه وشهواته عليه، تلك قاعدة عامة فى كل إنسان..

ويستثنى من ذلك: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصوا بالصبر».

- والإيمان: معروف ومعروفة مفرداته.

- والعمل الصالح: هو فعل الطاعات والمداومة عليها، وترك المعاصى والمداومة على تركها.

- والتواصى بالحق: أى أن يوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق اعتقادا وقولا وعملا.

- والتواصى بالصبر: أى يوصى بعض المؤمنين بعضا بالصبر على مشاق التمسك بالحق، وعلى ما يعترض دعاة الحق والمعتصمين بهذا الدين من متاعب وأهوال.

● هؤلاء المؤمنون بهذه الصفات هم الذين استثناهم الله تعالى، فحكم بأنهم ناجون من الخسران، أى مفلحون فى الدنيا والآخرة.

وقد قال الإمام الشافعى رحمه الله فى هذه السورة الكريمة: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

● وتتضمن هذه السورة الكريمة وعيدا شديدا، لأولئك الذين تجردوا من الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والصبر، إذ يكونون فى خسران فى الدنيا والآخرة.

● والإنسان العاقل ملزم بمقتضى عقله - لو فكر بتجرد - أن يحصل لنفسه هذه الصفات الأربعة لينجو من الخسران، بل مطالب بأن يدعو غيره.. لأن المسلمين أمة دعوة - إلى أن يحققوا فى أنفسهم هذه الصفات الأربع، لأن المسلم مأمور من قبل الشرع بأن يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير، فقد روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، والأخ هنا هو من كان أخا له فى الدين أى من أمة الدعوة، كما يشمل من كان على غير الدين - أى من أمة الإجابة - فإنه يدعوه إلى الدخول فى هذا الدين الخاتم، وهذا غاية حب الخير له.

● وفى السور الكريمة إيحاء بأن التمسك بالحق والدعوة إليه عمل ضخم وجليل، يتعرض من يتمسك به إلى كثير من المحن والفتن والمتاعب، لذلك كان التواصى بين المؤمنين بالتمسك بالحق صفة من صفات الإيمان.

وفيها إيحاء بأن التمسك بالحق والثبات عليه يستوجب الصبر على هذه المتاعب والمشقات.

● وحسب المؤمن من الخير أن يعمل الصالحات وأن يتواصى مع إخوته بالتمسك بالحق، والصبر على متاعب التمسك بهذا الحق.

وهذا هو معنى كلمة الإمام الشافعى رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»؛ أى يكفيهم التمسك بها لينالوا سعادة الدنيا والآخرة.

● وإلى الحديث عن مفهوم الحق الذى يجب الثبات عليه، وعن مفهوم الصبر على التمسك بالحق والتواصى به.

ثم عن آثار الثبات على الحق والتواصى به وبالصبر عليه،

سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

أ – الحق الذى يجب الثبات عليه

ما هو الحق الذى يجب أن يثبت عليه المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ويتواصون بالتمسك به وبالصبر على متاعبه؟.

● لهذا الحق معان عديدة كلها صحيحة وداخلة فى مفهوم هذا الحق، ومن ذلك ما نذكره فيما يلى:

– الحق هو: الله تبارك وتعالى، فهو اسم من أسمائه الحسنى كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** (٦٢) ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ومن قوله جل شانه: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** (٦٢) ﴾ [الحج: ٦٢].

– والحق هو: القرآن الكريم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** (١٠٨) ﴾ [يونس: ١٠٨]، وما جاءنا من الحق من الله هو القرآن الكريم والسنة النبوية التى فصلت مجمله.

– والحق هو: الدين – أى المنهج الذى أمر الله تعالى باتباعه – كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** (٩) ﴾ [الصف: ٩]. وقد أرسل خاتم رسله محمداً ﷺ بهذا الدين والمنهج ليهدى به الناس فى كل زمان ومكان إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم فى الدنيا والآخرة.

تلك هى معانى الحق، فماذا يجب على المؤمنين نحوه؟.

● الواجب على المؤمنين المتمسكين بالحق أمران:

الأول:

إحقاق هذا الحق، وإقراره فى الحياة، وإلزام النفس به أولا، ودعوة الناس إلى الالتزام به بعد ذلك.

– وإحقاق الحق ليس سهلا وإنما له أعباء ومتطلبات وتضحيات قد تصل إلى حد التضحية بالنفس فى إحدى معارك الحق مع الباطل.

– ومن أجل إحقاق الحق لابد من: دعوة إليه، والدعوة إليه تحتاج إلى معرفة المدعوين، ومعرفة اللغة الصالحة لهم، وتحتاج إلى حسن عرض الحق والتلطف فى الدعوة إليه؛ تأسيا بقول الله تعالى فى حكاية دعوة موسى عليه السلام فرعون الطاغية: ﴿**هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ**﴾ [**النازعات**: ١٨، ١٩].

– والآخر إقناع للناس بالحق وإفهامهم بأن التمسك به هو المخرج من كل ضيق والعلاج لكل مشكلة.

– ولابد من جهاد فى سبيل إحقاقه، بإزالة العقبات من طريقه، وتأمين وصوله إلى الناس، مع أطرهم عليه فى بعض الأحيان، فقد روى أبو داود والترمذى بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فجلس رسول الله – ﷺ – وكان متكئا، فقال: لا والذى نفسى بيده، حتى تأطروهم على الحق أطراً» وهذا لفظ الترمذى.

ولفظ أبى داود أطول، وأوله: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل...» الحديث.

- وهدف كل أنواع الصراع بين الحق والباطل على مرّ التاريخ – من جانب المؤمنين – هو إحقاق الحق، ومن جانب أعدائه هو القضاء على الحق وأهله.

- ومن أجل تحقيق هذين الأمرين؛ إحقاق الحق، وإقناع الناس والجهاد فى سبيله، يجب على المؤمنين القيام بعملين ضروريين هما:

الأول:

التواصى بالحق فيما بينهم، والتذكير بعظيم الثواب على التمسك به، وشديد العقاب عند التخلى عنه، عقاب الدنيا بضياع الحقوق وذهاب الهيبة، وعموم الفساد والظلم، واختلال الحياة الإنسانية كلها.

والآخر:

الثبات على التمسك بهذا الحق، لأن الله تعالى فرض الثبات على الحق على عباده المؤمنين، وأثاب عليه، وعاقب على التزحزح عنه، كما يفهم ذلك من قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢].

– وتكفير السيئات مثوبة عظيمة من الله تعالى،

– وإصلاح البال يعني إصلاح أمور الدين والدنيا جميعا، ذلك جزاء الثبات على الحق.

فكيف يكون الثبات على الحق؟

ذلك ما نرجو توضيحه فيما يلي والله الموفق.

ب – الصبر على التمسك بالحق

بعد التواصي به، والتواصي بالصبر

الصبر على التمسك بالحق يعني حبس النفس على مشقاته ومتاعبه، وتحمل ذلك كله بصبر واحتساب للأجر عند الله تعالى.

والصبر على الحق وتحمل متاعبه هو الثبات عليه، وهو ثبات على الإيمان نفسه.

● والصبر واجب على كل مسلم بنصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وبإجماع الأمة المسلمة.

– فقد أمر الله تعالى بالصبر في قوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾** [آل عمران: ٢٠٠]، قال المفسرون: أي اصبروا في الله وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

● والتواصي بالصبر على التمسك بالحق، واجب شرعا، وهو من صفات المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما قلنا آنفا، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: «وتواصوا بالصبر»، وهذا التواصي بالصبر فيه إيحاءات ودلالات ينتفع من تواصي به من العاملين من أجل التمكين لدين الله في الأرض، نشير إلى شيء منها فيما يلي، والله ولي التوفيق.

– أنه مقترن بالتواصي بالحق في الآية الكريمة، فكأن المؤمن بذلك قد جمع وقرن بين فضيلتين يثيب الله عليهما أحسن الجزاء.

– وأن التواصي بالصبر يقوي العلاقة بين المؤمنين وهم يواصي بعضهم بعضا، مما يؤنس وحشة الطريق، ويشجع على المضي فيه.

– وأنه ييسر على المؤمنين تخطي العقبات الكثيرة التي تعترض طريق العاملين من أجل تمكين دين الله في الأرض.

● وقد قسم أسلافنا من العلماء رحمهم الله الصبر إلى درجات ثلاثة هي:

– الصبر عن المعصية، أي صبر النفس وحبسها عن المعاصي إتيانها أو مقاربتها.

– والصبر على الطاعة؛ أي الاستمرار عليها على الرغم مما فيها من تبعات.

– والصبر على البلاء والمحنة، أي على سنة الله تعالى في العاملين من أجله سبحانه وتعالى، والصبر على هذا البلاء من أرفع درجات الإيمان وأقواها دلالة على صحة الإيمان وقوته، فقد روى الخطيب وأبو نعيم بسنديهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان».

● وفي الصبر على البلاء جاءت آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلي:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣١].

– وقال جل شأنه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام: نوح، وهود، وصالح، والذين من بعدهم: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [إبراهيم: ١٢].

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤١، ١٤٢].

– وروى الإمام مسلم بسنده عن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته

ضراء، صبر فكان خيرا له».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها».

- وروى البخارى بسنده عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

- ومن أجل تلك المكانة للصبر كان جزاؤه عند الله أوفى جزاء وأحسنه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ⑩ ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال جل وعلا: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٥].

● أما الثبات فى مجال الصبر والتواصى به، فهو من أفضل صفات المؤمن، لأن الصبر على الحق وإحقاقه والتمسك به يتبعه دائما ثبات.

- وقيل: الثبات هو: الثبات على أحكام الكتاب والسنة والالتزام بما أمرا ونهيا وندبا، وهو محتاج دائما إلى التواصى به، والتشجيع عليه، لأنه غالبا ما تصحبه محنة وبلاء، ولذا كان التواصى بالصبر على البلاء والثبات على الإيمان من أهم الأعمال التى ترضى الله عز وجل.

- والثبات شاق وعسير ومنزلة لا يستطيعها إلا المؤمنون الصادقو الإيمان، ومن اللازم له التصبر لمن لم يستطع الصبر، فمن تصبر صبره الله تعالى كما جاء ذلك فى السنة النبوية.

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ومن يتصبر يصبره الله وما أُعطى أحد من عطاء خيرا وأوسع من الصبر».

- وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة».

- وروى البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه».

- وأحوج ما يكون المؤمنون إلى الثبات عندما يكون الحق الذى يريدون أن يثبتوا عليه كبيرا وعظيما، وليس أكبر ولا أعظم من الله تعالى ودينه ومنهجه، فالثبات على ذلك من أقرب القربات إلى الله تعالى.
- وأصعب ما يكون الثبات، بل أقساه وأشده عندما يكون العدو مجاهرا بعداوته، ومعصيته لله، ويكون ذا قوة وسلطان، يفتئت على الدين ويزرى بالمؤمنين، ويطلق ألسنة السوء من بطانته ليتهجموا على الدين، ويتهموا التدين بالرجعية والجمود والتخلف، ويملى للأشرار من بطانته وحاشيته حتى يأخذوا المؤمنين بالظنة، ويحاسبوهم بالشبهة ويدينوهم بالنية، ويقدموهم طعمة لقضاء موجه وأحكام جائرة!!!
- إن الثبات على الحق فى مثل هذه الظروف كالقبض على الجمر، وتجرع المر، والمشى على الشوك، ولكن المؤمنين يثبتون ولا يبالون، ويقدمون بهذا الثبات فى كل يوم موكبا من الشهداء، والله سبحانه وتعالى يعلم ويرى، وقد وعد بنصر المؤمنين.

جـ - مقتضيات الثبات

- وألزم ما يكون الثبات فى مجالات الدعوة والحركة والتربية، لأن هذه الأعمال تحتاج إلى صبر وتأنٍ وطول نفس، مع الإصرار على الاستمرارية فيها، وبغير الثبات على المعنى فى خطوات الدعوة والحركة، وأطوار التربية لا يمكن الوصول إلى النتائج المرجوة التى توصل إلى التمكين لدين الله فى الأرض بحيث تكون كلمة الله هى العليا ومنهجه هو السائد الرائد.
- وإنما كان الثبات ألزم ما يكون فى هذه المجالات الثلاثة الدعوة والحركة والتربية لكثرة ما يعترض هذه المجالات من عقبات وعراقيل، ومتاعب ومشقات تواجه العاملين فيها، وسنضرب على ذلك بعض الأمثال:

أولا: فى مجال الدعوة:

- قد يجد الداعية إلى الله طريق الدعوة وقد ألقى فيه أعداء الله من العقبات والعراقيل، وحظر الكلمة، وحبس الفكرة، وحرب الصحيفة والكتاب، ما يجعل الداعية فى حيرة

من أمره؛ إذ كيف ينفذ إلى التعبير عن الحق الذى يدعو إليه وسط هذا الجو، الخانق، وذاك الطريق المسدود؟.

وهنا يسعفه الثبات على المضى فى طريق الدعوة خطوة خطوة، وتخطى العقبات واحدة ثم واحدة، ليستمر العمل فى مجال الدعوة مهما كان قليلا.

– وقد يجد الداعية نفسه وقد شوهه إعلام الأعداء، وسخر منه فى شكله وملبسه وكلامه، مما قد يصرف عنه المدعويين بل ربما نفرهم منه، وهنا قد تعترى الداعية مشاعر فقد الثقة بالذات، أو مشاعر الغربة بين الناس، أو مشاعر التنكر لمقتضيات العصر، وهى كلها مشاعر زائفة، أدى إليها الإعلام الفاجر القائم على إرضاء الظالم والتضليل عن الحق.

وهنا يصبح الثبات على الاستمرار فى طريق الحق الذى يدعو إليه هو العلاج، لأنه بهذا الثبات يسترد ثقته فى نفسه وفى عمله وفى نفع ما يدعو إليه لحياة الناس فى معاشهم ومعادهم، فيستمر فى دعوته ويدع الكلاب تعوى.

ثانيا: فى مجال الحركة:

– قد يجد الداعية إلى الله نفسه، وقد انصرف عنه الناس الذين بذل مجهودا فى الاختلاط بهم وحبهم وتقديم الخدمات لهم وجمعهم على الحق والخير والهدى، ينصرفون عنه مفضلين ما يتيحه الأعداء لهم من أعراض الحياة الدنيا وزينتها ومتعتها، أو مؤثرين أن يكونوا مع المذاهب والأفكار السائدة فى المجتمع، التى تجنبهم الوقوع فى معاداة أهل الباطل – وهم كثرة – ليأمن ويسلم!!!

وعندها يجد الداعية نفسه وقد داخلته رغبة فى القعود عن العمل والانكماش فى خلوة العبادة، موهما نفسه أنه يعبد الله كأحسن ما تكون العبادة، وربما اتجه إلى التصوف بمعناه السائد غير الصحيح...

وهنا يبرز أثر الثبات، ويستدعى الداعية أحداث السيرة النبوية، ويتذكر أن رسول الله ﷺ لقى من ذلك شيئا كثيرا، حتى أطلقوا عليه من الأوصاف ما هى أبعد ما تكون عنه كالسحر والجنون وأنه يأتيه رئى من الجن، وأنه بدعوته تلك يفرق بين الوالد وولده والأخ وأخيه، ولكنه ﷺ لم يتراجع ولم ينكمش وإنما كان باستمرار يبحث عن مخرج وعن مجال جديد لدعوته وحركته.

– وقد يجد الداعية نفسه وقد أصابه من أذى الأعداء قدر كبير، فحرم كثيراً من حقوقه، وحورب فى رزقه وماله وولده ووطنه، أو اعتقل أو سجن، فتحدثه نفسه بإيثار السلامة وتقفز إلى ذهنه أساليب التقية والاستخفاء والعزلة، وكل ذلك من أهداف الأعداء التى يخططون لها، ويرسمون أبعادا للحرب النفسية للدعاة إلى الله، وينجحون فى بعض الأحيان، فينزوى مع من ينزوى من الدعاة.

وهنا ينبغى أن يستحضر الداعية إلى الله قصة حبس الكفار لرسول الله وصحبه وبنى هاشم فى شعب بنى هاشم، وكم كان تضييقهم عليهم حتى أكلوا ورق الشجر ولحاءه، وما تراجع الرسول ﷺ ولا آثر الاستخفاء!!!

وهنا يصبح الثبات هو العلاج.

ثالثا: فى مجال التربية:

كثيرا ما يُواجه الدعاة والمربون فى المجتمعات العلمانية التى تعادى الدين وتعتبره ماضيا انتهى أمره وما ينبغى الالتفات إليه، كثيرا ما يواجهون بمعاداة الدين ومحاربة فكره ومنهجه وقيمه وأهدافه العامة، وأهدافه التربوية على وجه الخصوص، ويلقون العقبات فى طريق التربية الإسلامية ويكيلون التهم جزافا إلى التربية الإسلامية من وصف هذه التربية وقيمها بصفات كاذبة من قولهم:

– إنها تربية رجعية ناكصة عاجزة عن مواجهة المتغيرات،

– وإنها تربية قاصرة عن تربية المواطن المعاصر الذى يعيش فى الزمن الحاضر،

– وإنها تربية تقوم فى جانب منها على الإيمان بالغيب.

إلى غير ذلك من أنواع التشويه التى ترددها وسائل الإعلام وأجهزته التى تسيطر عليها الحكومات العلمانية التى تصل فى ضراوتها إلى حرمان بعض الإسلاميين من العمل فى التدريس!!!

● وعندئذ قد يجد بعض التربويين المسلمين أنفسهم وقد أحيط بهم من قوى قاهرة تملك السلطة والنفوذ وإصدار القوانين، فربما تزعزع ثبات بعضهم وضعف إيمان بعضهم الآخر.

● ولقد أخذ ضعف الإيمان عند بعضهم، وتزعزع ثباته على الحق، أن توجه بأبنائه إلى التعلم فى المدارس الأجنبية العلمانية التى تصرح بعداوتها للإسلام، وتسقى المتعلمين

فيها سُمًا زعافا مضادا لكل ما هو إسلامى!!!

ليس هؤلاء المسلمون بقليلى العدد فى البلدان الإسلامية!!!

● بل بلغ ببعضهم التزعزع والتراجع حداً جعلهم يهاجرون من ديارهم ويقيمون فى بلاد الغرب أوربا وأمريكا، حيث ينشأ أبناؤهم فى الغالب نشأة تتجاهل الإسلام إن لم تُعاده!!

وهذا تسجيل لواقع لا يخجل من ذكره منصف عارف بهؤلاء الناس وظروفهم معاناتهم فى أوطانهم.

● أما الحكومات التى تعادى الإسلام صراحة وجهارا، بهذه القمة التى تمارسها الحكومات العلمانية، فإنها تسلم زمام التربية والتعليم فيها لهؤلاء الأعداء من الأجانب عن الإسلام، أو إلى بعض أبنائها الذين ربوا فى بلاد الغرب، وعادوا منه يستنكرون كل شىء فى بلادهم؛ الفكر والتربية والقيم، والملبس والمسكن والمآكل والمشرب، ويريدون أن يحولوا كل ذلك من منهج الإسلام ونظامه، إلى منهج الغرب العلمانى ونظامه!!!

وليس فيما أقول شئ من المبالغة - وقد شاهدت كثيرا من بلدان المسلمين وعايشت التيارات الفكرية والتربوية فيها ورأيت كيف يحدث التحول المضاد للإسلام وقيمه ومنهجه ونظامه، ولو شئت أن أسمى بلدانا بعينها لفعلت، ولكن يمنعنى من ذلك كثرة هذه البلدان، والأمل فى أن تعود إلى رشدها ومنهجها فى وقت قريب، حين يتكشف لها زيف ما عند الغرب من قيم وأخلاق.

● وليس كالثبات على الحق الذى جاء من عند الله علاج لهذا التزعزع وذاك التراجع، وذلك أن الثبات على الحق والتواصى به وبالصبر عليه هو الرد الحاسم على أعداء الإسلام، إذ هو قذى فى عيونهم ووقر فى آذانهم، وأشواك فى جنوبهم، ونجاة مما يضمرون للإسلام والمسلمين من كيد وشر.

وإن الثابتين على الحق المتواصين به، ما لم يكن لهم من عمل مضاد لأعداء الدين الإسلامى ومنهجه إلا هذا الثبات لكان ذلك غيظا للأعداء ليس كمثله غيظ، وإذا ما غاظ الإنسان عدوه - لأنه غير قادر على هزيمته - فقد انتصر عليه نوعا من الانتصار، والله غالب على أمره.

د – آثار الثبات على الحق والتواصي به

لابد أن يكون للثبات على الحق والتواصي به أجل الآثار وأنفعها وأجداها على معركة الصراع بين الحق والباطل في أي زمان وفي أي مكان.

● ونستطيع أن نلمس هذه الآثار في أنصار الحق وفي أنصار الباطل، فيما نذكر الآن:

أولا:

آثار الثبات على الحق والتواصي به في أنصار الحق:

– أول هذه الآثار للثبات على الحق أنه يطمئن الثابتين على أنهم في الجانب الذي يرضى الله تبارك وتعالى، لأنهم بهذا الثبات قد أطاعوا الله في تمسكهم بالحق وثباتهم عليه، وتواصيهم به، وعندئذ لابد أن يكون حظهم عند الله حظا موفورا، فيحظوا بتوفيقه سبحانه وتعالى وعونه في كل أعمالهم.

– وأن هذا الثبات يقوي شوكتهم بعد توحيد كلمتهم ووحدة صفهم، وهذا من شأنه أن ييسر لهم السبل في إحقاق الحق وإقراره في الناس، وفي نظم المجتمع وشئونه كلها، ولا يستطيع مجتمع أن يمارس حياته دون أن يحق الحق فيه، وإلا أكل القوي الضعيف وأذل الكبير الصغير – كما هو حادث اليوم في ظل النظام العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، أو في ظل نظام هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها الذي يهدر أي حق إذا اعترضت عليه دولة من الدول الخمس الكبرى!!!

على أن المقرر في ديننا الخاتم للأديان أن إحقاق الحق مطلب شرعي، مهما كانت التضحيات من أجله – كما أوضحنا آنفا –

– وأن الثبات على الحق يعطي الثابتين ثقة في أنفسهم وفي أعمالهم، ويؤكد لهم أنهم يمشون في نفس الطريق التي سلكها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام وسلكها من بعدهم الصالحون والمصلحون من المؤمنين، وأنهم ماضون في هذا الطريق حتى نهايته؛ إحقاق الحق ونصره، أو الموت في سبيله.

وفي هذا الإحساس من الراحة والطمأنينة النفسية ما لا يقدره، ولا يشعر به، ولا يتذوق حلاوة طعمه إلا الذين ثبتوا على الحق وتواصوا به وضحوا من أجله، فتلك طاعة لله عز وجل، وللطاعة لذة لا يحس بها إلا الطائعون، وللثبات على هذه الطاعة لذة أعمق وأشمل وأرضى للنفس الإنسانية التي أفلح صاحبها إذ زكاها بهذه الطاعة.

● تلك بعض آثار الثبات على الحق، فى أنصار الحق أنفسهم، وإنها لأكثر من ذلك بكثير.

ثانيا:

آثار الثبات على الحق والتواصى به فى أنصار الباطل

– من أوضح آثار الثبات على الحق والتواصى به أن يجعل أنصار الباطل أعداء الله أعداء الحق فى قلق واضطراب، بل حيرة قد تصل بهم إلى حد اليأس والقنوط من مقاومة الحق وأهله، إذ هم أكثر الناس علما بما يحشدون من قوى وأسباب لحرب الحق وأهله، ومع ذلك لا يجدون تزعزعا منهم ولا تراجعا عن المضى فى تلك المعركة.

وهذا من شأنه أن يضاعف إحساسهم بالفشل المؤدى إلى اليأس فى معظم الأحيان، والمؤدى إلى نصر الحق كذلك.

وقد أشارت السنة النبوية المطهرة إلى هذا المعنى فى نصر الحق على الرغم من جبروت الباطل، فى قصة الملك الظالم والساحر والراهب والغلام.

حيث ثبت الغلام على الحق فأيده الله تعالى ووفقه لنصر الحق وإيمان الناس بالله.

فقد روى مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه السحر، وكان فى طريق الغلام إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه...» الحديث بتمامه[1].

ومن معانى هذا الحديث الشريف؛ بيان ثبات الغلام على الحق وتوكله على الله على الرغم مما تعرض له من مخاطر، حاول الملك فيها قتله لثباته على الحق ولكنه كان يفشل فى كل محاولة، وينجى الله الغلام المؤمن من طغيان الملك الظالم، وقد أدى ثبات الغلام على الحق إلى اضطراب الملك وحيرته حتى إنه لم يستطع قتل الغلام الثابت على الحق حتى قال له الغلام: «... إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به؛ قال: ما هو؟.

قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع، ثم خذ سهما من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمنى فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى.

---

(١) جاء ذلك فى صحيح مسلم: باب الزهد.

فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صُدغه، فوضع يده فى صدغه فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟! قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدت، وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها - أو قيل اقتحم - ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبرى فإنك على الحق».

والخلاصة أن ثبات الغلام على الحق زلزل الملك الظالم، وجعله يقبل أوامر الغلام، وأدى ذلك إلى إيمان الناس!!!

- وهذا الثبات على الحق، يعلم أعداء الله أن مقاومة الحق وأهله تضييع للوقت والجهد فى غير طائل، وفى هذا يأس لهم من الانتصار على الحق، وإقناع لهم بأنهم كلما زادوا أهل الحق تضييقا وإعناتا زاد أهل الحق ثباتا عليه وتواصياً به، ولذلك يصاب أهل الباطل بالإحساس بالفشل والخيبة، كما فعل الملك الكافر الظالم فى قصة الغلام المؤمن الثابت على الحق، حيث نفذ الملك أمر الغلام، وأحس الملك بالفشل إذ آمن الناس بالله رب الغلام، فأخذ يتخبط ويزداد ظلما بحفر الأخاديد وإلقاء المؤمنين فيها.

- وأن هذا الثبات على الحق يجعل أعداء الله أعداء الحق فى موقف قد يحمل بعضهم على الهدى والتوبة والإنابة، بما يرون من ثبات المؤمنين على الحق.

وهذا هو ما يرجوه المؤمنون الثابتون على الحق المتواصون به، إذ لا هدف لهم إلا أن يهتدى الناس إلى الحق، وأن يدخلوا فى صفوفه وأن يعملوا على إحقاقه.

وتاريخ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والدعاة إلى الله تعالى والمصلحين والمجددين، هذا التاريخ ملىء بنماذج عديدة من النوعين:

الظالمين المتجبرين، والمؤمنين الثابتين على الحق، وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ – الثبات فى الجهاد فى سبيل الله تعالى

الشجاعة وثبات القدم

الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فرض على كل قادر عليه، وهو من الفرائض المحكمة المستمرة إلى يوم القيامة، ما تركها المسلمون فى وقت ما إلا أصيبوا بالذل والضياع، وكل فريضة فرضها الله على عباده إذا تركوها ضلوا وضاعوا، لأنه سبحانه لم يفرض على عباده إلا ما فيه صالح دنياهم وأخراهم، ومن ضيع صالح دنياه وآخرته ضل وضاع.

● والجهاد – على وجه الخصوص – هو ذروة سنام الإسلام، وأهم ما فى فرائض الإسلام وأسهمه فى الأخذ بأسباب القوة والعزة والتمكين لدين الله فى الأرض، لذلك كان من المسلم به على مر تاريخ المسلمين، أنه ما تركه المسلمون إلا ذلوا وأصبحوا نهبة لأعدائهم.

● والجهاد فى سبيل الله شرع لأسباب نذكر منها ما يلى:

– أن تكون كلمة الله – أى منهجه ونظامه وتشريعه الخاتم الذى جاء به محمد ﷺ – هو السائد الذى يتحاكم إليه الناس فى كل أمورهم؛ وهذا هو معنى أن تكون كلمة الله هى العليا، وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٤١].

– وأن تكون كلمة الذين كفروا السفلى، وذلك أنهم يقاومون سيادة منهج الله ونظامه ويتحدون دعوته وحركته، فلابد من قتالهم، ولابد من الأخذ بالأسباب التى تهزمهم وتجعل كلمتهم هى السفلى، وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٧٦].

– وليدفع المسلمون عن أنفسهم وعن إخوانهم وعن أوطانهم، كل عدو طامع فيهم، معتد عليهم، وفى هذا المعنى جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ**

اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١].

● والجهاد فى سبيل الله، جهاد لأعداء الله تعالى، جهادهم بالمال إعدادا وتضحية، وجهادهم بالنفس قتالا لتحقيق إحدى الحسنيين النصر عليهم أو الاستشهاد فى سبيل الله لنيل الجنة إذا شاء الله، وجهادهم باللسان والكلمة.

فقد روى أحمد وأبو داوود والنسائى بأسانيدهم عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

وكل هذه الأنواع من الجهاد لها أعباؤها ومتاعبها وتضحياتها، والثبات على تحمل تلك الأعباء وهذه المتاعب والتضحيات هو نوع من الشجاعة المادية والمعنوية وثبات القدم فى سبيل الله تعالى.

● والجهاد والتقوى هما وحدهما اللذان طلب الله تعالى من المؤمنين فيهما حق الجهاد وحق التقوى، فى القرآن الكريم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ....** ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال جل شأنه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ...** ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

و «حق جهاده»: أى استمروا فى الجهاد إلى يوم القيامة، أى كما جاهدتم أولا فجاهدوا حتى آخر الزمان، وهذا معنى أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة.

وقيل: بمعنى: لا تخافوا فى الله لومة لائم.

وقيل: المعنى: استفرغوا وسعكم فى إحياء دين الله وإقامة حقوقه، بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن.

وقيل: جاهدوا شياطينكم وأنفسكم.

● وأما: «اتقوا الله حق تقاته» فقد فسرها ابن عباس رضى الله عنهما بأن يجاهدوا فى الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

والخلاصة أن تقوى الله والجهاد فى سبيله يجب أن يستفرغ فيهما الجهد والطاقة إلى آخر ما يستطيع الإنسان.

- وهذا الجهاد الذى يجب الثبات عليه والاستمرار فيه واستفراغ الوسع والطاقة فيه أنواع كثيرة كل نوع منها يتطلب من المجاهد شجاعة وثبات قدم.

وسوف نذكر من هذه الأنواع أربعة، سائلين الله تعالى التوفيق.

أ – جهاد العدو باليد – أى بالقوة –

وهو الجهاد بالنفس

وهذا النوع من الجهاد، جاءت فيه آيات قرآنية عديدة منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٢٠ – ٢٢].

وقوله جل شأنه: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ....** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)** ﴾ [التوبة: ٣٦].

- هذا النوع من الجهاد فرضه الله تعالى حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ولكى تكون كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ولكى يحق الحق ويبطل الباطل وتستقيم أمور الناس على منهج الله ونظامه، ومن أجل تحقيق هذه الأغراض كان الثبات على الجهاد واجبا، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.
- وهل يمكن أن يكون جهاد من هذا النوع بغير ثبات وشجاعة ورسوخ قدم؟ بل إنه لا جهاد من أى نوع من الأنواع الأربعة التى نذكرها إلا بثبات وشجاعة!!!
- وبهذا الجهاد تكون إقامة الدين والمنهج الذى شرعه الله تعالى للمؤمنين وأوصى به أنبياءه، وبخاصة أولوا العزم منهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ....** ﴾ [الشورى: ١٣].

وبغير إقامة هذا الدين لا تكون حياة كريمة للإنسان، وإقامة هذا الدين تستدعى جهاداً مستمراً ومقاومة بالقوة لكل أعداء الله ومنهجه.

ب - جهاد العدو بالمال

وهذا النوع من الجهاد لا يقل أهمية عن الجهاد بالقوة والنفس، وقد جمعه الله تعالى إلى الجهاد بالنفس فى آيات عديدة من القرآن الكريم، وهو واجب بنص القرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة، وبإجماع المسلمين.

- فمن آيات القرآن الكريم التى أوجبت ذلك - بالإضافة إلى ما ذكرنا آنفا - قوله جل شأنه:
﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾ [التوبة: ٨٨، ٨٩].

- ومن الأحاديث الشريفة التى أوجبت الجهاد بالمال - بالإضافة إلى ما ذكرنا آنفا - ما رواه أبو داود بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

- وقد أجمع علماء المسلمين فى كل عصر على وجوب جهاد أعداء الله بالمال، بل أجمعت الأمة المسلمة على ذلك.

- وإذا كان جهاد العدو بالنفس أى اليد والقوة يحتاج إلى جهاده بالمال لأن المال من القوة، فإنه كذلك، فما لا يتم الواجب إلا به، فهو إذن واجب.

- وهذا النوع من الجهاد بالمال ليس واجب الحكومات المسلمة وحدها وإنما هو واجب كل مسلم يملك من المال ما يجاهد به أعداء الله.

فكيف يكون جهاد أعدائنا بالمال؟

يستطيع المسلمون أفرادا - فى هذا الزمن الذى نعيشه؛ زمن تقدم وسائط الاتصال والمواصلات - أن يلقنوا أعداءهم دروسًا لا تُنسى وتترك فيهم بالغ الأثر لو قاطعوهم اقتصاديا فامتنعوا عن شراء كل ما تنتجه بلاد الأعداء من منتجات، وليكن ألد الأعداء وهو الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على سبيل المثال، دون تدخل من الحكومات، فإن هذه المقاطعة سوف تترك فى الأعداء أعظم الأثر، بل ربما زلزل كيانهما وطامن من غرورهما وجعلهما يفيقان على أهمية مقاومتهما بالمال.

وكذلك يستطيع المسلمون أفرادا - ودون تدخل من الحكومات - أن يحاربوا الغرب الصليبى بالمال فيقاطعوا منتجاته. لكن الخلل الكبير فى هذا المجال هو تعامل المسلمين أفرادا مع منتجات أعدائهم، بل إن بعضهم ينبهر بهذه المنتجات!!!

- غير أن الخط الموازى لهذه الحرب بالمال، أن ينتج المسلمون أفرادا وشركات ومؤسسات منتجات تضاهى أحسن المنتجات، وليعتبروا أن تجويدهم لهذه المنتجات حربا لأعدائهم بالمال.

- إن المسلمين اليوم زادوا كثيرا عن ألف مليون فرد، وهم بهذه الكثرة يبلغون ربع سكان العالم أو قريبا من ذلك، ولهم بذلك تأثير وأى تأثير.

وإن انتظار الحكومات لتصدر فى مجال حرب العدو بالمال قرارات؛ غفلة من المسلمين، وإدخال للحكومات فى مشكلات سياسية مع هذه الدول الكبرى، وإنما هو عمل فردى بالغ التأثير لو تنبه المسلمون إليه(١).

- غير أن حرب العدو ماليا بمقاطعته اقتصاديا تحتاج فيما أتصور إلى أمرين هامين:

- أحدهما: أن تكون المقاطعة جماعية من كل المسلمين أو من معظمهم وفى العالم الإسلامى كله لا فى المنطقة العربية وحدها.

- والآخر: أن يكون بين المسلمين نوع من التكامل الاقتصادى الذى يأخذ شكل العناية بالمنتجات فى البلاد الإسلامية وشكل تفضيلها على منتجات بلاد الأعداء، وشكل اكتفاء ذاتى يغنى عن الحاجة إلى منتجات الأعداء.

فهل يفيق المسلمون على هذه الحقائق؟

- ومن جهاد أعداء الله بالمال، أن يعد كل مسلم نفسه لقتال عدوه - عندما تتاح فرصة القتال - إعدادا ماليا، كما كان ذلك شأن المسلمين فى الماضى يوم لم يكن هناك حظر على صنع السلاح ولا على بيعه وامتلاكه، أما اليوم فكل ذلك محظور لكن التغلب على

---

(١) أما الحكومات فقد هرولت إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل العدو الأصيل للأمة الإسلامية، بل إن بعض الحكومات قد عقدت مؤتمرا اقتصاديا يستهدف التعامل مع إسرائيل اقتصاديا كمؤتمر نوفمبر ١٩٩٦م الذى عقد فى القاهرة، وكغيره من المؤتمرات والندوات والنداءات، وتلك أعمال من الحكومات المسلمة تزيد إسرائيل تصلبا وضراوة وإنكارا الحقوق الفلسطينيين ونقضا للعهود والمواثيق، وسيطرة على العالمين العربى والإسلامى!!!

هذا الحظر ممكن إذا تبرع المسلم بالمال لحكومته الشرعية التى تقاتل عدوه، فتستعين بهذا المال فى صنع السلاح الذى تواجه به العدو.

● ومن صور جهاد العدو بالمال أن يعمل المسلمون على توفير احتياجاتهم ذاتيا – على مستوى العالم الإسلامى – فإن ذلك يفسد خطط العدو فى تجويع المسلمين وإفقارهم بإخضاعهم لسيطرة عدوهم عليهم من الناحية الاقتصادية التى تؤدى حتما إلى السيطرة عليهم سياسيا.

● وإن أعجب العجب أن يحارب المسلمون أعداءهم بسلاح صنعه هذا العدو، وباعه للمسلمين بأبهظ الأثمان مع مزيد من المن والأذى وهم يقبضون الثمن الذى يريدون!!!

● ومن جهاد العدو بالمال أن يدخر المسلم من ماله ما يوفر لأسرته وذويه حياة كريمة عندما يذهب هو للجهاد فى سبيل الله، ولا يدعهم عبئا على أحد.

● وهذا النوع من جهاد العدو بالمال يحتاج إلى ثبات وإصرار واستمرار على جهاد أعداء الله أعداء الإسلام والمسلمين.

إن الثبات فى هذا النوع من الجهاد تضحية وتنظيم وصبر وحرمان من بعض الكماليات أو الضروريات، ولكنه ينال عند الله تعالى أعظم الأجر وأكرم المنازل.

جـ – جهاد العدو باللسان والكلمة

هذا النوع من الجهاد لا يقل تأثيرا فى العدو عن جهاده بالقوة والمال، والأصل أن يلجأ المسلمون إلى هذا النوع من الجهاد قبل خوض المعارك وفى أثنائها، لإقناع الناس بعدالة معاركهم، وإزالة الشبهات ورد المفتريات التى يوجهها العدو إليهم.

● وقد يكون هذا النوع من الجهاد باللسان والكلمة عندما لا يستطيع المسلمون جهاد عدوهم باليد والقوة؛ لما يكون عليه عدوهم من قوة متفوقة وإمكانات ضخمة.

● وهذا النوع من الجهاد هو الدعوة إلى الله، وهى عمل مستمر أبدا لا يتوقف فى سلم أو حرب، وهو فى الحرب أولى وأهم. وللدعوة إلى الله أساليب عديدة تدخل كلها فى الجهاد باللسان والكلمة، ومن هذه الأساليب ما نشير إليه فيما يلى:

– أسلوب الشرح والتفسير لأصول الدعوة إلى الله، من أجل الإقناع بأنها الحق الذى جاء من عند الله تعالى لإنقاذ البشرية من مشكلاتها.

- وأسلوب المقارنة بين الدعوة إلى الله، وغيرها من الدعوات والمذاهب والملل والنحل، المقارنة الهادئة الموضوعية.

- وأسلوب الرد على الشبهات والمفتريات التى يوجهها أعداء الإسلام إلى الإسلام والمسلمين، الرد العلمى الموضوعى المحايد الذى يستهدف إحقاق الحق، وإظهاره أمام كل ذى عين تنظر وعقل يعى.

- وأسلوب الترغيب فى الحق وبيان ما فى الانصياع إليه من فائدة تعود على من قبل الحق وتواصى به، وما يحمله الإسلام لهذا النوع من الناس من بشارات فى الدنيا بالنصر والتمكين وفى الآخرة برضى الله تبارك وتعالى.

- وأسلوب التحذير من معاداة الحق، أو رفض الوقوف فى صفه وجانبه، فضلا عن تحديه وتحدى أهله والدعاة إليه، وبيان ما فى ذلك من تهديدات بالخطر فى الدنيا بالوقوع فى الهزائم، وفى الآخرة بغضب الله تبارك وتعالى.

- وأسلوب تعهد الناس وتربيتهم تربية إسلامية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرته، وإعدادهم لأداء وظائفهم فى الحياة الدنيا على خير وجه وتعويدهم نقل هذه التربية والإعداد إلى من بعدهم من الناس.

- وأسلوب تجميع الناس على الخير وتحبيبهم فيه لأنفسهم ولغيرهم من الناس، ثم تصنيفهم وفق قدراتهم واستعداداتهم ليؤدى كل منهم لنفسه ولأخيه ولدينه ودنياه ما يجب عليه أن يؤديه(١).

● والجهاد لأعداء الله باللسان والقلم يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذ هو دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

● ومن الأحاديث النبوية فى الجهاد باللسان والكلمة ما نورد بعضه فيما يلى:

روى مسلم بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الناس وبشروا، ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا».

روى الترمذى بسنده عن أبى حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى

---

(١) لتفصيل هذه الأساليب ومعرفة أبعادها؛ انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله. الجزء الأول من ص ٢١٣ إلى ص ٢٣٤، نشر دار الوفاء بالقاهرة الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم ».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه ».

● وهذا النوع من الجهاد باللسان والكلمة يحتاج إلى الثبات عليه والاستمرار فيه، وإلا لم تبلغ الدعوة ما يجب أن تبلغه فى الناس.

د - جهاد العدو بالقلب أى بالإنكار والرفض

وهذا النوع من الجهاد وإن بدا لغير المتعمق فى معناه سلبية وسكوتا عن الحق، إلا أن النظرة الفاحصة فيه تؤكد أنه نوع من الجهاد له وزنه وخطره، وقدرته على المقاومة لأعداء الله تعالى أعداء الحق والإسلام.

● وهذا الجهاد مظهر من مظاهر الإيمان لكنه أضعف الإيمان، ومع ذلك فهو واجب أوجبه الله تعالى على لسان نبيه ﷺ:

فقد روى أحمد بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنه ستكون أمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضى وتابع » قالوا يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟ قال: « لا ما صلوا لكم الخمس ».

وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض، ثم قال ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١]، ثم قال: « كلا والله، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم

ليلعنكم كما لعنهم».

ففى هذا الحديث الشريف تركوا الإنكار بالقلب بعد أن أنكروا باللسان فلم يجد، فلما تركوه وآكلوهم وشاربوهم وجالسوهم، وما كان يجوز منهم ذلك، لعنهم الله تعالى، ثم يلعن الله كل من يسكت عن الإنكار بالقلب عندما يعجز عن الجهاد باليد أو باللسان.

وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وروى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

والذين خلفوا فقالوا ما لم يفعلوا أو فعلوا ما لم يأمر به الله هم أعداء يجب جهادهم.

والثبات على هذا النوع من الجهاد مطلب شرعى وإلا تمكن العدو من المسلمين، واستحق المسلمون اللعنة عند الله والعياذ بالله من ذلك.

وبعد: فإن الجهاد فى سبيل الله قد كتبه الله على المسلمين كما كتب عليهم الصيام والصلاة والزكاة والحج – وكتب يعنى فرض – قال الله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

● وهذه الآية الكريمة تقرر أن الجهاد شاق ومكلف من الجهد والمال، بل والنفس ما لا يطيقه إلا المؤمنون الصادقون، ولذلك كان الجهاد فى تقدير الله سبحانه وتعالى خيرا للمسلمين مهما كرهته نفوس بعضهم «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم».

– ولا يليق بالمسلم فى فريضة محكمة ماضية إلى يوم القيامة مثل الجهاد أن يبذل ماله أو جهده مرة واحدة ثم يتوقف، بل لا يقبل منه أن يبذل ذلك مرتين أو مرات، وإنما الأصل أن يبذل ذلك كلما دعا داعى الجهاد، وذلك أن فريضة الجهاد كفريضة الصلاة أو الصوم

تؤدى باستمرار، أما فريضة الزكاة فتؤدى مرة كل عام، وفريضة الحج تؤدى مرة فى العمر، وتلك أركان الإسلام الخمسة التى لا يصح الإسلام إلا بها.

وذلك هو من معانى الثبات فى فريضة الجهاد، الثبات على بذل المال والجهد والنفس ذاتها، وهذا المعنى هو ما أشار إليه الإمام البنا فى قوله: «وأريد بالثبات أن يظل الأخ عاملا مجاهدا فى سبيل الله مهما طالت المدة وتطاولت السنوات والأعوام».

ولنا أن نتساءل قائلين:

– ما الغاية التى يجاهد الأخ المسلم من أجلها؟

وفى الإجابة على هذا السؤال نقول: إن هذه الغاية قد حددت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

– أما آيات القرآن الكريم فنذكر منها:

قوله تبارك وتعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٧٦].

وقوله عز وجل: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٧٤].

– وأما السنة النبوية المطهرة فمنها:

ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا؛ فهو فى سبيل الله». ففى هذا الحديث الشريف حددت غاية من غايات الجهاد وهى: أن تكون كلمة الله هى العليا.

وما رواه مسلم بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا».

وفى هذا الحديث تحديد لغاية أخرى من غايات الجهاد وهى قتال من كفر بالله، ويكون ذلك القتال فى سبيل الله.

ولابد لنا أن نوضح ما المقصود بسبيل الله تعالى؟

فنقول:

- سبيل الله تعالى هو المحجة أو الدعوة إلى الله على بصيرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (١٠٨)﴾ [يوسف: ١٠٨].

- وسبيل الله هو كل ما أمر به سبحانه وتعالى، أو ندب إليه وحبب فى فعله.

- وسبيل الله هو العدل والحق والخير وهى كلمات متقاربة المعانى فى هذا المجال، بل يجوز أن تتبادل المواقع؛ إذ كل عدل حق وكل عدل خير وكل حق خير.

- وسبيل الله هو السلام والأمن للبشرية كلها، ولا سلام ولا أمن إلا بجهاد الأعداء.

- وسبيل الله هو منهجه ونظامه الذى أنزله على خاتم رسله محمد ﷺ وارتضاه للبشرية كلها دينا.

- وسبيل الله هو تحرير النوع الإنسانى كله من الشرك ومن عبادة الناس والأهواء والأشياء، تحرير الناس جميعا من كل ذلك فى أى زمان وأى مكان، ومن هذه العمومية والشمول فى الناس والزمان والمكان كان الجهاد من الفرائض المستمرة المتواصلة إلى يوم القيامة.

- وسبيل الله هو مقاومة كل انحراف عن منهج الله ونظامه، وأطرُ الناس على الحق أطرا وقصرهم عليه قصرا، لأن كل خروج على منهج الله ضرر للبشرية كلها، ويجب مقاومة الضرر على كل حال.

- وسبيل الله هو حماية العقيدة والشريعة، والأخلاق، وسائر القيم التى جاء بها الإسلام، حمايتها من أن يعبث بها عابث أو يعطلها معطل.

- وسبيل الله تعالى هو حماية المجتمع من كل من يحاول أن يحول بين الناس وبين منهج الله تعالى، وهذه الحماية تكون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، كما تكون بالحركة فى تجميع الناس وتحبيبهم فى فعل الخير، وتكون بتربية الناس على القيم الإسلامية، وكل ذلك إذا اجتمع يؤدى إلى تمكين دين الله فى الأرض.

● هذه الغاية - فى سبيل الله - التى يجاهد من أجلها المسلم هى أنبل الغايات، وأرضاها لله تعالى، وأنفعها للناس فى دينهم ودنياهم.

● من أجل ذلك كان الثبات فى هذا الجهاد واجبا على كل مجاهد بنفسه أو ماله أو جهده، بلسانه أو بقلبه، لما سبق أن قرره أسلافنا من علماء الشريعة عندما قرروا أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

● وهذه الغاية أو الغايات التى يجاهد من أجلها المسلم يجب أن يستمر عليها مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام، والله يتقبل من عباده المتقين.

٤ - الثبات على العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والتنظيم للوصول إلى التمكين لدين الله فى الأرض

العمل من أجل الإسلام له شعب كثيرة ومجالات عديدة، ولكنها جميعا ضرورية ولازمة، بحيث لا يتقدم هذا العمل نحو هدفه إلا بها جميعها، ولعل ذلك بسبب أن العمل للإسلام أجلّ أعمال الإنسان؛ إذ ينقل الفرد من الضلال إلى الهدى، أو من الكفر إلى الإيمان.

● وفى إشارة خاطفة إلى أبرز الأعمال من أجل الإسلام نذكر ما يلى:

١ - الدعوة إلى الله:

وهى دعوة إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ويقوم بها من كان على بصيرة بما يدعو إليه من أمور هذا الدين الخاتم.

وللدعوة إلى الله وسائلها العامة والخاصة، ولها أسلوبها المعروف فى التعامل مع المدعو والصبر عليه، حتى يصل إلى أن يكون داعية إلى الله.

٢ - والحركة بهذا الدين:

أى التحرك بقيم الدين ومبادئه فى الناس عن طريق الاختلاط بهم والتودد إليهم وتقديم الخير لهم وتحبيبهم فيه، وتصنيفهم وموالاة كل صنف منهم بما يلائمه من الثقافة والعمل، ولا ينتهى هذا العمل الحركى إلا بأن يصبح من تحركنا إليه قادرا على أن يتحرك بهذا الدين إلى غيره من الناس عن علم وبصيرة بهذا الدين العظيم، والحركة ليست مرحلة تالية للدعوة ولكنها موازية لها ومواكبة لخطواتها.

٣ - والتربية:

وهى بالضرورة تربية إسلامية تشمل كل الناس صغارا وكبارا، وفق مناهج تربوية نابعة من الكتاب والسنة النبوية وسيرته ﷺ، وسير كبار الصحابة رضى الله عنهم، التربية الإسلامية بكل مفرداتها: الروحية والخلقية والعقلية والبدنية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية

والجهادية والجمالية من أجل أن يستقيم الناس على قيم الإسلام.

وهى تربية مستمرة لا تتوقف عند سن معينة لمن يربى.

٤ - والتنظيم:

أى تنظيم العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتربية، ويهتم فيه بجمع كل إلف إلى إلفه من حيث العمر الزمنى والعقلى، والمستوى الثقافى، والقدرات والمواهب، وهو عمل يكفل نجاح سائر الأعمال.

ولا يكون تنظيم إلا بوضع خطة عمل وتنسيق وتوظيف وتوريث وترشيح.. إلخ.

● هذه المجالات كلها مطلوب فيها الثبات والاستمرار والصبر على أعبائها ومشقاتها حتى يمكن لدين الله فى الأرض، ثم يستمر العمل والصبر على مشاقه من أجل المحافظة على هذا التمكين بعد الوصول إليه، حتى لا تحدث انتكاسة أو تراجع أو سقوط كما حدث فى الماضى قريبه وبعيده.

هذا الثبات هو ما نود أن نوضحه فى كل مجال من هذه المجالات، فى الصفحات التالية، سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

أ - الثبات فى مجال الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن عند الحاجة إليه، واجب شرعى أوجبته آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، هذه الدعوة واجبة على سبيل الاستمرار دون توقف حتى يقوم الناس لرب العالمين، تلك حقيقة أولى فى الموضوع(1).

● والحقيقة الثانية أن طريق الدعوة إلى الله ليست مفروشة بالورود، وإنما هى مليئة بالعقبات والعراقيل، والعديد من أنواع التحدى، وكل ذلك يستوجب كثيرا من الصبر، واحتساب الأجر عند الله تعالى لما سوف يصيب الدعاة من عنف وإرهاق، فتلك سنة الله تعالى في الدعوة والدعاة منذ أقدم الدعاة إلى الله من أولى العزم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهى سنته سبحانه وتعالى فى الدعوة والدعاة الذين جاءوا من بعدهم فى كل زمان ومكان.

ولقد كان خاتم أولى العزم من الرسل محمد ﷺ مضرب المثل فيما لاقى من متاعب ومشاق وهو يدعو إلى الله، وما بذل من جهد، وما مارس من صبر وتحمل، وهكذا الذين جاءوا من بعده ﷺ من الدعاة والمصلحين الذين حملوا ميراث الدعوة إلى الله وساروا على نهجه فى الدعوة إلى الله والصبر على متاعبها إلى يوم الدين.

● والحقيقة الثالثة أن بعض الدعاة إلى الله من غير الأنبياء والمرسلين قد يأتى عليهم حين من الزمان تشتد عليهم فيه المتاعب، وتزيد المصاعب وتضطرب المحن، فيجدون أنفسهم أضعف من أن يحتملوا هذا العناء فتكون لهم مواقف ملازمة لفترات ضعف بعضهم وإيثار بعضهم الآخر للراحة والدعة، ونحن هنا نذكر ببعض هذه المواقف، وننبه إلى ضرورة الخروج منها، والذكرى تنفع المؤمنين.

1 - قد يفتر أحدهم عن الدعوة أو يقل أداؤه وعطاؤه، بسبب كثرة ما يلاقيه من متاعب ومشاق، فيدخل بهذا الفتور فى أخطاء عديدة ما كان له أن يدخل فيها ومن ذلك:

---

(1) أوضحنا ذلك فى كتابين لنا: الكتاب الموسع: فقه الدعوة إلى الله، وكتاب فقه الدعوة الفردية - نشر دار الوفاء بمصر 1410 هـ - 1990 م، و 1411 هـ - 1991 م.

● خطؤه فى حق نفسه، إذ يدخلها فى مجال التقصير فيعزل نفسه عن موكب الدعاة فيخسر الإحساس بمتعة الصحبة فى طريق الحق، ذلك الطريق الحافل بأحباء الله تعالى وأوليائه من الدعاة إلى الحق، وحسبه بذلك وحشة.

● وخطؤه فى حق الدعوة نفسها، إذ يقصر فى أدائها مع أن أداءها واجب مستمر، لا يتوقف ولا يجوز الفتور فيه فضلا عن الكسل أو القعود عنها، فإن فعل فقد أثم ودخل فى دائرة عقاب الله تعالى.

● وخطؤه فى حق من يدعوهم، لأنه بهذا الفتور يكون قد تركهم فى منتصف الطريق أو فى بعض مراحله، والأصل ألا يتركهم أبدا، وإنما يعقد معهم أخوة فى هذا الدين تستمر إلى أن يلقى الله، وإلى أن يتحولوا هم إلى دعاة إلى الله.

● وكل هذه الأخطاء وغيرها إنما تتلافى بترك هذا الفتور أى الثبات على أداء عمل الدعوة مهما كانت العقبات. فذلك الثبات - كما أوضحنا غير مرة - واجب شرعى.

٢ - وقد يركب الخوف بعضهم، ويرى فى الظلم الذى قد يقع عليه من أعداء الله أعداء الحق ما يهوله وما لا يحتمله، وعندئذ يتوقف عن ممارسة الدعوة إلى الله متوهما أن هذا التوقف يحول بينه وبين بطش الظالمين، وهو بهذا التوقف المبنى على هذا الوهم يقع فى عدد من الأخطاء نذكر منها ما يلى:

● الخطأ فى حق نفسه بأن يجعلها موضعا لعقاب الله تعالى الذى أمر بالاستمرار فى أعمال الدعوة ما دام قادرا على ذلك كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...** ﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

● والخطأ فى فهم الدين والدعوة معا إذ تصور مخطئا أن توقفه قد يحول بينه وبين بطش الظالمين أو تعنتهم. ولو تدبر سنن الله فى خلقه لعلم أن شيئا لن ينجيه من أمر قد قدر له أن يكون!!! مع حرمانه من الأجر لو أنه تابع العمل والدعوة إلى الله.

● والخطأ فى حق المدعوين - كما أوضحنا آنفا -

● والخطأ فى حق إخوانه من الدعاة، إذ قد يفت توقفه فى عضدهم ويضعف من عزائمهم، وربما زعزع ثقة أحدهم فى المضى فى طريق الحق!!!

● وهذه الأخطاء جميعا تُتلافى بالثبات، كغيرها من الأخطاء.

٣ – وقد يهول بعض الدعاة ما يلقاه إخوانهم فى الدعوة من عنف ومشقة، وما يلاقون من حرب وكيد، وما يُشق لهم من الأخاديد ذات النار والوقود، كما حدث لرواد الدعاة السابقين، إذ ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار، وأوذى موسى وعذب عيسى حتى رفعه الله إليه، وحدث مع محمد خاتمهم عليه الصلاة والسلام ما هو معروف من عذاب وأذى، وما عانى منه الدعاة الأقدمون؛ إذ شُق بعضهم بالمناشير، وعلقت لهم المشانق، وفتحت لهم السجون وصب عليهم فيها العذاب صبا...

قد يكون ذلك مما يهوله ويثنيه عن المضى فى طريق الحق، ويأتيه الشيطان فيزين له هذا الانتكاس، لأن تلك طبيعة الشيطان وهذا عمله حتى مع الأنبياء وما ينبغى لمؤمن أن يستجيب لوسوسته، وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فسنة الله أن يكون لكل نبى ولكل داعية أعداء من الإنس والجن، وتلك إرادة الله تعالى ليمحص المؤمنين ويختبر صفوفهم، ويعلم المجاهدين منهم والصابرين، وهؤلاء الأعداء شياطين الإنس والجن جادون فى عداء الدعاة إلى الله ولكن ذلك كله بإرادة الله وحكمته: «ولو شاء ربك ما فعلوه».

وما ينبغى لداعية إلى الله أن تصرفه أعمال الأعداء عن الحق الذى يمضى فى طريقه، لأن منطق القرآن الكريم هو: «فذرهم وما يفترون».

- إن من يتذكر هذه الحقائق القرآنية الإيمانية لا يمكن أن يهوله ما يفعل الأعداء بالدعاة إلى الله، ولا يمكن أن يتوقف أو يتراجع، وكيف يفعل وقد ذاق حلاوة الإيمان ولذة الطاعة وأنس الأخوة فى الله، والفرحة بموكب الدعوة إلى الله وهو يمضى فى طريقه؟

- إن من يشرق فى قلبه نور الإيمان لا يطفئه أبدا عنت الظالمين، ولا بطش الجبارين لأنه مؤمن بالحقيقة الإيمانية العظيمة: «ولو شاء ربك ما فعلوه» وليس له أن يقف طويلا عند وسوساتهم أو تهديداتهم أو بطشهم، وإنما يتبع منطق القرآن كذلك: «فذرهم وما يفترون».

- إن من ينتكس عن الدعوة إلى الله يتبع غير سبيل المؤمنين، لأن سبيل رسول الله ﷺ والمؤمنين معه هو الدعوة إلى الله، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين يشاق الله ورسوله، ومن فعل

عاقبه الله تبارك وتعالى عقابا دنيويا وأخرويا كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)** ﴾ [النساء: ١١٥].

● ومن المسلمات أن الثبات على الدعوة إلى الله يقتضى المضى فيها والاستمرار عليها، ولا يكون ذلك إلا بترك الخوف من الظالمين، فالأصل أن الداعى إلى الحق لا يخاف فى الله لومة لائم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)** ﴾

[المائدة: ٥٤].

والارتداد فى هذه الآية يعنى أمورا منها:

- فَقْد حب الله لعبده وفقد عبده حبه لربه،

- والتعامل مع المؤمنين بغير رحمة وبر،

- والتعامل مع الكافرين بغير عزة وأنفة،

- وترك الجهاد فى سبيل الله،

- وخوف اللائمين.

والله تعالى غنى عن هؤلاء وسوف يأتى بغيرهم أفضل منهم فى كل شيء.

● والثبات على الدعوة - كما قلنا آنفا - واجب مهما كانت التضحيات والمشقات.

فما مكانة الثبات فى الحركة؟

هذا ما نحاول الإجابة عليه فى الصفحات التالية، والله ولى التوفيق.

ب – الثبات فى مجال الحركة بهذا الدين

من المعروف فى فقه الدعوة والحركة، أن الحركة فى الناس بهذا الدين، والاختلاط بهم من أجله، ومساعدتهم فى حل قضاياهم ومشكلاتهم وتقديم العون لهم، وتحبيبهم فى فعل الخير والتعاون على البر والتقوى، من المعروف أن كل ذلك إنما يؤديه المسلم نحو أخيهٌ المسلم حسبة لوجه الله تعالى، واحتسابا للأجر والمثوبة عنده سبحانه وتعالى.

- ومن المعروف فى فقه الحركة أيضا، أن الاختلاط بالناس من أجل هذه الأهداف، قد يترتب عليه متاعب ومشقات، لأن الناس ليسوا جميعا يتقبلون بسهولة أوامر الإسلام ونواهيه، لأن الشأن فى الناس أنهم كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، ومن ثمَّ كان للاختلاط بالناس وجمعهم على الحق وتحبيب الخير إليهم يصحبه أذى من الناس لمن يتحركون فيهم بهذا الدين، وكان الصبر على هذا الأذى من علامات كمال التدين عند من يصبر عليهم، ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فكم صبر وكم تحمل الأذى!!!

- ومن المسلم به لدى فقهاء الحركة بهذا الدين أن الاختلاط بالناس والصبر على أذاهم وتقديم العون لهم مرتبط بأن يحبب هؤلاء الناس فى فعل الخير لأنفسهم ولغيرهم من الناس فى المجتمع كله، ومن هنا كان بعض الناس لا يستطيعون الاستجابة لنداء فعل الخير للناس جميعا لما فى أنفسهم من أثرة وحب لمنع الخير عن الآخرين، ومن أجل علاج هذا العيب فى بعض الناس ألزم الله تعالى المؤمنين بفعل الخير، كما جاء هذا الإلزام فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٧٧) ﴾ [الحج: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ... (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن أجل هذا كان على المتحركين بهذا الدين فى الناس أن يصبروا على انحراف بعض الناس عن فعل الخير وحبه لسواهم من الناس، وهذا الصبر بحاجة إلى الثبات.

- ومن المقرر بين علماء المسلمين عموما، وفقهاء الدعوة والحركة على وجه الخصوص؛ أن الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وأعيادهم وجماعاتهم، والمشاركة فى مشاهد الخير

عندهم، وعيادة مرضاهم وتقديم العون لمحتاجهم وإرشاد جاهلهم وضالهم، وأمرهم بكل معروف ونهيهم عن كل منكر، والصبر عليهم وعلى ما يبدر منهم من مساءات للدعاة إلى الله، هو الأصل الذى جاء به الدين الخاتم، وهو الأرضى لله تعالى، والأجدر بكل مسلم يعبد ربه ويطيعه ويرجو رحمته ويخشى عذابه.

- هذا المقرر بين علماء المسلمين وفقهاء الدعوة والحركة؛ حقيقة أجمعت عليها الأمة الإسلامية اقتداء بالرسول ﷺ، إذ كان محمد ﷺ أنموذجا عمليا للاختلاط بالناس وطبعهم على فعل الخير، وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم، وكان كذلك التابعون وأهل القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام - وهم أهل خير القرون - وكان على نفس السنة والسيرة، الصالحون والمجددون والدعاة والحركيون، وكل من ورث عن النبى ﷺ هذا الدين العظيم.

- هذا العمل وهو الاختلاط بالناس - على النحو الذى أوضحنا - حق على كل مسلم يجب أن يؤديه، وأن يستمر فى أدائه إلى أن يلقى الله تعالى، ولا يستطيع أن يؤديه إلا بالصبر على متاعبه ومشاقه، ويحتاج من أجل ذلك إلى الثبات.

● وإذا كانت الحركة بهذا الدين تستهدف طبع الناس على فعل الخير وحبه والتعاون على البر والتقوى، فإن هذا الهدف تأتى بعده بالضرورة أهداف أخرى على أعلى درجة من الأهمية نذكر منها ما يلى:

- تكوين أفراد ومجموعات يشجع بعضهم بعضا على الالتزام بالإسلام فى عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم وكل معاملاتهم، وهذا أكبر فوز يحققه الحركيون.

- وتكوين أفراد ومجموعات يحسنون الانتماء إلى الإسلام، فيعتزون بهذا الانتماء، ويفخرون به، ويجهرون به فى كل التجمعات الإنسانية، ولا يخافون من أجله لومة لائم.

- وليس الالتزام بالإسلام أو الانتماء إليه إلا فرصة جيدة لتكوين المجتمع المسلم المطبق لمنهج الله تعالى الآخذ بنظامه فى كل أمر من أمور معاشه ومعاده، وهذا هو التمكين لدين الله فى الأرض الذى هو هدف كل دعوة وكل حركة وكل تربية وكل تنظيم.

إن التمكين لدين الله تعالى فى الناس إنقاذ لهم من كل ما يعانون منه من حيرة وقلق واضطراب وضياع، وحل حقيقى لكل مشكلاتهم أيا كان نوع هذه المشكلات؛ فكرية أو ثقافية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

● والثبات على هذه المبادئ والأسس من ألزم ما تحتاج إليه الحركة بهذا الدين، من أجل تمكينه فى الناس فى حياتهم اليومية، وحياتهم فى المستقبل، ومن أجل أن يرضى الله تعالى عنهم فى الآخرة فيكونوا لديه من الفائزين.

وبعد : فإذا كان هذا هو الثبات فى مجال الحركة بهذا الدين، فما هو الثبات فى مجال التربية وهى أوسع الميادين وأثراها بمفردات العمل؟.

ذلك ما نحاول الإجابة عنه فى الصفحات التالية بعون من الله وتوفيق.

جـ – الثبات فى مجال التربية

إذا كانت الدعوة إلى الله تقتضى فقها للدعوة، وفقها لما يجب أن يكون عليه الدعاة من صفات، وفقها للمدعوين بمعرفة قدراتهم وإمكاناتهم وظروفهم... (١).

وإذا كانت الحركة بهذا الدين فى الناس تقتضى فقها للحركة، وفقها لما يجب أن يكون عليه الحركى، وفقها لطبائع الناس الذين سيختلط بهم الحركى وكيفية التأثير فيهم...

فإن التربية مجال أوسع من مجال الدعوة والحركة وأدق وأصعب مسالك وأكثر متاعب؛ لأن التربية تجمع مفردات الدعوة ومفردات الحركة، وتضيف إليها مفردات التربية وهى كثيرة(٢).

● وإذا كان كل ما تحدثنا عنه من خطوات فى مجال الدعوة والحركة يحتاج إلى ثبات، بل لا فاعلية له دون ثبات. فإنى أؤكد هنا أن الدعوة على أهميتها والحركة على ضروريتها لا يمكن المضى فيهما دون تربية إسلامية لأفراد الناس ومجموعاتهم صغارا وكبارا، ودون تربية إسلامية للأسر والعائلات؛ على اعتبار أن الأسرة هى نواة المجتمع، ودون تربية للمجموعات التى ترتاد النوادى الاجتماعية والأدبية والثقافية والاجتماعية والرياضية، ودون تربية لمن يعمرون المساجد ويهرعون إليها فى ضيافة ربها سبحانه وتعالى، ودون تربية إسلامية لمن هم فى سن التعليم وللكبار الذين فاتهم قطار التعليم أو أتموا بعض

---

(١) انظر للمؤلف فى ذلك المجال، الكتب التالية:
- فقه الدعوة إلى الله – مرجع سابق.
- وفقه الدعوة الفردية – مرجع سابق،
- والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله،
- التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة،
- وعالمية الدعوة الإسلامية.

وكلها من نشر دار الوفاء بمصر.

(٢) انظر للمؤلف فى ذلك المجال الكتب التالية:
- تربية الناشئ المسلم،
- وفقه الأخوة فى الإسلام،
- وسلسلة مفردات التربية الإسلامية: وهى عشرة: الروحية والخلقية والعقلية... إلخ.

مراحلة أو أتموا مراحله كلها – أى أن التربية الإسلامية عملية مستمرة لا يستغنى عنها الإنسان من ولادته إلى موته.

- ومعنى ذلك أنه لا إنسان ولا مجتمع ولا دعوة ولا حركة دون تربية إسلامية نابعة من الكتاب والسنة(١).

- ولابد أن أنبه إلى أن التربية الإسلامية ليست مجرد كلمة أو صياغة لفظية – كما قد يتوهم بعض الناس من أعداء الإسلام أو غافلى أوليائه – ولكنها عملية علمية تعليمية تربوية مركبة، معروفة الأهداف والفلسفات والسياسات والوسائل، بل معروفة الأبعاد والمراحل، والآليات.

- ولابد من التنبيه إلى أن التربية الإسلامية قائمة بذاتها متكاملة فى معطياتها ومفرداتها، قادرة على تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والأمة المسلمة والدولة المسلمة قدرة غير محدودة من منطلق أنها نابعة من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة الرسول ﷺ.

– ولو لم تكن التربية الإسلامية كذلك لما استطاعت أن تنشر الإسلام فى نصف العالم تقريبا – عند ظهور الإسلام – فى أقل من نصف قرن من الزمان.

– ولو لم تكن التربية الإسلامية على هذا القدر من الإحاطة والشمول والتكامل لما استطاعت اليوم أن تبعث فى نفوس الناس – على مستوى العالم كله – هذا الوعى الإسلامى وهذا الاعتزاز بالانتماء إلى الإسلام؛ على الرغم من الحرب الضارية التى يوجهها أعداء الإسلام الى كل ما هو إسلامى، وبخاصة تلك الضربات العاتية التى تحركها وتمارسها الصهيونية العالمية والولايات المتحدة الأمريكية والنظام العالمى الجديد، والشيوعية والاشتراكية والإلحاد والانحلالية الخلقية!!!

– إن جولة سريعة فى ربوع إفريقيا مثلا(٢) تؤكد أن التربية الإسلامية قد استطاعت أن تصل إلى قلوب الملايين هناك وأن يدخلوا فى دين الله أفواجا – على الرغم من المغريات

---

(١) انظر للمؤلف: سلسلة التربية فى القرآن الكريم، التى صدر منها: التربية الإسلامية فى سورة المائدة، والتربية الإسلامية فى سورة النور، والتربية الإسلامية فى سورة آل عمران، والتربية الإسلامية فى سورة الأحزاب، والتربية الإسلامية فى سورة الأنفال – دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

(٢) شاهدت ذلك بنفسى فى جولات فى كثير من بلدان إفريقيا من شرقها فى «مونباسا» على المحيط الهندى إلى الكاميرون على المحيط الأطلسى.

الضخمة التى يقدمها أعضاء البعثات التنصيرية الكثيرة المنتشرة فى إفريقيا مواكبة للاستعمار وموازية له ومحققة لأهدافه، تلك البعثات التى تتيح لها الحكومات الإفريقية من التيسيرات والمعونات ما يتضاءل أمام ما تدفعه الكنيسة!!!

● كما أود التأكيد على أن للتربية الإسلامية مصادر ومرجعيات أساسية تأخذ منها قيمها وفلسفتها، وتعرف من خلال التعامل معها طبيعة التربية الإسلامية وأهدافها وأبعادها فى الناس والمجتمعات والزمان والمكان.

– أما المصادر فهى الأساس الذى يؤخذ منه كل ما له صلة بالتربية الإسلامية، وتلك المصادر هى بالتحديد:

١ – القرآن الكريم وتفسيراته المعتمدة الخالية من أى شذوذ عن العقيدة أو العبادة أو الخلق أى ثوابت الإسلام.

٢ – والسنة النبوية المطهرة فى مصادرها المعتمدة لدى علماء المسلمين وهى الكتب الستة (البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة) وكل الكتب التى أخذت عن هذه الكتب الستة.

٣ – والسيرة النبوية الشريفة فى كتبها المعتمدة لدى علماء المسلمين، ومن علامة أنها معتمدة موثقة أنها تخلو من أى معلومة تخالف القرآن والسنة فى العقيدة أو العبادة أو الخلق وأن تكون مأخوذه من الكتاب والسنة.

– وأما المرجعيات فهى:

١ – كل ما وراء هذه المصادر الثلاثة من أعمال الصحابة رضى الله عنهم والتابعين، وكل ما أنتجته عقول علماء المسلمين فى مختلف العصور بشرط أن تكون ملائمة للعصر الذى يعيشه الناس، وألا تكون مخالفة لشيء مما فى الكتاب والسنة والسيرة.

٢ – وما أبدعته عقول علماء التربية المسلمين وتجاربهم التربوية فى مختلف عصور المسلمين قديما ووسيطا وحديثا، بشرط أن يكون ملائما لزمن الناس وظروفهم فى العصر الذى يعيشون فيه.

٣ – وما يمكن أن تسفر عنه البحوث والدراسات والندوات والمؤتمرات التربوية الإسلامية فى الزمن الذى نعيشه، بشرط أن تكون هذه البحوث والدراسات والندوات والمؤتمرات غير مخالفة لشيء من الكتاب والسنة، وأن تكون محققة لمصالح المسلمين.

● وأود أن أذكر بأن أهداف التربية الإسلامية تكاد تنحصر فى تكوين الفرد المسلم فالأسرة المسلمة فالمجتمع المسلم تكوينا إسلاميا صحيحا، على اعتبار أن مفردات هذا التكوين أو التربية الإسلامية هى:

- التربية الروحية،
- والتربية الخلقية،
- والتربية العقلية،
- والتربية الدينية،
- والتربية البدنية،
- والتربية الاجتماعية،
- والتربية السياسية،
- والتربية الاقتصادية،
- والتربية الجهادية،
- والتربية الجمالية.

فإذا أعد المسلم وكون تكوينا صحيحا، فإنه يكون لبنة صالحة فى بناء الأسرة المسلمة، ودعامة قوية فى تكوين المجتمع المسلم، وعنصرا إيجابيا فاعلا فى الأمة المسلمة فالدولة المسلمة.

وإذا ما تكونت الأمة المسلمة - وهى بإذن الله تعالى لابد أن تكون - جاء التمكين لدين الله فى الأرض، والحكم بين الناس بما أنزل الله، وعندئذ تسود العدالة الاجتماعية، فيمارس كل مواطن فى البلاد المسلمة - من مسلم وغير مسلم - حقوقه كاملة ويؤدى واجباته على الوجه المطلوب؛ وذلك أن الإسلام يقر لكل مواطن حقوقا إنسانية لا يسمح لأحد أن يعتدى على شىء منها إلا إذا كان ظالمًا أو مستبداً مستوجبا لعقاب الله تعالى.

● وكل ما ذكرنا عن التربية الإسلامية بهذا الإجمال، يحتاج فى تطبيقه وتنفيذه إلى الثبات والإصرار، لأن الأعداء لن يدعوا المسلمين التربويين يطبقون أهداف التربية الإسلامية ويحققون أغراضها، وإلا بطلت أفاعيل العدو وفسدت خططه للقضاء على الأمة الإسلامية وعلى الإسلام نفسه.

إن الثبات على ممارسة التربية الإسلامية فى الناس بشغل كل سيادين التربية الإسلامية، والإصرار على المضى فى هذا العمل دون تراجع، ودون انبهار بأنواع من التربية الواحدة التى لا تتفق مع مبادئ الإسلام وقيمه، إن ذلك واجب شرعى دعانا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة – كما أوضحنا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب –

- إن التربية الغربية عموما – فى أوربا وأمريكا – والتربية الشرقية فى الصين والاتحاد الروسى، ومن يدور فى هذين الفلكين من الأتباع والأذناب، هذه التربية بنوعيها لا تقيم وزنا للقيم الخلقية، ولا للعدالة الاجتماعية العامة – وإنما لشعوبها ومن يدور فى فلكها – ولا لحقوق الإنسان إلا فى بلادها!!!

- إن هذه التربية التى تبلورت اليوم فيما يعرف بالنظام العالمى الجديد (الولايات المتحدة الأمريكية ومعها دول الغرب والشرق الداعمة للصهيونية، والمعادية للإسلام صراحة بأقوال أقطابها السياسيين، وضمنا بتأييدها المطلق لإسرائيل، وحربها العامة لكل ما هو إسلامى من خلال تشجيع كثير من حكومات العالم الإسلامى على البطش بالإسلاميين)، هذه التربية بهذه الأهداف لا يقبلها من المسلمين إلا من كان عدوا لنفسه وأمته وحاضره ومستقبله. ويكفيه دلالة على ما نقول أن ينظر فى قرارات مجلس الأمن وتوجيهات الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، ليعلم علم اليقين كم قدر عدائهم للإسلام والمسلمين، وكم حجم ولائهم لأعداء الإسلام والمسلمين من الصهاينة والصليبيين الجدد، والملحدين والمنادين بالانحلال الأخلاقى!!!

وإذا كان ذلك شأن الثبات فى التربية، فما شأنه فى التنظيم؟

ذلك ما نرجو الإجابة عليه فى الصفحات التالية من الكتاب، والله ولى التوفيق.

د – الثبات فى مجال التنظيم

كل ما تحدثنا عنه آنفا من خطوات وأعمال فى مجال الدعوة أو الحركة أو التربية لا يتم على وجهه الصحيح إلا بالتنظيم؛ لأن التنظيم هو العنصر القادر على أن يفرق بين إنسان وآخر من الناحية الوظيفية، بقصد إنشاء مركب متكامل من العلاقات الوظيفية داخل الكيان الكلى.

● وهذا التنظيم من أشهره أنواع ثلاثة:

١ – التنظيم الإدارى،

٢ – والتنظيم السياسى،

٣ – والتنظيم الاجتماعى.

ولكل نوع من هذه الأنواع فروع نشير إليها بإيجاز فيما يلى:

● فروع التنظيم الإدارى:

هذا التنظيم يتفرع إلى فروع:

– فهو إما أن يكون معنيا بالتركيب الهيكلى، على مستوى وحداته ووظائفه وأفراده، محددا للأهداف والواجبات والاختصاصات والمسئوليات؛ بحيث يتعاون الأفراد على تحقيق الأهداف وأداء الواجبات، كل فيما يخصه ويلائم وظيفته.

– وإما أن يكون تنظيما رسميًا؛ يخضع لقوانين ولوائح صارمة تحدد الحقوق والواجبات، ويسيطر عليه قادة يطالبون الناس بالولاء والطاعة لهم، وهذا التنظيم غالبا ما تمارسه الدولة.

– وإما أن يكون تنظيما غير رسمى؛ يخضع لعلاقات شخصية تنمو تلقائيا، وتحكمه المعايير الاجتماعية والشعائر والقيم الدينية، وكثيرا ما ينشأ هذا التنظيم لسد الثغرات فى التنظيم الرسمى.

● وفروع التنظيم السياسى هى:

– تنظيم سياسى يتكون تحت قيادة زعيم أو قائد بعينه، يجتمع حوله الناس المتفقون معه

فى الاتجاه والهدف والبرنامج.

- أو تنظيم سياسى يستهدف تحقيق بعض المبادئ والقيم التى يتفق عليها المشاركون فيه، ويسعون جهدهم فى تحقيق هذه الأهداف.

- أو تنظيم سياسى يقوم على جماعة أو مجموعة من الناس فى ممارسة سلطة على الناس بالقهر والإكراه مثل النظم السياسية التى تتولد نتيجة لانقلابات عسكرية.

● **وفروع التنظيم الاجتماعى هى:**

- التنظيم الاجتماعى الذى يقوم على نمط مستقر من العلاقات الاجتماعية، والأنشطة المختلفة داخل مجتمع أو جماعة بهدف تنظيم الحياة الاجتماعية.

- والتنظيم الاجتماعى الذى يقوم على تحقيق الأغراض التى ينشدها المجتمع، من خلال تنظيم الأفراد فى علاقات غير فردية وإنما مؤسسية.

- والتنظيم الاجتماعى الذى يستهدف ترتيب الأنشطة الاجتماعية؛ بمعنى أن تكون هذه الأنشطة موجودة معترفا بها ولكنها تحتاج إلى ترتيب يجعلها أكثر فعالية وإيجابية.

● وأيًا ما كان هذا النوع من التنظيم الإدارى أو السياسى أو الاجتماعى، فإن أعمال الدعوة والحركة والتربية فى حاجة ملحة ودائمة إلى نوع من التنظيم قائم بذاته أو خليط من نظم مختلفة إذا أريد للدعوة أو الحركة أو التربية أن تحقق أهدافها، وبغير تنظيم فإن شيئا من هذه الأهداف لن يتحقق.

● ولكن الذى يلحظ فى مجالات الدعوة والحركة والتربية أن التنظيم اللازم لها كثيرا ما يكون بسيطا وبعيدا عن عيوب كل تنظيم من هذه التنظيمات المعروفة، وسر ذلك أنه تنظيم يقوم على الأخوة فى الدين والتآخى فى الله، ويستهدف أهدافا متميزة وفاضلة وعادلة وقادرة على تحقيق مصالح الناس فى دينهم ودنياهم، كما يستهدف أن يحكم الناس بشرع الله تعالى ومنهجه، ولا توجد فيه أى عيوب من عيوب الأنظمة التى ذكرنا.

وعلى سبيل المثال:

- فليس فيه عيب استهداف مصلحة الطبقة التى صنعت التنظيم دون سواها أو أكثر من سواها من الطبقات.

- وليس فيه عيب قهر الناس وإكراههم بالقوة على ما يريد القائمون بالتنظيم من مبادئ اصطنعوها لأنفسهم ليسودوا بها الناس أو يسوقوهم كأنهم قطيع من الحيوانات.

- وليس فيه عيب تفضيل مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد، لأن مصلحة المجتمع عند التحقيق هي مصلحة القائمين على التنظيم وما المجتمع إلا غطاء خادع.

- وليس فيه عيب تحقيق مصالح الأقوياء والأغنياء والوجهاء على حساب مصالح الفقراء والضعفاء والوضعاء.

● ولكن التنظيم القائم على الأخوة في الله يستمد أهدافه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة المعصوم ﷺ، وحاشا لله أن يكون مفضلا لمصلحة فرد على آخر، لأن الله تعالى رب الناس جميعا وشرعه ومنهجه لصالحهم جميعا.

● غير أن الملاحظ أنه كثيرا ما تتخوف الحكومات من كلمة التنظيم وبخاصة إذا كانت في غير مؤسساتها الرسمية، بل كثيرا ما تُجرم هذا التنظيم وتدين من يمارسونه وتعاقبهم بأشد ما لديها من عقوبات، والغريب - في العالم الثالث - أن التنظيم محظور ومجرم حتى لو كان أصحابه لا يعملون ضد الدولة!!!

وربما كان السبب في هذا التجريم أن هذه الحكومات يسيطر عليها فكر مُسبق خلاصته: أن كل تنظيم يعمل على قلب نظام الحكم أو يؤدي إلى قلب نظام الحكم!!!

وهذا الفكر إن صدق مع بعض التنظيمات فمن المستبعد أن يصدق عليها جميعا، والأصل أن تفرق الحكومات بين هذه التنظيمات، وتدعم الصالح منها لأنه يحقق مصالح للمجتمع، والأصل أن مصلحة المجتمع بجميع أفراده هي هدف كل حكومة عادلة منصفة.

وبعد:

فماذا يعني التنظيم في مجالات الدعوة والحركة والتربية؟

● أما في مجال الدعوة فإن التنظيم يعني تصنيف الدعاة وتصنيف المدعوين، بحيث يكون كل صنف منهم قادراً على أن يرتقي إلى صنف أعلى منه، وأكثر قدرة على ممارسة الدعوة بوصفه داعية أكثر استعدادا وأكثر قدرة على توريث الدعوة لمن بعده، وأكثر قدرة على ترشيح الصالحين الذين أُهلوا ليكون منهم دعاة صادقون جادون.

وعلى مستوى المدعوين، فإن التنظيم يعنى أن يكون كل مدعو أكثر قدرة على استيعاب متطلبات الدعوة والالتزام بها. والحرص على تحقيق أهدافها؛ من أجل أن يشق طريقه من صفوف المدعوين إلى صفوف الدعاة، فيكون أكثر تعرضا لرحمة الله ورضوانه.

وهذا التصنيف للدعاة والمدعوين والسير بكل منهم نحو غايته تنظيم دقيق يحتاج إلى الثبات ويحتاج إلى الاستمرار كى يتم النضج وتبلغ الدعوة فى نفوس حماتها وأهلها أقصى ما يرجى أن يبلغه.

- وأما التنظيم فى مجال الحركة فإنه يعنى وضع الخطة التى تؤدى إلى الاقتراب من الناس والاختلاط بهم والتأثير فيهم وجمعهم على الحق والهدى وتحبيبهم فى فعل الخير لأنفسهم وللناس، مع الالتزام بالإسلام وأخلاقه، والاعتزاز بالانتماء إليه، وهذا كله لا يكون إلا بتنظيم يستهدف تصنيف الناس وتوصيلهم إلى هذه الغايات النبيلة، وهذا التصنيف يساعد على تحقيق هذه الغايات فهو ضرورة لا يتم العمل الحركى إلا بها.

وهذا التصنيف فى مجال الحركة يحتاج إلى الثبات والصبر والاستمرار على هذا العمل، ومواجهة كل تحد يقابله بفقه الحركى وقلب المؤمن ولسانه وحبه الخير للناس جميعا.

وأما التنظيم فى مجال التربية، فهو أهم وأولى من أى مجال آخر من مجالات العمل من أجل الإسلام، إذ التربية أحوج ما تكون إلى التنظيم.

وبيان ذلك أن الذين يخضعون لبرنامج تربوى لا يخلو أمرهم من أن يكونوا صغارا فى السن أو كبارا:

- فإن كانوا صغار السن فإن تنظيمهم فى مجموعات متقاربة المستوى فى الأعمار والذكاء والقدرات العقلية يعتبر ضروريا لازما لإمكان تربيتهم تربية إسلامية.
- وإذا كانوا كبارا - وذلك هو الغالب فى العمل التربوى الإسلامى - كان تصنيفهم فى مجموعات متقاربة ضروريا وحيويا لتتم عملية التربية فى إطارها الصحيح وفى الجو الذى يهيئ أحسن الفرص لأن تحقق التربية أهدافها.

وهذا التقارب فى الكبار يشمل أمورا كثيرة منها:

- التقارب فى المستوى الثقافى الذى حصله من يخضع لمنهج تربوى إسلامى، إذ لا يستطيع منهج تربوى - أيا كان محتواه - أن يلبى احتياجات مَنْ يلم بالقراءة والكتابة دون مؤهلات مدرسية أو مع مؤهلات مدرسية محدودة، واحتياجات من نال قدرا من الثقافة

بحيث تخرج فى الجامعة مثلا .

- والتقارب فى تحصيل المعارف الإسلامية عموما والثقافة الإسلامية على وجه الخصوص، فلا يستطيع منهج أن يجمع بين من كان فى بداية الطريق يدرج خطواته الأولى فى الدعوة إلى الله، ومن كان ذا قدم راسخة فى هذا الطريق وقد قطع منه أشواطا جعلته ذا سابقة وأقدمية، مع عمق ثقافى فى المعارف الإسلامية .
- والتقارب فى الأعمار بين من يجمعهم منهج تربوى واحد، لأن درجة اهتمام شاب دون العشرين من عمره بالقضايا والأحداث والمشاغل والناس والأشياء، غير درجة اهتمام من كان فى الخمسين من عمره مثلا .
- والتقارب فى المكان الذى يقيم فيه من يطبق عليهم منهج تربوى واحد، بحيث لا يتبدد الوقت فى الوصول إلى مكان اللقاء التربوى؛ بسبب أن أحد الأفراد يقيم فى أقصى القرية أو المدينة والآخر يقيم فى أقصاها من الجانب الآخر، لأن المحافظة على الوقت والانضباط فى الحضور والانصراف من الأمور التنظيمية التربوية فى نفس الوقت .

كل تلك أنواع من التقارب بين الأفراد يجب أن تراعى عند التنظيم فى مجال التربية الإسلامية .

وكل ذلك يحتاج إلى ثبات وإصرار واستمرار، وما لم يحدث ذلك فلا تستطيع التربية الإسلامية أن تحقق أهدافها - فضلا عن أن تؤتى أكلها - فتحول الأفراد والأسر والمجتمع كله إلى عناصر فاعلة قادرة على الالتزام بالإسلام عقيدة وعبادة وخلقا وسلوكا، والاعتزاز بالانتماء لهذا الدين الخاتم العظيم، على الرغم من الجهات والهيئات والمؤسسات والتجمعات التى تتحدى كل ما هو إسلامى، إن الثبات أمام هذا التحدى هو الدليل على أن التربية الإسلامية قد تغلغلت فى قلوب الناس وعقولهم، وصانتهم صيانة قوية بالحق ومع الحق، قادرة بصبر وثبات ودأب، على أن تستمر فى العمل والأداء، بغير حدود زمنية تقف عندها وبغير حدود مكانية تنتهى إليها .

إن ذلك هو الثبات فى التربية الإسلامية وهو من أهم عناصر النجاح فى هذه التربية .

وبعد :

فإن الثبات الذى أتحدث عنه فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والتنظيم أقرب فى مضمونه إلى الصدق الذى هو مطابقة القول وعمل الجوارح لما فى الاعتقاد، والوفاء بحق

الاعتقاد وفعل ما يجب كما يجب، وهذا المعنى هو الذى نفهمه مما جاء فى الآية الكريمة:
﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

والمعنى – والله أعلم – أنهم صدقوا فى مطابقة أقوالهم وأعمالهم لما اعتقدوه وعاهدوا الله عليه من الثبات والصبر على المكاره من أجل الحق وإحقاقه فى الناس فوفوا بما عاهدوا؛ فمنهم من مات شهيدا فى سبيل الله تعالى والغاية التى آمن بها فنال شرف الدنيا والآخرة، ومنهم من بقى حيا ثابتا صابرا مصرا على أن ينصر الحق حتى يأتيه أجله فينال هذا الشرف العظيم، وما بدل أحد منهم شيئا مما عاهد الله عليه، فجزاهم الله على صدقهم وثباتهم خير الجزاء فى الدنيا بالنصر على الأعداء وفى الآخرة بالجنة ورضاه سبحانه وتعالى.

إنهم ثبتوا على العمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض، فى كل مجالات العمل الإسلامى فى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، وهذا هو الثبات.

الفصل الثاني

خُلُقيات الثبات وأدبياته

أعني بخلقيات الثبات القيم التى تحكمه وتهمين عليه،

وإذا كانت الأخلاق نظاما متكاملا من السمات العقلية والنفسية للإنسان؛ تجعله يسلك سلوكا معينا إزاء موقف من المواقف؛ فإن الإسلام رسم أبعاداً لهذه الأخلاق، وحدد لها أوصافا، من تمسك بها كان فى موضع رضا الله تعالى: وهى الأخلاق الفاضلة، وحدد أوصافا للأخلاق الرذيلة، وجعل من اتصف بها فى دائرة غضب الله تعالى وسخطه وعقابه يوم القيامة.

● والثبات عموما تحكمه هذه الأخلاق الفاضلة التى حددها الإسلام، ونصت عليها آيات القرآن الكريم، وكلمات السنة المطهرة، وسيرة المصطفى ﷺ(١).

● والثبات نفسه خلق فاضل إذا كان ثباتا على الإيمان وعلى الحق، وعلى الجهاد فى سبيل الله، وعلى العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والتنظيم؛ من أجل التمكين لدين الله فى الأرض.

١ - الخلقيات التى تحكم الثبات

● غير أن للثبات أخلاقيات وأدبيات تحكمه، نحاول أن نوضحها فى هذه الصفحات من الكتاب، سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

- وأودّ هنا أن أوضح الفرق بين الأخلاقيات والأدبيات من وجهة نظرى، وفى ضوء ما أحس به من فارق بينهما:

● فالأخلاقيات فى حديثى هذا تعنى: الصفات الخلقية الفاضلة التى أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها، لذلك سمى أسلافنا من العلماء الاتصاف بهذه الأخلاق الفاضلة «تحليا».

---

(١) توسعنا فى الحديث عن هذه الأخلاق فى كتابنا: التربية الخلقية من سلسلة مفردات التربية الإسلامية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

ولكن يدخل فى مفهوم الأخلاق بمعناها العام الصفات الخلقية الراذلة التى أوجب الإسلام على المسلم ألا يتصف بها أى يتخلى عنها، ولذلك سماها أسلافنا: «تخلياً».

هذا عن الأخلاقيات:

● أما الأدبيات - فى مصطلحنا هنا - فتعنى تلك الصفات الخلقية التى حبب الإسلام الاتصاف بها، كما تعنى الصفات التى كره الإسلام الاتصاف بها.

ونستطيع أن نستعير من علماء أصول الفقه بعض مصطلحاتهم فنقول - من أجل توضيح الفرق بين الأخلاقيات والأدبيات -:

إن الأخلاق التى أوجب الإسلام الاتصاف بها ضرورية لابد منها.

وإن الأخلاق التى ندب الإسلام الناس إليها تحسينية لا ضرورية، أى أنها تحسن من أمر المتصف بها وتجعله أكثر فضلا.

- والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المجال هو: ما الأخلاقيات التى تحكم الثبات؟

وللإجابة عليه نقول:

لا شك فى أن الدين الإسلامى الخاتم يقوم على الخُلق الفاضل؛ ففى السنة النبوية ما رواه البخارى بسنده عن هشام بن حكيم رضى الله عنه أنه سأل عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، فقال لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئا.

- وقد جمع الله تعالى لعباده المؤمنين مكارم الأخلاق كلها فى آية كريمة واحدة هى قوله تعالى: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)** ﴾ [**الأعراف**: ١٩٩].

وقد أفاض المفسرون فى تفسير هذه الآية الكريمة وجاءوا بشروح وتأويلات عديدة، ومنهم ابن جرير رحمه الله الذى أنقل عنه قوله: «إن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: ما هذا؟ قال: لا أدرى حتى أسأل، فسأل ثم رجع إليه فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

وإنما كانت مكارم الأخلاق كلها كامنة فى هذه الآية الكريمة لأن الداعى إلى الله - وهو محمد ﷺ ومن اتبعه من الدعاة - مطالبون بهذه الأمور الثلاثة التى ذكرتها الآية الكريمة وهى:

- الأمر بالمعروف أى بكل ما فيه صلاح للناس فى دينهم ودنياهم، وأولى المعروف توحيد الله تعالى، ثم أداء حقوقه وحقوق عباده، والقيام بأداء كل واجب أوجبه الإسلام على الناس أفرادا وجماعات وحكومات.

ويدخل فى الأمر بالمعروف النهى عن كل ما يخالف المعروف وهو المنكرات كلها لما تتضمنه من ضرر منظور أو غير منظور للناس فى حاضرهم ومستقبلهم.

وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكل أحد، ينتشر الخير فى المجتمع وينحسم أكثر الشر، ويصبح الناس فى مقام طاعة الله والعز التى تورثه الطاعة، وببعده عن المعصية والذل التى تورثه لأصحابها.

وكل هذا يفهم من قوله تعالى: «وأمر بالعرف».

- وأمر النبى ﷺ والدعاة إلى الله من بعده أن يأخذوا من الناس ما يبذلونه مما عليهم من طاعة دون أن يشقوا عليهم أو يطلبوا منهم ما ليس ميسورا لهم، لأن من طالب الناس بما يشق عليهم خالف الله وأفسد الناس، ولأن المسلمين أُمروا بأن ييسروا ولا يعسروا.

وما يبذله الناس من طاعة أو يؤدونه من واجبات كثيرة يتناول تنفيذ كل أمر أمر الله به، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه، وفى كل ذلك لابد من التيسير لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.

- والأمر بالإعراض عن الجاهلين، أى عدم معاملتهم بالمثل. والجاهلون هم أنواع ثلاثة:

- الذين تخلو نفوسهم من العلم، فتجرى أفعالهم على غير نظام،
- والذين يعتقدون الشىء بخلاف ما هو عليه، فتجرى أعمالهم فى ضلال وسفه وإساءة،
- والذين يعملون الأعمال على خلاف ما يجب أن تكون عليه فتأتى أعمالهم مجرَّمة فيها الخطأ والخطيئة.

هؤلاء الجاهلون جميعا لا يجوز مقابلة جهلهم وسفاهتهم وإساءتهم بمثلها، وإنما تقابل بالإعراض عنهم حتى يهديهم الله تعالى، أو يجازيهم فى الدنيا أو فى الآخرة، فليس للدعاة من أمر هؤلاء الجاهلين شىء وإنما يتركون لله تعالى إن شاء عذبهم وإن شاء تاب عليهم **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾** [آل عمران: ١٢٨].

هذه الأمور الثلاثة:

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

وقبول العفو من الناس بحيث لا تصيبهم مشقة،

والإعراض عن الجاهلين والصبر عليهم والدعاء لهم.

هذه الأمور الثلاثة لو التزم الناس بها لاستقامت بهم شئون الحياة كلها، وهى أمور تجمع كل مكارم الأخلاق التى وردت فى القرآن مفردات مفصلة؛ كالصبر والصدق والإخلاص، والعدل والإحسان والبر والاستقامة والتوكل على الله والعفة والشجاعة والثبات والأمانة، وما لا أحصيه هنا فى هذا المجال.

- وقد قال أهل العلم بالأخلاق من المسلمين: إن منشأ الأخلاق الفاضلة هو: الصبر والعفة والشجاعة والعدل فمن هذه الأربعة تتولد الفضائل كلها.

كما قالوا: إن منشأ الأخلاق الراذلة هو: الجهل والظلم والشهوة والغضب، ومن هذه الأربعة تتولد كل الأخلاق الذميمة.

وقد اخترنا من الخلقيات الفاضلة التى تحكم الثبات؛ خمسة فضائل هى: الاستقامة، والصدق، والإخلاص، والصبر، والتوكل على الله، وهى أخلاق جامعة لغيرها من مكارم الأخلاق.

- وأما الأدبيات التى تحكم الثبات فقد اخترنا منها أربعة هى: الرجاء والخوف، والمراقبة لله تعالى، والورع، والطمأنينة وهى أخلاق تضم غيرها من مكارم الأخلاق أيضا.

وبعد: فبمثل هذه الأخلاق يكون الثبات بأنواعه الأربعة التى ذكرناها آنفا.

وسوف نوضح هنا أبرز الخلقيات التى تحكم الثبات، وإن كنا نؤمن بأن جميع الأخلاق الفاضلة المأمور بها من قبل الشرع تحكمه وتحدد أبعاده.

وإلى الحديث عن هذه الفضائل الخلقية الخمس التى اخترنا، والله ولى التوفيق.

أولا : الاستقامة

وهى من الخلقيات التى تحكم الثبات بل تكاد تكون أهم فضيلة تحكمه.

والاستقامة فى اللغة هى الاعتدال والاستواء.

وفى معانى كلمات القرآن الكريم هى لزوم الإنسان المنهج، والمنهج هو منهج الله المستقيم، ومنه قوله تعالى مخاطبا خاتم رسله عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ (١١٣)** ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣]. فالاستقامة فى الآية الكريمة:

الالتزام بالمنهج المستقيم «فاستقم كما أمرت»،

وترك التجاوز والطغيان والتزام الاعتدال،

وعدم الالتجاء إلى الذين ظلموا أو الميل إليهم أو التعويل عليهم فى شىء.

● وما دامت الاستقامة هى لزوم المنهج الإلهى، فلابد لها من دعم الثبات، وتقويته وتأكيده، لأن الثبات على الإيمان وعلى الحق والجهاد وعلى أعباء الدعوة والحركة والتربية والتنظيم أى العمل لتمكين دين الله فى الأرض، الثبات على كل ذلك واجب شرعا كما أوضحنا أكثر من مرة، ولا يعين على هذا الثبات مثل خُلُق الاستقامة.

● وهذه الاستقامة على المنهج الربانى الصحيح تقوم على ركنين أساسيين هما:

١ - الاقتصاد فى الطاعة قولا وعملا وسلوكا، وهذا الاقتصاد يعنى: السلوك الوسط بين الإفراط وهو الجور على النفس - ولو كان ذلك الجور فى العبادة نفسها - والتفريط وهو التقصير والتضييع.

٢ - والاعتصام بالسنة النبوية المطهرة فى كل قول وعمل وسلوك وفى كل صمت أو ترك، وذلك بسبب أن الاعتصام بالسنة خروج عن دائرتى الإفراط والتفريط، ودخول فى الاعتدال والوسطية.

● ولبعض أسلافنا الصالحين كلام جيد وجميل فى هذا المقام يقولون فيه:

«ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة» - وهى

الإفراط.

- وقد وعد الله أهل الاستقامة بأن يؤمنهم من الخوف والحزن، وبشرهم بالجنة التى وعدهم بها، كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٠].

- وأهل الاستقامة هم أهل الثبات على الإيمان وعلى الحق وقال فيهم جل شأنه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

- وجعل الله الاستقامة واجبا شرعيا فأمر بها نبيه وكل مؤمن إلى يوم القيامة، فقال عز من قائل: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

هذا من القرآن الكريم.

- أما السنة النبوية الكريمة فقد ورد فيها عن الاستقامة:

– ما رواه مسلم بسنده عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل فيه أحدا غيرك قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم».

– وروى ابن ماجة بسنده عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة..».

– وروى أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل رجل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه».

– وروى أحمد بسنده عن أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «...فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئا....».

– وروى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة...».

● وهذه الأحاديث الشريفة تطالب بالاستقامة على الدين أى الثبات عليه وعلى منهجه ونظامه، فى الحديث الأول، وتوضح أن الاستقامة فى حدود طاقة الإنسان، وأن بلوغ أعلى درجة فيها قد لا تتيسر إلا لقلة من الناس؛ « ... ولن تحصوا» أى قاربوا كمال الاستقامة ما استطعتم.

وأن الاستقامة تشمل القلب والجوارح، وأن لها مظاهر تدل عليها، فاستقامة اللسان تدل على استقامة القلب، واستقامة القلب تدل على استقامة الإيمان.

● فالاستقامة - كما يفهم ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة - كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين كله، فهى تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، ومعنى ذلك أن تكون هذه الأمور الأربعة: القول والفعل والحال والنية مستقيمة على منهج الله.

● وهذه الاستقامة بهذا المعنى تحكم خلق الثبات، وتلزم به، فليس هناك ثبات على الإيمان ما لم تكن استقامة عليه، وليس هناك ثبات على الحق، ما لم تكن استقامة عليه، وليس هناك ثبات على منهج الله تعالى ما لم تكن استقامة عليه، وليس هناك ثبات على مفردات العمل من أجل الإسلام من دعوة وحركة وتربية وتنظيم ما لم تكن استقامة على هذه المفردات.

● فالاستقامة إذن من خلفيات الثبات التى تحكمه وتوجهه وتيسّره.

ثانيا : الصدق

وهو من الخُلُقيات التى تحكم الثبات، وهو فضيلة بالغة الأهمية بين القيم الخلقية الإسلامية.

ومن معانى الصدق : الإخبار بالواقع،

والصدق فى القتال يعنى : الشجاعة والإقدام،

والصدق فى النصيحة وفى الأخوة فى الله هو : الإخلاص،

والصدق في الوعد هو : الوفاء،

والصدق عموما هو : مطابقة القول الاعتقاد والضمير، وهو ضد الكذب والنفاق،

والصدق أساس الإيمان كله، كما أن النفاق أساسه الكذب.

- وقال القشيرى رحمه الله فى الصدق :

« الصدق ألا يكون فى أحوالك شَوْب، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى أعمالك عيب ».

- الصدق بهذه المعانى كلها من خلقيات الثبات التى تحكمه وتلزم به.

- والصدق من أعلى المنازل وأرفع الدرجات، إذ هى درجة تلى درجة النبوة، كما يفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)** ﴾ [النساء : ٦٩].

والصادقون عند الله تعالى هم الذين جمعوا صفات الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل، وأنفقوا المال صدقة على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وكل سائل، وكل مُكاتب - لينال حريته الإنسانية، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، ووفوا بالعهد وصدقوا فى البأساء والضراء وحين البأس؛ من استوفى كل هذه الصفات فهو الصادق المتقى لربه سبحانه وتعالى، كما دلَّت على ذلك الآية الكريمة التالية : ﴿ .... **وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا**

عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالصدق فى هذه الآية الكريمة يعنى الإيمان والإسلام معًا كما يعنى قيما خلقية رفيعة كالصدقة على كل مستحقيها، والوفاء بالعهود، والصبر على البأساء والضراء.

● ومن الصدق نوعان:

– صدق العزم والقصد، أى قوة الإرادة فى طاعة الله تعالى والالتزام بمنهجه فى كل ما جاء به المنهج من عقيدة وعبادة وخلق، وطاعة الله فى الاستجابة لما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه.

– والصدق بمعنى: الأخذ بالأسباب التى تؤدى إلى رضى الله تبارك وتعالى، وأهم هذه الأسباب – كما يرى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثلاثة هى:

الجهاد فى سبيل الله،

وإحياء الليل بقيامه عبادةً،

ومدارسة العلم.

فقد روى عنه رضى الله عنه أنه قال: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء؛ لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقى أطايب التمر».

● ومن علامات الصدق التى تدل على خلوصه من أى شوائب أن يطمئن إليه القلب ويخلو من أى شك أو ارتياب فيه، كما أن من علامات الكذب حصول الشك والارتياب فيه، كما ينبئ بذلك الحديث النبوى الشريف الذى رواه الترمذى بسنده عن الحسن بن على رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «الصدق طمأنينة القلب، والكذب ريبة».

– وروى الدارمى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يرفعه إلى النبى ﷺ: «إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وإنه يقال للصادق صدق وبر ويقال للكاذب كذب وفجر، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا، وإنه قال لنا.....» الحديث.

● وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ٤ - ١١].

والحسنى التى يجب أن يصدق بها المؤمن هى الإيمان، فمن صدق بالإيمان يسر الله له أمره كله، ومن كذب بالإيمان لم ييسر الله له، ولم يغن عنه ماله ولا جاهه.

● والثبات على الإيمان وعلى الحق وعلى منهج الله تعالى محكوم بخلق الصدق، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

والمعنى فى طريق الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، لا جدوى من وراء المعنى فيه دون ثبات، والصدق عنصر رئيسى فى تشجيع المؤمن على الثبات.

ولولا الصدق فى القول والعمل والصمت والترك ما كان إيمان ولا كان عمل، ولا كان تمكين لدين الله فى الأرض، ولا كان ثبات على شيء من ذلك كله.

والصدق مرتبط أوثق الارتباط بالإخلاص، فما هذا الإخلاص الذى يرتبط بالصدق ويلزم بالثبات؟.

ذلك ما نجيب عليه فى الصفحات التالية بعون الله تعالى.

ثالثا: الإخلاص

وهو من الخُلُقيات التى تحكم الثبات، وتلزم به وبغيره من القيم الرفيعة.

● والإخلاص هو فى اللغة ترك الرياء.

- يقال أخلص لله دينه، وأخلص النصيحة لصديقه.

- وأخلصه: اختاره واختصه بدخيلة نفسه.

● والإخلاص فى الاصطلاح: تخليص القلب من الشوائب المكدرة لصفائه.

- وعلماء السلوك يقولون: الإخلاص أن لا تطلب لعملك شاهدا غير الله.

- والفضيل بن عياض رحمه الله يقول فى الإخلاص: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص هو الخلاص من هذين.

● والفرق بين الصدق - الذى تحدثنا عنه آنفا - والإخلاص، هو أن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع.

● وحقيقة الإخلاص: تصفية العمل من كل ما سوى الله تعالى، بحيث لا يخالط رغبة من إرادات النفس مثل: أن يعمل لكى يصل إلى شىء أو غرض مما يلى:

- طلب التزين عند الناس، أو طلب مدحهم، أو تجنب ذمهم.

- أو طلب تعظيم الناس له من أجل إخلاصه.

- أو طلب أموالهم وخدماتهم، ومحاولة الوصول إلى أن يحبه الناس، أو يقضوا له حوائجه.

● وإنما الأصل - فى الإخلاص فى العمل - أن يقوم الإنسان بالعمل، طالبا رضا الله تعالى وحده بهذا العمل، وكل عمل يقوم به المؤمن يجب أن يكون خالصا لله تعالى وحده.

● ولهذا الإخلاص شروط ما لم تتوفر له لا يصبح إخلاصا، من هذه الشروط ما نذكره فيما يلى:

- أن يتخلص العمل من رؤية صاحبه له، أو العوض عنه، فضلاً عن الإعجاب به والرضى عنه والسكون إليه، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم**

مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٢١]، فكل عمل خير يقوم به الإنسان إنما هو من فضل الله تعالى، وعلى العامل أن يعرف ذلك ويوقن به، حتى يصبح عمله خالصا لله تعالى.

– وأن يخجل العامل من عمله، وأن يراه دائما أقل مما يجب أن يقوم به، ويسأل الله تعالى أن يوفقه لما هو أفضل منه وأرجى عند الله تعالى.

– وأن يوقن أنه مهما بذل فى عمله من جهد وما حاوله فيه من تحسين وتجويد، فإنه إما أن يقبله بفضل منه ورحمة وإما ألا يقبله، فعليه مع هذا التجويد والإتقان أن يسأل الله تعالى القبول، أى يسيطر عليه الخوف من عدم القبول، ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، إذ لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: وهو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه».

– وأن لا يعتمد العامل على عمله، لأن ذلك يؤدى إلى نقصان الرجاء فى الله تعالى، ونقص الرجاء فى الله تعالى غرور يدل على ضعف الإيمان بل ضعف العقل، لأن الأصل فى المؤمن أن يعيش دائما على حذر من الآخرة ومما يحدث فيها وعلى رجاء رحمة ربه، ويفهم ذلك من قوله تبارك وتعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

– وأن يوقن العامل أنه مهما بذل فى عمله من جهد، ومهما خلصه من الشوائب، وعاش معه على الخوف والرجاء، يوقن بأنه لو نال عليه جزاء من الله، فإن هذا الجزاء ليس فى مقابل العمل وإنما هو تفضل من الله تعالى، ويفهم ذلك من كلام المعصوم ﷺ، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة، ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته، فسددوا وقاربوا، ولا يتمن أحدكم الموت، إما محسن فلعله يزداد خيرا، وإما مسيء فلعله أن يستعتب».

● هذه شروط الإخلاص فى العمل أيًا كان هذا العمل، قولا أو صمتًا، فعلا أو تركا، وهى شروط كلها مفهومة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن فقدت أو فُقد شيء منها أتى العمل بغير إخلاص، أى دخله ما يبطله من رياء وغيره، أعاذنا الله من ذلك ووفقنا إلى العمل الصالح الخالص لوجهه الكريم.

● والثبات على الإيمان وعلى العمل الصالح، وعلى الحق، وعلى أهوال ما يلقاه العاملون فى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، الثبات على ذلك كله مطلب شرعى كما قلنا ذلك أكثر من مرة فى هذا الكتاب.

● والثبات على كل ذلك يحتاج إلى الإخلاص، وبغير إخلاص يحبط كل عمل، بل كان فقد الإخلاص سببا مباشرا فى عقاب من فقد الإخلاص، لأنه قصد بعمله غير وجه الله[1].

ومن ذلك ندرك أنه لا ثبات بغير إخلاص، وأن الإخلاص قيمة خلقية ضرورية لكى يكون الثبات بكل معنى من معانيه التى ذكرنا آنفا.

وبعد فربما كان الإخلاص المؤدى إلى الثبات من أشق الأعمال على الإنسان ومن أرجاها عند الله، لذلك كان دائما فى حاجة إلى صبر يؤيده.

فما مكانة الصبر فى الحث على الثبات؟

ذلك ما نجيب عليه فيما يلى والله الموفق.

---

(١) لمن أراد التوسع فى استيعاب معانى الإخلاص.. انظر للمؤلف الحلقة الثانية من هذه السلسلة «الإخلاص».

رابعا : الصبر

وهو من الخلقيات التى تحكم الثبات، وتجعله سهلا مستطاعا وتعين على الالتزام به.

ومن معانى الصبر :

– التجلد وترك الجزع عند الشدائد، وقبول ما تجرى به المقادير دون تذمر.

– والانتظار فى هدوء وطمأنينة نفس، انتظار رحمة الله وفرجه من كل ضيق وشدة.

– وكف النفس عن شهواتها، أى منعها عما لا يحل لها.

كل تلك من معانى الصبر التى تفهم من دلالة الكلمة فى اللغة.

- أما الصبر عند علماء الشريعة فهو : حبس النفس عن الجزع وعن السخط، وحبس اللسان عن الشكوى – إلا إن كانت لله تعالى – وحبس الجوارح عن المعاصى.

والصابر من كانت هذه صفاته، أى من كان ملتزما بمنهج الله تعالى فى عقيدته وعبادته وأخلاقه.

- وهذا الصبر نتيجة للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فالمؤمن لابد أن يصبر.

والصبر يوجب على صاحبه أن يوقف نفسه ويطلعها على سنن الله وآياته، وأن يلزم قلبه وعقله وجوارحه بسنة الرسول ﷺ.

- وخلق الصبر واجب على كل مسلم ومسلمة أوجبته آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبى ﷺ، وإجماع السلف رضوان الله عليهم.

- فمن آيات القرآن الكريم :

– قوله تبارك وتعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٣ - ١٥٧].

وفى هذه الآيات رفع لقيمة الصبر وإعلاء لشأنه ودليل ذلك ما يلى:

- أنه قرين الصلاة التى هى أهم أركان الدين بل عموده وعماده، فهو يستعان به كما يستعان بالصلاة، يستعان بهما على الأمور الشاقة فيسهل عليهم القيام بها لأنهم بالصبر فى معية الله.

- وأنه يجعل صاحبه فى معية الله تبارك وتعالى بكل تأكيد «وإن الله مع الصابرين» ومن كان الله معه فحسبه شرفا وعزا وقدرة على أداء كل الواجبات.

- والصبر يؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة، فما ينبغى لأحد أن يقعد عن الجهاد فى سبيل الله أو يرهب الموت بل يصبر عليه إن حدث، فهو حياة لا موت وإن كان الناس فى عمومهم لا يحسون بها.

- والصبر درع المؤمن وسلاحه الذى يواجه به الشدائد ويتغلب عليها، وهذه الشدائد منها خوف الأعداء، ومنها الفقر والجوع وقلة الزاد، ومنها النقص فى الأموال والأنفس والثمرات، وكل ذلك ابتلاء لا يتغلب عليه المؤمن إلا بالصبر.

- وأمر موجه إلى النبى ﷺ بأن يبشر الصابرين الذين إذا نزل بهم ما يؤلمهم آمنوا أن الأمر كله بيد الله، ولذلك يقولون: إنا ملك لله تعالى وراجعون إليه، فليس لنا من أمرنا شىء على وجه الحقيقة، فله الشكر على العطاء، وعلينا الصبر عند البلاء.

- هؤلاء الصابرون المؤمنون بالله لهم البشارة بغفران الله تعالى لهم وإحسانه إليهم فهم المهتدون إلى طريق الخير والرشاد.

- ومن الآيات الموجبة للصبر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال المفسرون فى هذه الآية عبارة جميلة اللفظ والمعنى حيث قالوا: «اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء، ورابطوا فى دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء».

وقال بعض العلماء: المرابطة الثبات وإعداد القوة.

– والله تعالى يحب الصابرين، ومع الصابرين، ويجزى الصابرين بأحسن ما كانوا يعملون، ويوفيهم أجرهم بغير حساب(١).

● والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقال أسلافنا رحمهم الله تعالى: لا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

● وأما الأحاديث النبوية فى الصبر فكثيرة نذكر منها ما يلى:

– روى مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

فالصبر خير كله للمؤمن فى جميع أحواله، كما ينبئ هذا الحديث.

– وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ما أعطى أحد عطاء خيرا له، وأوسع من الصبر».

– وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت رديف النبى ﷺ فقال: «يا غلام – أو يا غُلَيم – ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، فقلت بلى يا رسول الله، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه فى الرخاء يعرفك فى الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

– وروى البخارى بسنده عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؛ فقال: «الصبر والسماحة».

وقال أسلافنا رحمهم الله فى الصبر: إنه درجات.

---

(١) بذلك وردت الآيات الكريمة: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [الزمر: ١٠].

– **وأول درجات الصبر :**

الصبر عن المعاصى، أى اجتناب ما نهى الله عنه، وقد نهى سبحانه وتعالى عن كل إثم وشر ومعصية له سبحانه وتعالى، واجتناب الإنسان للمعصية – أى الصبر عنها – فيه حفاظ على الإيمان قويا سليما خاليا من كل ما يضعفه أو يذهبه لأن المعصية إذا تعود عليها الإنسان أو كررها ذهبت بإيمانه.

– **وثانى درجات الصبر :**

الصبر على الطاعات، أى امتثال ما أمر الله به، وما أمر سبحانه وتعالى إلا بكل بر وخير وطاعة له سبحانه وتعالى، وإنما يكون الصبر على الطاعة بأدائها والصبر على ما يحتمل أن يكون فيها من متاعب حرب الشيطان ومقاومة الشهوات.

– **وثالث درجات الصبر :**

الصبر تسليما لقضاء الله تعالى وقدره، وتلك أرقى درجات الصبر، وذلك أن بعض الناس يتردد فى تقبل ما يجرى به القضاء والقدر، ويتهم كذا وكذا ويلوم كذا وكذا ويقول لو أن كذا وكذا . . . وفى كل ذلك ما يضعف الإيمان ويهزله بل ربما قضى عليه، وعندئذ يكون الصبر على البلاء والمحنة إيمانًا بالقضاء والقدر، والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان الستة المعروفة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره) على نحو ما هو معروف فى الحديث النبوى الشريف الذى كان فيه جبريل عليه السلام يسأل والرسول ﷺ يجيب.

- والثبات على الإيمان وعلى الحق وعلى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وعلى متاعب الدعوة والحركة والتربية والتنظيم وكل عمل يؤدى إلى تمكين دين الله فى الأرض، كل ذلك يحتاج إلى صبر، بل إلى صبر جميل.

وليس يخفف المتاعب والمشاق شىء مثل الصبر، لأن الصبر احتساب للأجر عند الله تعالى.

وبغير الصبر فلا ثبات.

وبغير الثبات يضيع الإيمان كله.

فالصبر من أهم الخلقيات التى تحكم الثبات وتشجع عليه، والصبر يتضمن توكلا على الله تعالى، فما صلة التوكل بالثبات؟.

ذلك ما نحاول الإجابة عليه فيما يلى، ومن الله العون والتوفيق.

خامسا : التوكل على الله تعالى

وهو رأس الخُلُقيات التى تحكم الثبات، وتمد الإنسان بأسبابه، بل تجعله عذبا مستساغا مهما كانت معه الآلام والمتاعب والغصص، كل ذلك يزول أثره بالتوكل على الله تعالى.

- التوكل على الله: الاستسلام إليه والاعتماد عليه، وضده التواكل وهو التوكل على الناس وترك العمل، وهو رذيلة حرمها الله تعالى.

- والتوكل على الله – فى اصطلاح أهل الحقيقة – هو: الثقة بما عند الله، واليأس مما عند الناس وفى أيديهم.

وهو فضيلة أخلاقية لها عند الله أحسن الجزاء وهو حب الله تعالى للمتوكلين عليه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن توكل على الله كفاه وجنبه ما يخافه وبلغه ما يرجوه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٣].

- والتوكل فى المؤمن صفة من صفات كمال إيمانه، كما يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢].

- وقد علمنا رسول الله ﷺ أن التوكل على الله حق التوكل يتسبب بإذن الله فى قضاء الحاجات الدنيوية فضلا عن الأخروية، وذلك فيما رواه الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا».

- وقال أسلافنا من العلماء: إن التوكل على الله نصف الدين، والنصف الثانى: الإنابة، وقالوا فى تعليل ذلك إن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل على الله هو الاستعانة به، والإنابة هى عبادته وفق ما شرع.

● والمتوكلون على الله تعالى أصناف بحسب نوع توكلهم عليه ونشير هنا إلى بعض هذه الأنواع فيما يلى :

- النوع الأول :

أولياء الله، وهؤلاء يتوكلون على الله فى الإيمان به، ونصر دينه وإعلاء كلمته سبحانه وتعالى، وجهاد أعدائه، ويتوكلون عليه فى طاعته، وتلك منزلة فى التوكل لا تعلوها منزلة .

- والنوع الثانى :

هم الذين يتوكلون على الله فى استقامتهم على شرعه ومنهجه، وحفظ حالهم عند الله، وتفرغهم مما عند الناس، وهؤلاء أقل منزلة من أولئك .

- والنوع الثالث :

هم المتوكلون على الله فيما ينالون من رزق وعافية ونصر على عدو، أو زوجة أو ولد، أو نحو ذلك من طيبات الحياة الدنيا .

- والنوع الرابع :

هم الذين يتوكلون على الله طامعين أن ينجيهم مما قد يقعون فيه من الإثم أو المهالك أو الشرور .

ولكن الأنواع الأربعة من أهل التوكل على الله ومن المأجورين على توكلهم بإذن الله تعالى .

● والتوكل على الله فى الواجب واجب، كالتوكل عليه فى الحق، وفى واجب الخلق، وواجب النفس .

وأفضل هذا التوكل هو التوكل على الله فى جلب مصلحة دينية أو فى دفع مفسدة دينية، وهذا هو توكل الأنبياء عليهم السلام . وتوكل ورثتهم من الدعاة إلى الله الذين اصطفاهم الله ليحملوا عبء الدعوة إليه .

● ومن الحقائق المقرَّرة فى تاريخ المسلمين أن من توكل على الله حق التوكل فى حصول من مأمول حصل بفضل الله وناله صاحبه .

● ومن الحقائق أيضا أن التوكل على الله لاينافى الأخذ بالأسباب كما أجمع على ذلك العلماء من الصحابة والتابعين والمسلمين فى كل زمان، حيث قرروا أن التوكل على الله لايصح إلا مع الأخذ بالأسباب، وإلا كان تواكلا وتبطلا وفسادا.

● والثبات على الإيمان وعلى الحق والطاعة، وعلى الجهاد فى سبيل الله، وعلى مشاق الدعوة والحركة والتربية والتنظيم؛ يحتاج دائما إلى التوكل على الله تعالى والتسليم والتفويض إليه فى كل شيء ذى بال، مع الأخذ بالأسباب.

- وبغير هذا التوكل على الله قد يكون الاعتماد على النفس أو العمل أو الناس، وكل ذلك ينفى التوكل على الله.

- ومن ترك الأخذ بالأسباب مع توكله على الله فقد وقع فى محاذير شرعية تؤدى به إلى العقاب.

وبعد: فإن هذه الخُلُقيّات من استقامة وصدق وإخلاص، وصبر وتوكل على الله، شروط واجبة فى الثبات، إذ لاثبات إلا بها، ونستطيع أن نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وتلك الآية الكريمة التى استشهد بها الإمام البنا فى حديثه الموجز عن الثبات.

وإذا كانت هذه هى الخلقيات التى تحكم الثبات وتوجبه فما هى الأدبيات التى تحبب فيه وتدفع إليه؟

ذلك ما نجيب عليه فى الصفحات التالية، سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

٢ - الأدبيات التى تحكم الثبات

لايعد الثبات على الإيمان والحق والجهاد وأعباء الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، لايعد ثباتا صحيحا إلا إذا تمثلت فيه أدبيات الإسلام مع خلقياته التى تحدثنا عنها آنفا.

● وقد أشرنا من قبل إلى أننا نعنى بالأدبيات فى هذا الكتاب، تلك الصفات التى حبَّبَ الله تعالى فيها وفى الاتصاف بها، أو تلك الصفات التى كرَّه المسلمين فى أن يتصفوا بها، وهذه الصفات المحبَّبة أو المُكرَّه فيها، لم تبلغ درجة الواجب ولا درجة الحرام، وإنما بقيت فى درجة المندوب إليها، أو المكروه الاتصاف فيها.

● والمندوب: هو ما دعا إليه الشارع من أمر - كما تقول كتب اللغة.

أما فى اصطلاح علماء الفقه الإسلامى وأصوله، فالمندوب هو: ما كان فعله خيراً من تركه، أى ما كان فعله مطلوبا شرعا من غير ذم على تركه مطلقا.

أو هو ما يمدح على فعله ولايذم على تركه، وهو ليس مأمورا به، وقد فهم من كلام النبى ﷺ، فقد روى الترمذى بسنده عن زيد بن خالد الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، ولأخرتُ العشاء إلى ثلث الليل».

- وما رواه النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء، ومع وضوء سواك».

- والمندوب مساوٍ للمباح فى التخيير بين الفعل والترك من غير حرج، مع زيادة الثواب على الفعل.

● وأما المكروه فهو ما كان تركه يحقق مصلحة راجحة، وإن لم يكن منهيا عنه، كترك المندوبات، وهو مكروه تنزيها فى الغالب. لأنه إلى المباح أقرب.

● وهذه الأدبيات كما أوضحنا، ليست من الواجبات ولا هى من المحرمات. ولكنها فى حالة المندوبات يكون فعلها أولى، وأجلب للثواب، وفى حالة المكروهات يكون تركها أولى وأبعد من العقاب.

وهذه الأدبيات وثيقة الصلة بالخُلُقيات، وإن الخلقيات من استقامة وصدق وإخلاص

وصبر وتوكل على الله تعالى، واجبة شرعا على نحو ما أوضحنا آنفا، أما المندوبات فهى مستحسنة لا واجبة – كما أوضحنا أيضا –.

● وتلك المندوبات التى أسميناها أدبيات تحكم الثبات زتشجع على الصبر عليه هى – كما نتصور – ما يلى:

الرجاء مع الخوف،

والمراقبة،

والورع،

والطمأنينة.

وغيرها كثير، لأن باب المستحسنات واسع وأنواعها كثيرة، لكننا اقتصرنا منها على هذه الأربعة لما نشعر به من شدة اتصال هذه الأربعة بالثبات.

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى توضيحها وهو سبحانه المستعان.

أولا: الرجاء والخوف

والرجاء في اللغة: الأمل في شيء محبوب.

وهو يستعمل أيضا في الخوف، وأكثر ما يكون ذلك مع النفي، كما جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)** ﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

– والرجاء في الاصطلاح: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل، ويختص الرجاء بأنه يخفف حرارة الخوف حتى لايؤدى إلى يأس صاحبه.

– وفي مجال العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات نجد الرجاء في الله مقرونا بالحب له سبحانه وتعالى والخوف منه.

وبهذه الثلاثة: الرجاء والحب والخوف تتضح معالم الطريق إلى الله تعالى، بشرط أن تكون هذه الثلاثة نابعة من القرآن الكريم وتوجيهاته، ومن السنة النبوية المطهرة، لا أن تكون من تخيلات الإنسان وشطحاته.

– ففي آيات القرآن الكريم إشادة بأهل الرجاء والحب لله والخوف منه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)** ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ومن قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)** ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ففي هاتين الآيتين وأمثالهما في القرآن الكريم قد أثنى الله تعالى على عباده بأفضل أحوالهم من الرجاء والحب والخوف.

– ومن كلمات السنة النبوية المطهرة:

– ما رواه الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يارسول الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله

ﷺ : «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف».

وهذا الحديث الشريف ملىء بالإيحاءات والدلالات التى يجب أن يطمئن إليها كل من ألم به أذى أو مكروه، وبخاصة إذا كان هذا المكروه فى سبيل الله: ومن ذلك ما نسوقه فيما يلى:

- أن الإنسان عندما يلم به مكروه من مقدمات موت ونحوه عليه أن يرجو الله تعالى وأن يخاف ذنوبه وما قد توقعه فيه من عذاب فتلك أخلاق المؤمنين، لاييأسون ولايفترون ولاينسون الله عز وجل.

- وأن قلب المؤمن إذا اجتمع فيه رجاء الله وخوف ذنوبه أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف.

- وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم ليسأل يوم القيامة حتى يكون فيما يسأل عنه أن يقال: ما منعك أن تنكر المنكر إذ رأيته؟ قال: فمن لقنه الله حجته قال: رب رجوتك وخفت الناس».

ومن لقنه الله حجته فهو من أسعد الناس، وما يلقن الله الحجة إلا لمن كان قلبه عامرا بالرجاء فى الله والخوف من الذنوب والمعاصى.

- وروى أحمد بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايستمتع بالحرير من كان يرجو أيام الله»

ومعناه أن رجاء الله تعالى وخوف أيامه وما قد يحدث فيها من حساب وعقاب يمنع المؤمن من مخالفة أى أمرٍ أمرَ الله به، أو نهيٍ نهى عنه.

- وروى أحمد بسنده عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ... دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، أصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت».

● وكل محبة لله تعالى فهى مصحوبة بالرجاء له والخوف منه وهكذا شأن المحب المخلص لحبيبه.

● وقد اتفق العلماء على أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل خائف راج، وكل راج خائف.

ومن فوائد الرجاء والخوف أن فى الرجاء والترقب لفضل الله ما يوجب تعلق الخائف الراجى بذكر الله دائما، وفى ذلك الخير كل الخير.

● وأفضل ما يكون الرجاء أو الخوف إذا كان يبعث فى صاحبه الرغبة فى الطاعات والعمل الصالح، ويحول بينه وبين المعاصى وكل ما نهى الله عنه، ذلك هو الذى يجعل الرجاء والخوف مستحبا ومندوبا للعابد، ومجالا طيبا للحصول على مزيد من رضا الله تعالى ومثوبته.

● والأصل فى المؤمن الراغب فى رضا الله أن يجاهد نفسه بترك كل ما كرَّه الله فيه، وفعل كل ما ندب الله إليه، وكلما نجح فى ذلك انتقل إلى ما هو أعلى من ذلك مجتهدا محتسبا عند الله تبارك وتعالى الأجر والمثوبة، نعم والله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾ [الكهف: ١١٠].

● والرجاء والخوف لابد أن يراعى فيهما حدود ما شرع الله وأن يكونا مقيدين بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

والثبات على الإيمان وعلى الحق والطاعة، وعلى متاعب الدعوة والحركة والتربية والتنظيم والعمل على تمكين دين الله فى الأرض يحتاج إلى رجاء الله تعالى فى التوفيق والتأييد والنصر، ويحتاج إلى خوف الله من أى تقصير فى هذه الأعمال الجليلة التى بدونها لايمكَّن لدين الله فى الأرض.

وبالرجاء والخوف يتخلص المؤمن من غفلة القلب، وفى ذلك ما فيه من الخير للإنسان فى دنياه وآخرته.

● فالرجاء والخوف من الأدبيات التى تدعم الثبات وتشجع عليه وعلى الاستمرار فيه.

ثانيا : المراقبة لله تعالى

المراقبة في اللغة : الملاحظة والانتظار .

ومن معانيها : المحافظة والخوف والخشية والحذر، يقال رقبه أى خافه وحذر منه .

- وفى الاصطلاح هى : استدامة علم المؤمن باطلاع ربه عليه فى جميع أحواله ظاهرها وباطنها .

وأن من يراقب الله تعالى يحذره ويخشى عقابه إن هو عصاه .

وأن مراقبة الله تعالى لعبده هى مراقبة شاملة لكل أعماله، بل هى مراقبته تعالى لكل مخلوقاته من الناس وغيرهم، فما من مخلوقات الله شيء إلا والله تعالى يراقبه كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا** ﴾ [الأحزاب :٥٢] .

- والدليل على أن الله تعالى يراقب عباده آيات كثيرة فى القرآن الكريم، نذكر منها ما يلى :

- قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الشعراء :٢١٧-٢٢٠] .

- وقوله جل شأنه : ﴿ ... **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)** ﴾ [غافر :٤] .

- وقوله سبحانه وتعالى :﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر :١٩] .

- وقوله عز من قال : ﴿ ... **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ** ﴾[النساء :١] .

- وقال بعض العلماء : من راقب الله فى خواطره عصمه الله فى حركات جوارحه .

- وقال ذو النون المصرى : علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله .

- وقال بعض الأسلاف رحمهم الله تعالى : الرجاء يحرك إلى الطاعة، والخوف يبعد عن المعصية، والمراقبة تؤدى إلى طريق الحقائق .

– وأوضح ما تعرف به المراقبة ما جاء فى حديث جبريل عليه السلام وهو يسأل الرسول ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، حيث سأله: «وما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

– والمراقبة عمل متبادل بين العبد وربه، فعلى العبد أن يوقن أن الله يراقبه، وأن يراقب هو الله تعالى.

● وللمراقبة آداب يجب أن تراعى، ومن هذه الآداب ما نذكره فيما يلى:

– حضور القلب وامتلاؤه بعظمة الله عز وجل، حتى يكون الأنس به سبحانه والحب له والسرور والسعادة بمعيته، وهذا السرور وتلك السعادة تبعث دائما على الازدياد من الطاعات والابتعاد عن المعاصى.

– واليقين بأن الله تعالى يراقب أقوال عبده وأعماله ويعلم ما يخفى وما يعلن، ومن أيقن بذلك استقام باطنه وظاهره، وتطهر باطنه من الوساوس والشبهات، ونفى عن ظاهره المعاصى والآثام.

– والجد والاجتهاد فى السعى إلى الله تعالى فى حدود ما شرع بامتثال كل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه، والإقبال على ما ندب إليه وحبب فيه والابتعاد عما كرَّه فيه.

– وقبول قضاء الله وقدره فى كل ما يجرى عليه، لأن أى تردد فى قبول القضاء والقدر زعزعة للإيمان ذاته، قد تؤدى إلى التمرد ورفض القضاء والقدر أو السخط عليه – أعاذنا الله من ذلك ومن أسبابه ودواعيه – أكدّ هذا كلام المعصوم ﷺ، فقد روى أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

● والثبات على الإيمان وعلى الحق والطاعة، وعلى الجهاد فى سبيل الله، وعلى أعباء الدعوة والحركة والتربية والتنظيم؛ يحتاج إلى التأدب بأدب مراقبة الله تبارك وتعالى، فإذا حدثت تلك المراقبة كان من نتائجها خير كثير، نذكر من أنواعه ما يلى:

– الإخلاص بتطهير الباطن من الشوائب والمكدرات، مما يفتح القلب على حب الله تبارك وتعالى، والأنس به وبطاعته، والاستيحاش من المعاصى وكل ما يكرهه الله لعباده المخلصين.

– والطاعة والاستجابة لكل ما أمر الله به أو ندب إليه، وهذا يطهر الجوارح كلها، ويجعلها ملتزمة بمنهج الله تعالى الذى اختاره لعباده ليكونوا أقرب إليه سبحانه.

– وحب من أحب الله وأطاعه، وبغض من أبغض الله تعالى وعصاه، لأن من نتائج مراقبة الله تعالى موالاة من يواليه، ومعاداه من يعاديه، فذلك من صميم الإيمان.

● ومراقبة الله تعالى أدب رفيع فى الثبات على الإيمان والحق والطاعة و...

● ومن فقد الثبات خسر إيمانه، ولم يتواص بالحق ولم يصبر عليه، ولم يقبل على الطاعة، وربما فر من المعركة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، ولابد أن يضيق بأعباء الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، فيتخلى بذلك عن موكب العاملين على التمكين لدين الله فى الأرض!!!

غير أن هذه المراقبة بتلك المعانى التى ذكرنا يساندها ويعززها ويرشد خطاها الورع، فكيف يكون هذا الورع من أدبيات الثبات؟

ذلك ما نحاول أن نجيب عليه فى الصفحات التالية، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

ثالثا : الورع

الورع فى اللغة: التَّحرُّج والتأثم، وتوقى المحارم.

وفى الاصطلاح: هو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع فى المحرمات.

- وقيل الورع هو أن تدع ما لابأس به حذراً مما به بأس.

- وقيل: هو الخروج من الشهوات، وترك السيئات.

- وقال الحسن البصرى: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

- وقال سفيان الثورى: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك فى صدرك فاتركه.

● ويرى بعض المفسرين لكتاب الله أن قول الله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر:٤]؛ تعنى الورع، أى تطهير النفس من الذنب فكنَّى عن النفس بالثوب.

ويرى ابن عباس رضى الله عنهما أن معنى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ أى لاتلبس ثيابك على غدر ولا معصية.

والمعنى: طهر نفسك من الغدر والمعصية.

● وقال بعض العلماء: جمع النبى ﷺ الورع كله فى كلمة واحدة فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه» رواه الترمذى وابن ماجة بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.

والمعنى أن من حسن إسلام المرء أن يترك ما لايعنيه من الكلام والنظر والاستماع والمشى والبطش والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة.

وقال بعض العلماء: الورع هو ملازمة الأعمال الجميلة.

● وهذا الورع مطلب شرعى للمحافظة على كمال الإيمان، وسلامة الإسلام واستمرار الإحسان، وممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والشوق إلى الجهاد فى سبيل الله، وتحمل متاعب الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، واستئناس الطريق - على الرغم من وعورته - إلى التمكين لدين الله فى الأرض.

● وللورع آداب - وإن كان هو من الآداب - ومن هذه الآداب التى يجب أن تتوفر للورع ما

نذكر بعضه فيما يلى :

– تجنب المحارم والقبائح والمكروهات؛ لأن تجنب ذلك صيانة للإيمان من أن ينقص أو يخدش، لأن الإيمان كما هو معروف؛ وإن كان يزيد ويقوى بالطاعات، فإنه ينقص ويضعف بالمعاصى والمكروهات .

– والإقبال على التقوى، فهى معنى من معانيه، والتقوى : هى جعل النفس فى وقاية مما يخاف، وحفظ النفس عما يُؤثِمّ، ويتم ذلك بالتورع عن كل ما يخدش الإيمان .

وإذا كان الورع والتقوى يتبادلان المواقع، فإن التقوى وردت فى القرآن الكريم بصيغة فعل الأمر الموجه للناس جميعا، وأحيانا للنبى نفسه ﷺ وللمؤمنين المخلصين المجاهدين أكثر من سبعين مرة، كما ورد فى القرآن الكريم الثناء على المتقين أكثر من عشرين مرة .

وفى كل موقع من هذه المواقع فإن التقوى كالورع فى تجنب ما يغضب الله تبارك وتعالى .

● ومن الأحاديث النبوية فى التقوى بمعنى الورع عدد كبير جدا نذكر منها الشاهد والمثال فيما يلى :

● روى أبو داود والترمذى بسنديهما عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» .

● وروى الطيالسى وابن حبان بسنديهما عن جابر بن سليم الهجيمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اتق الله ولاتحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط» .

● وروى أحمد والترمذى بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولاتكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» .

● وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عدى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» .

– ومن آداب الورع ترك كثير من المباح خشية الوقوع فى المحرَّم، فقد روى الطبرانى فى المعجم

الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «الحلال بيّن والحرام بيّن، فدع ما يريبك إلى ما لايريبك».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات لايعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه...»(1).

– ومن آداب الورع عدم الاقتراب من حدود الله – أى حدود ما حرم الله – فضلا عن انتهاكها أو الوقوع فى إثمها، وذلك يفهم من قول الله تعالى: ﴿ ...**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** (١٨٧) ﴾ [البقرة: ١٨٧] أى لاتقربوها لتتجاوزوا ما تضمنته.

وكما يفهم من قوله تعالى: ﴿ .. **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٢٢٩) ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قال المفسرون فى هذه الآية الكريمة: لاتتعدوا ما أبحتُ لكم، ولا تقربوا ما حرمتُ عليكم، ولا شك أن هذا وذاك داخل فى الورع لأنه تطهير للنفس مما يدنسها.

- وبعد فإن هذا الورع بكل معنى من معانيه وبكل أدب من آدابه يحكم الثبات ويدل عليه ويحفز إلى السير إليه والتمسك به، ويعين على المضى فى طريقه.

وقد قلنا أكثر من مرة: إن الثبات يعنى: الثبات على الإيمان وعلى الحق والطاعة وعلى الجهاد فى سبيل الله وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، على متاعب كل ذلك ومشقاته وعلى متاعب الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، وكل ما يؤدى إلى التمكين لدين الله فى الأرض.

والورع يعين على تحقيق ذلك كله، ويعلم المسلم الصبر واحتساب الأجر عند الله تعالى، بل يزين لصاحبه طريق هذه الأعمال كلها.

فالورع – كما نقول – من أدبيات الثبات بل هو أساس فى التشجيع على الثبات، أقول هذا لكل من تحدثه نفسه بالتقليل من شأن الورع.

---

(١) والأحاديث النبوية فى هذا المجال أكثر من أن تحصى من خلال نظر فى كتب السنة النبوية المطهرة.

وإذا كان الإنسان ورعا، فلابد أن تسكن نفسه ويطمئن قلبه إلى ما يقوم به من عمل، ليجزى جزاء المطمئنين إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وفى الصفحات التالية : نبين هذه الطمأنينة ونوضح أنها من أدبيات الثبات. والله ولى التوفيق.

رابعا : الطمأنينة

الطمأنينة فى اللغة : السكون والثبات والاستقرار.

ومن معانيها الثقة، وعدم القلق.

واطمأن القلب : سكن بعد انزعاج، ولم يقلق.

● وفى الاصطلاح : الطمأنينة سكون القلب إلى شيء، وعدم قلقه، وأهم ما يسكن إليه القلب هو الاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره.

● وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تثنى على المطمئنة قلوبهم الراضين بما لابد من الرضا به، ومن ذلك :

- قوله تبارك وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد :٢٨].

والمعنى فى هذه الآية الكريمة أن الذين آمنوا هم الذين تسكن قلوبهم عند ذكر الله تعالى بالقرآن الكريم وبغيره من أنواع الذكر، وأن هذه القلوب لاتسكن وتطمئن إلا بتذكر عظمة الله تعالى وقدرته، وطلب رضاه، وإنما يطلب رضاه سبحانه بطاعته.

- وقوله عز وجل :﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠].

والمعنى : أن النفس المطمئنة بالإيمان والحق، يقال لها : ارجعى إلى رضوان ربك راضية بما أوتيت من النعم، مرضية بما قدمت من عمل، فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين وادخلى جنتى دار النعيم المقيم.

- وقوله جل شأنه : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل : ١١٢].

والمعنى : أن الله تعالى جعل لأهل مكة مثلا يعتبرون به هو قصة قرية من القرى، كان أهلها فى أمن من أعدائهم، وطمأنينة على رزقهم ومعاشهم حيث يأتيهم - بفضل الله -

رزقهم واسعا من كل مكان، وقد سكنوا إلى ذلك واطمأنوا إليه، لكنهم جحدوا نعم الله عليهم ولم يقوموا بواجب الشكر من طاعته سبحانه وامتثال ما أمر به وما نهى عنه، فكان أن عاقبهم الله تعالى بالمصائب التى أحاطت بهم من جوع وخوف.

– وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)** ﴾ [الأنفال: ٢].

والوجل فى هذه الآية – هو الخوف – والطمأنينة فى الآيات السابقة، أو الجامع بين الوجل والطمأنينة هو السكون والاستقرار، وقد قال العلماء: إن المؤمن إذا ذكر وعيد الله وعقوبته ولم يأمن على نفسه أن يعصى ربه فيعاقبه؛ وجل وخاف، وإذا ذكر وعد الله وثوابه ورحمته سكن قلبه واطمأنت نفسه.

فالطمأنينة سكون يقويه أمن صحيح، وهى نتيجة من نتائج سكون يقويه آثارها، بل تعد نهاية لها.

● وأما السنة النبوية المطهرة فقد وردت فيها أحاديث تمتدح النفوس المطمئنة، وتشجع على سكون القلب ورضاه بما يحيط به.

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة ما نذكره فيما يلى:

– روى أحمد بسنده عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «... دَعْ ما يريبك إلى ما لايريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة».

– وروى أحمد بسنده عن الخشنى رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله أخبرنى بما يحل لى ويحرم علىّ قال: فصعَّد النبى ﷺ وصوَّب فى النظر فقال النبى ﷺ: البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون...».

● وللطمأنينة آداب نذكر منها ما يلى:

– أن يكون المؤمن مستريحا إلى الرجاء مطمئنا إليه، كالخائف يلقى فى قلبه السكينة، ويريحه من عناء الخوف والقلق.

– وأن يتقبل أعباء التكاليف وتبعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومشاق التبليغ عن الله تعالى، وما يترتب على ذلك من مجاهدة أعداء الله، والصبر على تحديهم له وأذاهم

وشرهم، لأن ذلك من شأنه أن يضجر المتعبد أحيانا، والطمأنينة شرطها نفى هذا الضجر.

- وأن يتقبل قضاء الله وقدره مهما حدث له من ابتلاء أو محنة، وليس بمطمئن ذلك الذى يفزعه البلاء وترهبه المحنة والفتنة، وإنما المطمئن من يقول فى هذه الظروف: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ٥١].

● والثبات على الإيمان وعلى الحق والطاعة، وعلى أعباء الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، وعلى الجهاد فى سبيل الله، لايعززه مثل الطمأنينة التى ترتاح إلى الرجاء فى الله تعالى والرضا بكل ما يجرى عليه.

وبغير الطمأنينة يتزعزع الثبات ويضطرب القلب وينزعج عند حدوث أى عارض من بلاء أو محنة أو فتنة.

ومن هنا نتبين أن الثبات خاضع لأدبيات تحكمه وتدفع إليه منها الطمأنينة والسكينة.

وبعد: فأعود لأكرر أن كل هذه الأدبيات التى تحكم الثبات هى من الإشارات التى تضمنتها الآية الكريمة: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وهى الآية التى استشهد بها الإمام البنا فى كلمته الوجيزة عن الثبات.

الفصل الثالث

طبيعة الطريق فى العمل من أجل الإسلام

وضرورة الثبات فيه

العمل من أجل الإسلام – أى من أجل التمكين لدين الله فى الأرض – يعنى: أن يحل منهج الله تعالى الذى أنزل على رسول الله ﷺ محل أى منهج آخر من المناهج المستوردة أو الغازية أو الخادعة؛ هذا العمل واجب كل مسلم قادر عليه، لايعفى منه رجل أو امرأة مادام يملك القدرة على المشاركة فيه، بما يستطيع أو بما يحسن من الأعمال.

● وهذا العمل يحتاج إلى جهد كل مسلم مهما كان جهده يبدو ضئيلا أو ثانويا، لأن صرح الإيمان الذى يراد إقامته بهذا المنهج، والمجتمع المسلم الذى يراد بناؤه بهذا المنهج، والعدالة الاجتماعية والاحترام الحقيقى لحقوق الإنسان الذى يستهدف من إقامة هذا المنهج، يحتاج إلى ألوف الجهود المتنوعة التى لايقف تنوعها عند حد.

● ومن أجل هذا فليس لأحد من المسلمين أن يحقر العمل الذى يسهم به فى التمكين لهذا المنهج حتى لو كان مجرد إماطة الأذى عن الطريق، أو الكلمة الطيبة ينطق بها لسانه أو الطلاقة يحملها وجهه لمن يتحدث إليه، فضلا عما هو أكبر من ذلك!!!

● وإنما كان هذا العمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض واجباً لأن دين الإسلام فى جوهره دين العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة والخلق الحميد والمعاملة الإنسانية لكل الناس مؤمنهم وغير مؤمنهم، والدعوة إلى هذا الدين، والحركة به فى الناس، وتربية الناس على قيمه ومبادئه وأخلاقه وآدابه وتعويدهم الالتزام بأحكامه، كل ذلك واجب شرعا بمقتضى قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (١٠٨)﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذا العمل الواجب كان فى الأصل عمل النبى ﷺ الذى كلفه به ربه سبحانه، وأمره أن يكلف به أصحابه والذين يأتون من بعدهم من المسلمين إلى يوم الدين، والآية الكريمة التى توصل هذا الواجب على كل مسلم ومسلمة إلى يوم الدين هى قوله تبارك وتعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**

بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر : ٣٢].

– و« الكتاب » فى هذه الآية الكريمة هو القرآن الكريم.

– وقد أورثه الله للصالحين لحمله والعمل به الذين اصطفاهم الله لهذا العمل الجليل، والميراث هنا يعنى العمل بهذا الكتاب والاهتداء بهديه وتطبيق منهجه ونظامه.

– وأن هؤلاء المؤمنين الذين اصطفاهم للعمل بكتابه متفاضلون فيما بينهم بالتقوى والاجتهاد فى العمل، فمنهم من غلبت سيئاته حسناته، ومنهم من تساوت حسناته مع سيئاته، ومنهم من غلبت حسناته سيئاته فأحرز بذلك قصب السبق فى مضمار العمل الصالح الذى يرضى الله تبارك وتعالى.

– وهذا العمل بالكتاب الكريم الذى أورثه الله للمصطفين من عباده، كلَّف الله به كل مسلم ومسلمة قادرين عليه، وجاء هذا التكليف فى آيات قرآنية عديدة، وفى أحاديث نبوية شريفة، جمعتها معظمها فى مؤلفات خصصتها لفقه الدعوة إلى الله إلى الحق إلى المنهج الصحيح الذى أتمه الله تعالى وأكمله ورضيه دينا لعباده(١). وقد وقفت عليها كثيرا من الجهد والوقت الذى وفقنى الله إليه، وأسأله تعالى أن ينفع بها الناس وأن يأجرنى عليها؛ إنه حسبى ونعم الوكيل.

● ولهذا العمل الذى أوجبه الله تعالى على كل مسلم ومسلمة، طريق واضحة معروفة المعالم، متعددة المراحل، كثيرة العقبات والمشقات، وعلى الرغم من ذلك فهى وحدها الطريق المستقيم لايشاركها طريق فى استقامتها ونبل غايتها ومقصدها وطهر وسائلها،

---

(١) انظر لنا الكتب التالية إذا أردت الإحاطة بقضايا الدعوة إلى الله وواجبك فيها:

– فقه الدعوة إلى الله — دار الوفاء.
– فقه الدعوة الفردية. — دار الوفاء.
– المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله. — دار الوفاء.
– فقه المسئولية فى الإسلام. — دار التوزيع والنشر الإسلامية.
– مع العقيدة والحركة والمنهج. — دار الوفاء.
– عالمية الدعوة الإسلامية. — دار الوفاء.
– تربية الناشئ المسلم. — دار الوفاء.
– التربية الروحية. — دار التوزيع والنشر الإسلامية.
– التربية الخلقية. — دار التوزيع والنشر الإسلامية.
– التربية العقلية. — دار التوزيع والنشر الإسلامية.
– ركن العمل أو منهج الإصلاح الإسلامى. دار التوزيع والنشر الإسلامية.

وحسبها أنها الطريق القويمة التى يهدى إليها القرآن الكريم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (٩)﴾ [الإسراء: ٩].

● إن هذه الطريق، والسعى فيها، والصبر على هذا السعى والاستمرار فى العمل حتى يقطع الساعى المراحل كلها، والصبر على المتاعب والمشقات بجلد وثبات، ورفض لأى مساومات للانصراف عنها، كل ذلك واجب شرعا، كما أوضحنا فى هذا الكتاب، ولايمكن العمل دون ثبات، فالثبات على ذلك كله واجب من منطلق أن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان هذا الثبات ضرورة للمضى فى هذه الطريق.

وهذا الفصل الأخير من الكتاب قد اشتمل على نقاط ثلاث أحاول أن ألقى عليها الضوء الكاشف بإذن الله وتوفيقه، وهذه النقاط هى:

١ - طول المدى لهذه الطريق،

٢ - وتعدد المراحل فيها،

٣ - وكثرة العقبات فيها.

والله تعالى أهل العون والتوفيق.

١ - طول المدى لهذه الطريق

يقول الإمام البنا فى ذلك وهو يتحدث عن ركن الثبات: «والطريق طويلة المدى....»

ولابد لنا أن نتساءل: لماذا كانت هذه الطريق طويلة المدى؟

● وفى إجابتنا على ذلك نقول:

كانت هذه الطريق طويلة المدى لأنها طريق الدعوة إلى الله إلى توحيده وعبادته وفق ما شرع، وطريق الحق والطاعة، وطريق الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا، وطريق الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، وذلك عمل يطول مداه على مستوى الفرد حتى يلقى الله، وعلى مستوى الأمة فى أجيال متعاقبة لايهدأ فيها العمل ولايفتر حتى تقوم الساعة.

ومجالات العمل فى هذه الطريق مادامت متعددة على النحو الذى سنذكره فى النقطة الثانية من هذا الفصل، فلابد أن تكون طويلة المدى فى كل مجال من مجالاتها، وهذا ما سنوضحه فيما يلى:

أولا:

مجال الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته

عندما يراد للناس أن ينتقلوا من الشرك إلى التوحيد أى عبادة الله الواحد الأحد الخالق الرازق المحيى المميت الذى بيده الأمر، فإنهم يأبون ذلك إلا من هدى الله وأنار قلبه وعقله.

وقد تحول بينهم وبين التوحيد عادات وتقاليد كان عليها آباؤهم وأجدادهم، وقد يحول بينهم وبين الهدى الكبرياء والغرور والأنفة من الطاعة للرسول ﷺ، وقد يمنعهم من الهدى ضلال العقل وجحود القلب، وقد يمنعهم البخل، أو الجبن أو غير ذلك من الموانع الكثيرة التى يبثها الشيطان فى عقول الضالين فيظلون على ضلالهم وعنادهم ومعاداتهم للتوحيد وعبادة الله تعالى وفق ما شرع وما أنزل من كتاب لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- ومن هنا تطول الطريق على الداعى إلى الله وتزداد فيها العقبات ويزيد عدد المعاندين

والكافرين والجاحدين والمارقين عن كل منهج ونظام إلا منهجهم هم الذين يتبعون فيه شياطينهم وشهواتهم وهواهم.

- ومع طول الطريق فلابد أن يطول المدى الزمنى للمضى فى هذه الطريق: ولاتصبح الأيام والأسابيع والشهور كافية لنقلهم من الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد، وإلى عبادة الله وفق ما شرع من عبادة الناس والأشياء والأهواء.

- ومع طول الطريق فلابد كذلك أن يشتد الصراع بين الدعاة والغواة، وهذا الصراع يحتاج إلى صبر طويل وصبر جميل بتحمل حماقات المعاندين، ومع الصبر تكون فرص الهداية أكبر، ويكون نصر الله للحق على الباطل.

- ومع طول الطريق فلابد للدعاة من أمور ثلاثة هى التى تهيئ لهم النجاح والفلاح، وتلك الثلاثة هى العلم والعمل والإصرار.

- **فالعلم:**

وهو ضرورى لردّ شبهات المشركين والملحدين والفاسقين ودحض مفترياتهم، بالدليل والحجة والبرهان، للوصول إلى إقناعهم بالحق بعد توضيحه وتبيينه.

العلم بكل معنى من معانيه ولكل نوع من أنواعه التى تلزم الدعاة إلى الله من علم بالدين أصوله وفروعه، وعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته، وعلم بالدعوة تاريخها ودعاتها، وعلم بالدنيا إلى جانب علم الدين، وذلك أن فقه الدنيا يغفله بعض الدعاة مع أنه متمم ومكمل لفقه الدين.

- **والعمل:**

وهو ترجمان الإيمان، والمؤمن لا يعمل إلا عملا صالحا، غير أن العمل فى مجال الدعوة إلى توحيد الله وعبادته يحتاج إلى دأب واستمرار، مع التقيد بأحكام الشريعة وأخلاقها وآدابها، العمل الذى يطبق العلم ويخرجه إلى حيز الممارسة والفعل.

العمل بكل أنواعه:

العمل من أجل الدعوة إلى توحيد الله تعالى،

والعمل من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله وفق ما شرع،

والعمل من أجل النفس بحيث ينقذها صاحبها من النار،

والعمل من أجل المجتمع لكى تسوده شريعة الله تعالى،

والعمل من أجل أن يمكن دين الله فى الأرض ليسود العدل والإحسان والمرحمة وتحترم بحق حقوق الإنسان.

ويظل هذا العمل مستمرا ويظل العامل ثابتا على هذا العمل، يؤديه بلذة وانشراح ويحتسب عند الله ما يلاقى من عنت وهو يمارس هذا العمل فى ميادينه ومستوياته العديدة فى استمرار لاينهيه إلا لقاء الله.

● والإصرار:

وهو كل عزم شددت عليه، وكل أمْرٍ ثبت عليه صاحبه ولزمه ويستعمل الإصرار على العمل فى الخير والشر، ولكنا هنا نقصد عمل الدعوة وهو خير كله.

والإصرار هنا إصرار على المضى فى طريق الدعوة مهما تكن العقبات فيه، وعلى تحبيب الناس فى توحيد الله تعالى مهما تكن التكاليف، وإنما اخترت كلمة الإصرار هنا لأن أسباب العدول عن المضى فى هذه الطريق كثيرة، وكل عدول عنها ذنب وإثم ومعصية لأنه عدول عن الحق ونكوص عن الواجب.

إن هذا الإصرار يكلف من المشقة ما لايحتمله إلا كبار الرجال والصادقون الصابرون على ما أصابهم الذين لايخافون فى الله لومة لائم.

ولاسبيل إلى هذا الإصرار إلا الصبر والاحتساب عند الله تعالى، وهذا هو الثبات الذى نحن بصدد الحديث عنه وهو الثبات مهما كانت التضحيات.

ثانيا:

مجال الدعوة إلى الحق والطاعة

عندما يراد للناس أن يستقيموا على الحق ويلتزموا بطاعة الله ورسوله فى كل أمر ونهى، وفى كل حكم وخلق وأدب، فإنهم يرفضون ذلك كرفضهم لتوحيد الله تعالى وعبادته وفق ما شرع؛ إلا من عصم الله تعالى وهدى.

وهؤلاء الرافضون للحق والطاعة يجدون من الأسباب ما يبرر لهم رفضهم ويخدعهم عن الحقيقة، ولاتختلف أسباب رفض الحق والطاعة كثيرا عن رفض التوحيد والعبادة لله ورفض ما شرع، فكل الرافضين لهذا وذاك ممن أصمهم الله وأعمى أبصارهم، فضلوا بعقولهم

وتقاليدهم ضلالا بعيدا.

● ويحتاج الدعاة فى هذا المجال إلى أمور ثلاثة أيضا، هى:

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة،

والجدال بالتى هى أحسن،

وأطر الناس على الحق أطرا:

فالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة:

يحتاج إليها كل مدعو إلى الحق وإلى طاعة الله ورسوله، وهى واجب الدعاة إلى الله لايملكون عنه حولا ولا منصرفا، إذ هى أمر مباشر من الله تعالى لكل داع إلى الله، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وللدعاة فى رسول الله أسوة حسنة إذ كانت دعوته إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ما أغلظ لأحد القول، ولا ضجر مما كان يواجهه به بعض المدعوين من تحد وتعنت بلغ فى بعض الأحيان حد الإساءة والإهانة والضرب والاعتداء، وكان فى الغالب لسان حاله قوله: اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون، وكان يستطيع أن يدعو على المعاندين منهم فيطلب لهم العذاب – وهو المجاب الدعوة عند ربه – ولكنه آثر أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يدعو لهم لا عليهم، أملا فى أن يخرج الله من أصلابهم مؤمنين يستجيبون للحق، ولطاعة الله ورسوله فيما هو صالح لهم فى دنياهم وآخرتهم!!!

● والجدال بالتى أحسن:

وهو أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله يلجأ إليه الداعى عندما يجد دعوته إلى الحق وإلى طاعة الله ورسوله وقد ووُجهت بأولئك الذين قد فتنوا بالجدال والحوار، وخيل إليهم أن كل دعوة لابد أن تواجه بالجدل حتى لو كانت إلى الحق البيّن وإلى طاعة الله رب كل شىء ومليكه، وطاعة رسوله ﷺ المبلغ عنه.

وللجدل مع هؤلاء المجادلين منهج يستطيع الداعى إلى الله أن يلتمسه فى القرآن الكريم، فللقرآن الكريم أسلوبه فى الجدل الذى حاول به إقناع المعاندين الذين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الحق وإلى الطاعة، ومن معالم منهج الجدل فى القرآن ما نذكر بعضه فيما يلى:

– الاستدلال بوجود الأثر على وجود المؤثر، ومما يستشهد به على ذلك قوله تعالى عن

خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

- وإلزام الخصم بما هو مُسَلَّم به من المحسوسات، ومما يستشهد به على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

- وإبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها، ومما يستشهد به على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

- والتسليم الجدلي للوصول إلى الحق، ومما يستشهد به على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فالجدال هنا يقوم على أن يسلم الخصم بأن وجود إلهين يترتب عليه خلل ويتعطل كل أمر ونهي، وعندئذ فلا بد أن يكون الإله واحداً.

- وحث العقل على التفكير والنظر والتدبر، ومما يستشهد به على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

إلى غير ذلك من مناهج الجدل في القرآن الكريم وأساليبه في الإقناع[1].

فهذا الجدال يحتاج إليه الداعية عندما يجد المدعو مجادلا لا يؤمن إلا بالماديات والمحسوسات.

---

(١) انظر في ذلك: للسيوطي: الإتقان في علوم القرآن، وانظر للمؤلف: التربية العقلية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

● **وأطْرُ الناس على الحق أطْرا:**

وذلك أن بعض الناس عندما يعرض عليهم الحق والطاعة يرفضون فى تعنت ظاهر، وتحد سافر، وإعاقة للدعاة، بل منعهم من ممارسة الدعوة إلى الحق وإلى طاعة الله ورسوله...

وهؤلاء قد دعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة أولا، ثم جودلوا بالتى هى أحسن بعد ذلك، ولكنهم أَصَرُّوا واستكبروا استكبارا بعد أن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لايسمعوا داعى الله، واستغشوا ثيابهم حتى لايروه.

- هؤلاء يجب أن يؤطروا على الحق أطرا ويقصروا عليه قصرا، من منطلق أن الحق أحق أن يتبع، وأنه واضح لكل ذى عقل، فمن رفض متعنتا كان للدعاة إلى الله أن يجبروه على قبول الحق، لأن فى ذلك ما يصلح دينه ودنياه.

- وأما من دُعوا إلى طاعة الله ورسوله باتباع منهج الله ونظامه فأبوا وتعنتوا بعد أن بُيِّن لهم أن طاعة الله ورسوله فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة، وجمعت لهم الأدلة والبراهين على ذلك، وأزيلت من أمامهم الشبهات، ورُدَّتْ المفتريات وعلى الرغم من ذلك كله تعنتوا ورفضوا، وأصاخوا لشياطين الإنس والجن وما يزينون به الباطل ويخدعون به من أضاليل يوهم أن الطاعة لله ورسوله تضييق على الطائعين ومصادرة لحريتهم فى أن يفعلوا ما يشاءون.

هؤلاء يجبرون على طاعة الله ورسوله؛ لما فى ذلك من تحقيق مصالحهم فى الدنيا والآخرة. نعم: إن الدعاة فى هذه الظروف التى يأطرون فيها الناس على الحق والطاعة لله ورسوله أطرا يتحملون من العناء والجهد ما هم فى غنى عنه بالحكمة والموعظة الحسنة، أو الجدال بالتى هى أحسن، ولكنها الظروف وطبيعة المعاندين المكابرين.

● وهذه الدعوة إلى الحق وإلى طاعة الله ورسوله ليست مرحلة يصل إليها الدعاة ثم يتوقفون إذ بلغوا الغاية، وإنما هى عمل مستمر واجب إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

● وعلى قدر أهمية هذه الأعمال فى مجال الدعوة إلى الحق وإلى الطاعة يكون الثبات على ذلك والالتزام به مهما تكن التضحيات، لأنه بغير الثبات على ذلك لايسود المجتمع إلا القيم الفاسدة والأخلاق الرازلة، وضياع الحقوق والتعرض للمعاصى والآثام - أى خسران الدنيا والآخرة -.

ثالثا:

مجال الجهاد فى سبيل الله:

وهذا الجهاد يستهدف أن تكون كلمة الله هى العليا حتى يخرج عن مَظَنَّة الرياء والنفاق ويكون خالصا لوجه الله تعالى.

● والجهاد فى سبيل الله أنواع:

– جهاد بالقلب رفضا وإنكاراً لكل باطل يعجز المسلم عن جهاده باللسان أو باليد – أى القوة –.

– وجهاد باللسان؛ خطابة ومحاضرة وكتابة وتأليفاً، وبحوثا علمية تقنع بهذا الدين الخاتم، وتردّ عنه الشبهات والمفتريات، وتوضح أهدافه وأبعاده وميادينه ووسائله لتحقيق هذه الأهداف.

– وجهاد بالمال، بحيث ينفق فى الإعداد والاستعداد لخوض المعارك ضد أعداء الحق أعداء الإسلام.

– وجهاد باليد – أى القوة والسلاح – فى ميادين القتال، دفاعا عن الإسلام والمسلمين والأوطان الإنسانية، واستئصال للخارجين على المجتمع وعلى القيم الدينية وقوانين الإسلام وتأمينا لأن يصل صوت الحق وكلمة الله إلى كل من يجب أن تصل إليه.

– وجهاد للنفس الأمارة بالسوء التى تزين لصاحبها أسباب الفساد والخروج عن منهج الله تعالى، وتفتح له الطريق أمام الشهوات، وتقعد صاحبها عن الجهاد فى سبيل الله.

– وجهاد للشيطان ذلك العدو المبين للإنسان، الذى يوسوس له بالشر والمعصية، ويحول بينه وبين فعل الخير والطاعات، وأداء الواجبات(١).

● هذا الجهاد بأنواعه كلها يحتاج إليه عندما يراد دعوة الناس إلى التخلى عن الشرك والكفر، والإقبال على الإيمان وعبادة الله تعالى وفق ما شرع والخضوع لمنهجه ونظامه فى الحياة، والابتعاد عن الضلال وأسبابه والإضلال وكل ما يؤدى إليه.

● وهذا الجهاد يأتى مرحلة لاحقة لمراحل سبقته هى:

– الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،

---

(١) انظر للمؤلف: ركن الجهاد من هذه السلسلة – نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

– والجدال بالتى هى أحسن لمن يحتاج إلى هذا الجدال ممن يترددون فى قبول الحق ويجادلون فيه.

– والتحرك فى الناس بالإسلام أحكامه وأخلاقه وآدابه.

– ثم يأتى بعد ذلك الجهاد بنوعه الملائم لمن نجاهده.

● وهذا الجهاد إما أن يكون فرض عين يجب على كل مسلم عند هجوم العدو على بلاد المسلمين، ونحو ذلك من الظروف، وإما أن يكون فرض كفاية إذا فعله البعض سقط إثم تركه على الباقين.

● كل هذه الأنواع من الجهاد، لايمكن أن تتسع لها الأيام والأسابيع أو الشهور، ولكنها قد تحتاج أعواما طويلة، مع استمرار ومواصلة، ولذلك كان الجهاد فريضة أبدية مستمرة ماضية إلى يوم القيامة، وكان الإعداد له عملا مستمرا متواصلا كذلك.

ومن أجل هذه الميزات للجهاد فى سبيل الله، كان الجهاد موصوفا فى الإسلام بصفات عظيمة، نذكر منها:

– أنه ذروة سنام الإسلام اى أرفع شيء فيه، فقد روى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى سفرنا فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يانبى الله: أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؛ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل فى جوف الليل، ثم قرأ: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه؛ فقلت بلى يارسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد...» الحديث.

– وأن المجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة هى العليا إذا مات شهيدا، حشر مع النبيين والصديقين والصالحين، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩].

– وأن الجهاد معدود من أفضل الأعمال ومن خير ما فى الدنيا؛ فقد روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة فى سبيل أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

– وأن جزاء الجهاد عند الله تعالى أعظم جزاء، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض».

– وأن الشهيد فى سبيل الله، يغفر الله له كل ذنب أذنبه إلا الدَّيْن، فقد روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: يغفر الله للشهيد كل شيء إلا الدَّيْن» وفى رواية: «القتل فى سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدَّيْن».

● ومع طول المدى فى الجهاد واستمراره إلى قيام الساعة، فلابد معه من الثبات، إذ بغير الثبات لايكون جهاد فى سبيل الله، ولايكون امتداد لدعوة الحق، ولا توسع للحركة بهذا الدين، ولا انتصار على أعداء الحق وأعداء الحياة أعداء هذا الدين الخاتم العظيم.

إن طول المدى فى هذه الطريق الطويلة يحتاج إلى الثبات فى هذه الطريق ويحتاج إلى الإصرار على الثبات.

رابعا:

مجال الدعوة والحركة والتربية والتنظيم

لكل مجال من هذه المجالات الأربعة كلام يخصه، ولكل منها أهداف وسياسات ووسائل، وقد توسعنا فى الحديث عن ذلك فى أكثر من كتاب لنا(١).

أ – فى مجال الدعوة:

عندما يدعى الناس إلى دعوة الحق وإلى الهدى ويراد لهم بهذه الدعوة الخير والمضى فى الطريق المستقيم صراط الله، ويراد لهم بهذه الدعوة أن يتحولوا إلى آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، محسنين فى أقوالهم وأعمالهم، محسنين مع الله تعالى، ومع أنفسهم ومع الناس.

---

(١) انظر لنا فى ذلك: فقه الدعوة إلى الله، وعالمية الدعوة الإسلامية، وفقه الدعوة الفردية، ومنهج التربية عند الإخوان المسلمين، ووسائل التربية عند الإخوان المسلمين، وفقه المسئولية فى الإسلام. وسلسلة مفردات التربية الإسلامية: التربية الروحية والتربية الخلقية، والتربية العقلية.

عندمـا يراد بالدعـوة كل ذلك وهو خـيـر لهـم من كل درجـة، ويدعـون إليـه بالحكـمـة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، فقد نجد عندهم أو عند كثير منهم أسبابا الرفض هذه الدعوة والوقوف منها ومن دعاتها موقف العناد والتحدى، بل المقاومة والتصدى للدعاة بالشر.

وفى جـمـيع تلك الحالات فإن الدعـاة إلى الله مطالبـون بالصبـر عليـهم والإحسان إليـهم وعـدم اليأس من هدايتـهم، بل عـدم الضـيق بهـم وبأعـمـالهم، لأن تلك هى سـمات الدعـاة وصفـاتـهم وهذا هو دسـتـورهم فى الدعوة إلى الله لايملكون أن يحيـدوا عنه مـهـمـا تحداهم المدعوون، ويفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)** ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨].

- كل هذا العمل من الدعاة إلى الله يحتاج إلى وقت طويل، وصبر جميل، وتحمل شديد، ولن يكون شيء من ذلك فى أيام أو أسابيع أو شـهـور، بل ربما احتـاج إلى أعوام، ونذكّر هنا بأن نوحا عليه السلام ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه إلا القليل.

ومحمد ﷺ وأمته التى اصطفيت فأُورثت الكتاب دعاة إلى الله إلى يوم الدين، بحيث لاتتـوقف الدعـوة إلى الله أبدا، ولو توقـفت لما أفضى المدعـوون إلى المرحلة التـاليـة للدعـوة، فخسر العمل للإسلام رجالا ينافحون عنه وينشرونه فى الناس.

ب - وفى مجال الحركة:

عندما يتحرك الدعاة إلى الإسلام فى الناس، حاملين إليهم به أعدل الأحكام وأرفع القيم وأنبل الأخلاق وأكمل الآداب، متخذين من الاختلاط بالناس والصبر على ما يبدر منهم من شر، واصلين بهـذا الاخـتـلاط إلى حـد الأخـوة فى الإسلام، مـجـتـازين إليـهـم بهـذه الأخـوة الإيمانية مراحل تحبيبهم فى الخير، وتقديم الخير لهم دون مقابل منهم بل دون أن يطلبوا هم هذا الخير، مـجـتـازين إليـهم مرحلة التـعـرف عليـهم وعلى مـا يملكون من طاقات ومـواهب واستـعـدادات، وأسلوب توظيف هذه الطاقات فيـمـا يعـود عليـهم بالنفع لهم ولغيـرهم من

الناس، عابرين من خلال هذه الأخوة فى الإسلام مرحلة التفاهم والتكافل فيما بينهم، ومرحلة التعاون على البر والتقوى، ومرحلة إزالة الشبهات إن وجدت، ومرحلة الالتزام بالإسلام ومنهجه فى الحياة، والاعتزاز بالانتماء إلى هذا الدين العظيم، وتشجيعهم على أن يتحركوا به فى الناس، وأن يهيؤهم للبذل والتضحية فى سبيل الله، وحب الجهاد بكل أنواعه لتكون كلمة الله هى العليا.

هذه الأعمال من الدعاة وتلك المراحل التى يجتازونها بمن تحركوا من الاختلاط والصبر على أذاهم للدعاة إلى مرحلة أن يصبحوا مجاهدين فى سبيل الله، هذه الأعمال هو دستور الحركة بالدين فى الناس.

وكل هذه الأعمال تحتاج إلى مزيد من الوقت، وإلى طول المدى لكل عمل من هذه الأعمال الكثيرة، دون تقصير فى شيء من ذلك كله فضلا عن توقف، لأن المتفق عليه لدى المشغولين بالعمل من أجل الإسلام أن الثبات على أداء هذه الأعمال مهما كثرت واجب شرعا وعقلا، لأنه من مقتضيات الحركة بالدين فى الناس.

والثبات يحتاج إلى صبر واستمرار، وإلا دخل الحركيون فى متاهات التردد والجمود والوقوف عند البدايات دون اجتياز مسالكها إلى النهايات والخواتيم.

جـ - وفى مجال التربية:

وهو أوسع المجالات وأكثر فروعا ومفردات[١]، إذ الأصل فيها أن تصوغ الفرد والأسرة والمجتمع والأمة صياغة إسلامية من شئون حياتهم خاصها وعامها، بل فى تفكيرهم وثقافتهم، وما يحبون وما يكرهون، فالله تعالى قد اختار المنهج الإسلامى لحياة الإنسان وطالب بالالتزام به.

● والمشغولون بالتربية الإسلامية يعرفون من أين يأخذون أصول هذه التربية، ومن أين يعرفون أهدافها ووسائلها، إذ يتجهون إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[٢]. ثم يفرعون من هذه الأصول، ويفصلون فى هذه الأهداف والوسائل ماشاء لهم الله،

---

(١) انظر لنا سلسلة مفردات التربية الإسلامية، وهى عشر، أصدرنا منها ثلاث حلقات هى التربية الروحية والتربية الخلقية والتربية العقلية - مراجع سابقة.

(٢) انظر للمؤلف: سلسلة التربية فى القرآن الكريم، وقد صدر منها حَلْقات خمس هى: التربية الإسلامية فى سورة المائدة، والتربية الإسلامية فى سورة النور، والتربية الإسلامية فى سورة آل عمران، والتربية الإسلامية فى سورة الأحزاب، والتربية الإسلامية فى سورة الأنفال.

مستعينين بما آتاهم الله من علم ومعرفة وتوفيق وسداد، ولا بأس من الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى فى ضوء عدم الإخلال بهذه الأصول وتلك الأهداف.

- عندما يراد تربية الناس على مبادئ تلك التربية الإسلامية، فلا بد من زمن طويل ومدى غير قصير؛ لأن شأن التربية هو الصبر وطول النفس والرعاية المستمرة والتدريب المستمر، وذلك لا يمكن أن يؤدى فى زمن قصير.

- وهذه التربية الإسلامية ليست موقوتة بزمن، وإنما هى تغطى كل زمن وتستغرقه، إذ هى للصغار والكبار على السواء، وما دامت الأرحام تقذف بأجنتها إلى الحياة، فهؤلاء فى حاجة إلى تربية إسلامية، وما دام الكبار يعيشون هذه الحياة الدنيا فهم فى حاجة إلى التربية الإسلامية.

- فالتربية الإسلامية تربية متواصلة مستمرة، يفيد منها المسلمون جميعا مهما اختلفت أعمارهم، كل منهم يتلقى منها ما يناسبه فى زمنه ومكانه وظروفه ولايستطيع أن يستغنى عنها بأى حال من الأحوال.

ومن هنا كان المدى الزمنى للتربية الإسلامية طويلا ودائما ومستمرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- ومما لاشك فيه أن التربية الإسلامية أكثر المجالات حاجة إلى الثبات، لتشعب مفرداتها وتعدد مراحلها وشمولها كل الناس فى أى زمان ومكان.

وبغير الثبات لايمكن للتربية أن تثمر، وبغير الصبر لايمكن التغلب على طول الطريق فى التربية.

- وقد أشار الإمام البنا إلى كيفية التغلب على طول المدى بقوله: «والوقت عندنا جزء من العلاج»، والمعنى أن الزمن مهما كان طويلا عند إنجاز الأعمال فلابد من تمضيته والصبر على أعبائه أى الثبات على أداء هذا العمل مهما كلف من أعباء.

- وبعض الغافلين يتصورون أن معنى: «الزمن جزء من العلاج» أن يتركوا العلاج للزمن دون أن تكون لهم فاعلية فى صنع العلاج، وهذا فهم سطحى سلبى تواكلى، لايمكن أن يقبل عند من يفقهون الإسلام ودعوته وحركته وتربيته للناس.

ودون الثبات فى التربية على مبادئ الإسلام وقيمه تكون النتيجة تربية ناقصة ويكون المتربون أنصاف متربين وتكون قيم الإسلام لديهم مضيعة إلا قليلا، ومبادئه معطلة إلا قليلا.

ولعل هذا ما تعانى منه المجتمعات المسلمة اليوم، فلو أنهم ربوا تربية إسلامية صحيحة ثابتة ما كان هذا حالهم بين أعدائهم أو أوليائهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

د - وفى مجال التنظيم،

التنظيم هو معامل النجاح فى أى عمل، بحيث يصح القول: إن العمل غير المنظم أجدر الأعمال بالفشل والإخفاق.

● والتنظيم كما هو معروف هو العملية التى تفرق بين جزء وآخر من الناحية الوظيفية، وتنشىء فى الوقت نفسه مركبا متكاملا من العلاقات الوظيفية داخل الكيان الكلى.

والتنظيم من شأنه أن يهيئ لأفراد عمل مًّا تعاونا فى أداء واجبات هذا العمل بحيث يحققون أهدافه، أى ضبط التركيب الهيكلى بوحداته وأفراده بحيث يؤدى وظائفه ويحقق أهدافه من خلال أمور أساسية هى:

– تحديد الاختصاصات،

– وتحديد الوظائف والقائمين بها،

– وتحديد الأهداف والسياسات والوسائل.

● وفى مجال العمل من أجل الإسلام، لابد مع ذلك كله من تصنيف للأفراد وفق معايير عديدة، وتصنيف للأعمال وفق معايير خاصة واختيار دقيق للأفراد للقيام بالأعمال.

وليس التنظيم مجرد تصنيف للأفراد – كما يتصور بعض الناس – ولكنه عمل مركب أكثر من هذا التصور بكثير، بل هو عمل أكثر عمقا وأشق من كثير من الأعمال فى مجالات العمل من أجل الإسلام.

● إن التنظيم لايخلو من تصنيف، ولكنه فى صورته البسيطة تصنيف للأفراد فى الصفات التى تميز بعضهم عن بعض، روحية وخلقية وعقلية وثقافية وانفعالية، وعُمرية ونحو ذلك من الصفات.

● غير أن هناك جهداً آخر يجب أن يبذل فى تنظيم الدعاة والحركيين والتربويين، هو أصعب كثيرا مما يتصور كثير من الناس، إذ يتطلب الكشف عن الميول والاتجاهات، ومعرفة ما يحسن الفرد من عمل ليكلف به، لأن من المتفق عليه بين العاملين من أجل الإسلام أن من كلف بعمل لايحبه ولايحسنه يكون أقرب إلى الفشل فيه.

● والتنظيم أحوج الأعمال إلى الصبر والأناة وطول النفس وإعادة النظر فى الخطة والسياسة والهدف والوسيلة، وهذا هو الثبات الذى لابد منه فى كل تنظيم.

خامسا:

أقسام العمل العام من أجل الإسلام

تلك المجالات الأربعة التى اشتمل عليها طريق العمل من أجل الإسلام نتيجة لطول مدى الطريق؛ تحتاج من أجل تطبيقها وتنفيذها إلى وسائل بعينها يخرج فيها العمل من حيز النظرية إلى التطبيق والتنفيذ.

● وهذه الوسائل التى يطبق من خلالها العمل كثيرة قد لا تتناهى فى عددها وتنوعها، لكن لابد من ذكر بعض هذه الوسائل بتحديدها والتعرف عليها.

● وقد كان للجماعة رؤية فى وسائل التطبيق، أطلقت عليها اسم: أقسام للعمل من أجل الإسلام، أى أن كل قسم منها يمثل وسيلة وطريقة من وسائل أو طرق التطبيق، كما رأت أن أقسام هذا العمل عشرة هى:

١ - قسم نشر الدعوة:

وهو قسم له إدارة ونظام وقائمون على العمل فيه، وموازنة مالية، واكتفاء ذاتى إلى حد كبير.

ويقوم هذا القسم على تحقيق الهدف من إنشائه وهو: تبليغ الدعوة إلى كل من يجب أن تصل إليه من الناس، فى صورتها الصحيحة القادرة على جذب الناس إلى الحق والخير والهدى ونقلهم من الضلال إلى الهدى، أو من الكفر إلى الإيمان.

● ومن مسئولية هذا القسم إعداد الدعاة إلى الله إعدادا علميا وعمليا، لكى تتكون لديهم البصيرة فيما يدعون إليه، وإعداد الدعاة يقتضى خطة وسياسة ووعاء زمنيا، ومنهجا وأساتذة، ليتخرج فيه الخطباء والمحاضرون وجميع من ينشرون الإسلام فى الناس، وليتخرج فيه العلماء والباحثون الذين يكتبون عن الإسلام يُعرِّفون به ويدفعون عنه الشبهات ويردون المفتريات.

- ولن يستطيع الدعاة إلى الله ممارسة أعمالهم فى نشر الدعوة إلا إذا كان منهج دراستهم شاملا لإعدادهم روحيا وخلقيا وعقليا وعلميا ورياضيا وبدنيا.

- ومما يساعد الدعاة على ممارسة عملهم فى نشر الدعوة أن يتدربوا على الخطبة والدرس والمحاضرة وكتابة المقالة والقصة قبل أن ينطلقوا فى الناس داعين إلى الله تعالى ناشرين دينه فى عبادة.

- ومما يعين الدعاة على عملهم فى نشر الدعوة أن يعد القسم لهم دراسات عن المدعوين وفقه التعامل معهم.

ب - وقسم التربية العامة :

ويتولى هذا القسم إعداد الأفراد وتربيتهم تربية إسلامية شاملة تتناول كل الجوانب التى تكون لهم شخصية إسلامية متكاملة البناء، لتستطيع هذه الشخصية بهذا الإعداد أن تنشئ أسرة من زوجة صالحة وأبناء صالحين، على اعتبار أن الأسرة هى نواة المجتمع ولبنته الأولى[1].

ويتخذ هذا القسم لتحقيق أهدافه وسائل عديدة هى : الأسرة والكتيبة والرحلة والندوة والدورة والمخيم والمؤتمر[2].

وهذا القسم له خطته وسياسته وميزانيته وإدارته وأهدافه ووسائله، وقادته.

ومن أهم أعمال هذا القسم إعداد التربويين الإسلاميين الذين يستوعبون بدقة أصول التربية الإسلامية وأهدافها ووسائلها، ومصادرها، ويعرفون بدقة المعوقات التى تقوم فى طريقها، ويجيدون التغلب على هذه المعوقات، والانطلاق نحو تحقيق الأهداف.

جـ - وقسم التربية البدنية :

ويعنى هذا القسم بإعداد الأفراد إعدادا بدنيا متكاملا يقوم على مبدأ أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وإن كان فى كل خير.

والإعداد البدنى الصحيح - كما هو معروف - يتناول خطوطا عريضة فى هذا الإعداد هى :

- الأخذ بكل الأسباب التى تحول بين البدن وبين الضعف كالإفراط والتفريط فى كل ما

---

(١) انظر للمؤلف فى ذلك : منهج التربية عند الإخوان المسلمين، وهو دراسة موسعة فى أكثر من ألف صفحة فى جزءين كبيرين، وقد نشر هذا الكتاب عام ١٤٠٩هـ - ١٩٩١م.

(٢) انظر للمؤلف فى ذلك : وسائل التربية عند الإخوان المسلمين وهو أول كتاب يجمع هذه الوسائل بين الدفتين، وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٩م.

يتصل بالعادات التى تضعف البدن كالسهر وكثرة الطعام أو ندرته وتعاطى المكيفات والمنبهات والإسراف فى أى شىء.

- والأخذ بكل أسباب قوة البدن من طعام وشراب فى اعتدال ونوم ويقظة منضبطين مع أوقات الصلوات وأوقات العمل والراحة.

- والأخذ بأسباب تقوية البدن بتعويده على الرياضة البدنية الخفيفة اليومية فى إطار زمنى ملائم.

ولهذا القسم قادته وخطته وموازنته وأهدافه ووسائله.

د - وقسم العمال :

وهو قسم يرعى شئون العمال - وهم الغالبية العظمى - من أبناء أى وطن فى العالم الإسلامى.

- وتتناول هذه الرعاية لشئونهم أمورا كثيرة منها:

- تثقيفهم بالثقافة عامة والثقافة الإسلامية، بحيث يبصرون بحقوقهم وواجباتهم فى كل مكان يعملون فيه ليتمسكوا بحقوقهم ويؤدوا واجباتهم.

- وتوجيههم نحو الاستفادة من الأنشطة العمالية المختلفة، اجتماعية واقتصادية، وإيجاد هذه الأنشطة إذا لم توجد، وتطوير العمل النقابى وتحسينه وتوظيفه لصالح العمال والوقوف إلى جانب مصالحهم.

- وإيقاظ روح التعاون بين العمال فى كل ما يجلب لهم المصلحة ويدفع عنهم الضرر، ويحل مشكلاتهم، ويقرب بينهم وبين أصحاب العمل.

- وتعليم غير المتعلمين منهم ممن فاتهم قطار التعليم إيمانا بأن العامل المتعلم أجود أداء من آخر غير متعلم.

- وتنسيق العمل والتعاون بين النقابات العمالية.

- ولهذا القسم إدارته وموازنته وخطته وسياساته وأهدافه ووسائله وقادة العمل فيه.

هـ - وقسم الفلاحين .

ويستهدف هذا القسم أهدافا عديدة نذكر منها ما يلى:

- تثقيف الفلاحين تثقيفا عاما يبصرهم بما يحيط بهم من أمور ومشكلات تتصل بالأرض والزراعة والرى، وخدمة الاقتصاد القومى.

- وتثقيفهم تثقيفا إسلاميا يعرفهم بدينهم وأحكامه وأخلاقه وآدابه، ويدربهم على الالتزام بذلك فى حياتهم.

- وتبصيرهم بأهم قضاياهم ومشكلاتهم وغرس روح التعاون بينهم للتغلب على هذه المشكلات، سواء منها ما يتصل بأشخاصهم أو بأعمالهم أو بحاضرهم أو بمستقبلهم.

- وتعليم من فاته التعليم منهم.

- وبث روح التعاون فيما بينهم فى كل ما يتصل بحاجاتهم فى الحاضر والمستقبل بالنسبة للزراعة والاستصلاح والرى والبذور ورعاية المزروعات، ومقاومة آفات الزراعة، فإن مثل هذه المسائل لا يُتغلب عليها إلا بالتعاون.

وللقسم كسائر الأقسام إدارته وقياداته.

و - وقسم الطلاب :

وهو قسم يعنى بشئون الطلاب ويرعاهم صغارا وكبارا حتى ينهوا سنوات تعليمهم، وإنما يكون ذلك ببذل مزيد من الجهود التربوية الواعية، لأن العمل فيه يمتد من البراعم فى السنوات الأولى من التعليم ويستمر معهم فى مراحل التعليم المختلفة.

وأسلوب التعامل معهم دقيق وحساس ولا يقوم به إلا الذين أوتوا قدراً من العلم وقدرا من معرفة أساليب التربية ووسائلها، وقدرا كبيرا من الصبر والتحمل، والرغبة فى خدمة الناس.

ويستهدف هذا القسم أهدافا عديدة من أهمها ما نذكره فيما يلى :

- نشر الدعوة فى محيط الطلاب، وبث الروح الإسلامية فى صفوفهم.

- وتثقيفهم ثقافة إسلامية مناسبة لأعمارهم.

- وتعويدهم التعاون فيما يعود عليهم بالنفع فى الدنيا والآخرة.

- وتتبع من كان منهم متعثراً دراسيا أو يعانى من مشكلات تعليمية، وتقديم يد العون له فى كل ما يعانى منه.

- وتوجيههم إلى النشاط المدرسى، وتحبيبهم فى المشاركة فيه والاستفادة منه.

- وتوجيههم إلى التفوق الدراسى مواكبا للالتزام بأخلاق الإسلام.

- وتوجيههم إلى الزاد الثقافى العام الذى يمكنهم من معرفة قضايا وطنهم الأصلى ووطنهم العربى وعالمهم الإسلامى، وخصوصا قضايا السياسة والاجتماع والاقتصاد، لأنهم قادة المستقبل وحماة الأوطان.

● وهذا القسم له إدارته وخططه وقيادته كسائر أقسام العمل من أجل الإسلام.

ز - وقسم الإعلام والترجمة

وقد أصبح الإعلام ذا أجهزة ووسائل قادرة على نقل الصوت والصورة والمعلومة لا فى داخل البلاد، ولكن على مستوى العالم كله «شبكة الإنترنت» وغيرها من وسائل الاتصال.

● والإعلام لا يقل أهمية عن التربية، والمسلمون بحاجة ماسة إلى إعلاميين على أعلى مستويات الدراسة العلمية والتجربة العلمية.

- والإعلام بكل وسائطه على جانب كبير من الأهمية فى حياة المسلمين، وله قدرة بالغة على التأثير فى الناس...

- ومن وسائطه ووسائله: الكتاب والكتيب والنشرة والصحيفة الدورية أو الأسبوعية أو اليومية.

- ومن وسائطه السينما والمسرح والتلفاز والإذاعة المسموعة.

● وفى كل هذه المجالات يجب توظيف طاقات بشرية تغطى هذه الاحتياجات الإعلامية فى السلم وفى الحرب ومع العدو ومع الولىّ.

● أما الترجمة من اللغة العربية وإليها من اللغات الحية فذلك عمل على جانب كبير من الأهمية، لأن الثقافات يلقح بعضها بعضا، وتستطيع الثقافة الإسلامية أن تستفيد من أى ثقافة أخرى طالما لم تنقل عنها ما يخالف العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق.

ولا يعاب المسلمون إن هم أفادوا غيرهم أو استفادوا منهم.

ح - وقسم الخريجين أو المهنيين:

وهو قسم يضم الأطباء والمهندسين والمحاسبين والمعلمين والإعلاميين والزراعيين

والتجاريين وغيرهم، وفى الغالب تكون لهؤلاء نقابات تنظم شئونهم وترعى مصالحهم وتحكم بينهم وبين أصحاب المصانع والشركات والجهات التى يعملون فيها.

● وهؤلاء المهنيون هم عصب المجتمع كله فى الصناعة والتجارة والصناعة وغيرها، لذلك كان الاهتمام بهم واجبا ضروريا، وكان هذا الاهتمام يتخذ الأشكال التالية:

– نشر دعوة الإسلام فى هذا الوسط من الناس، وتحبيبهم فى الالتزام بالإسلام والاعتزاز بالانتماء إليه.

– تشجيعهم على التزود بالثقافة الإسلامية، والإلمام بقضايا المسلمين فى كل وطن من أوطانهم.

– وإعداد الدراسات والبحوث العلمية التى تطور مهنة كل منهم، وما حدث فيها من جديد.

– وحثهم على المشاركة فى الأعمال النقابية بإيجابية وفاعلية والاستفادة من العمل النقابى بما يعود عليهم وعلى كل منهم بكل خير.

– وإعداد المناهج الإصلاحية المختلفة فى شتى النواحى من منطلق إسلامى، والعمل على تطبيقها بوساطة أصحاب هذه المهن.

– وحثهم على الاهتمام بالقضايا الإسلامية، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، ومواجهة التحدى الذى يفد إليهم وإلى مهنهم من أعداء الإسلام والمسلمين، مواجهة علمية عملية.

● ولهذا القسم جهازه الإدارى وخططه وأقسامه من الداخل، بحيث يستوعب كل مهنة ومن ينتمون إليها.

ط – وقسم السيدات :

وهو قسم يعنى بتربية المرأة المسلمة فى مجال تربوى يخصها وحدها دون أن تختلط بالرجال، ويتناول بالرعاية والاهتمام المرأة فى كل مراحل حياتها زهرة وبنتا وأختا وزوجة وأمًّا، وجدة وخالة وعمة.

● ومن أهداف هذا القسم ما نشير إلى بعضه فيما يلى[١]:

---

(١) للتوسع فى هذا الموضوع؛ انظر للمؤلف: المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله – نشر دار الوفاء: ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

– حصر قضايا المرأة ووضع التصورات الإسلامية لها، بحيث تتبنى دعم هذه القضايا ومعايشتها والتغلب على كل ما يعوق المرأة المسلمة فى أى مجال من مجالات حياتها.

– وتنظيم عمل النساء وتوجيه جهودهن فى مجالات العمل الملائم لهن، وبخاصة:

المدارس والجامعات، والمهن المتعددة التى تقوم بها المرأة.

– ووضع برامج إسلامية لما يجب أن تقوم به المرأة من أعمال فى الميادين التالية:

البيت والمسجد والنادى الاجتماعى والرياضى والثقافى والمجتمع كله.

– وعقد ندوات ودورات لمناقشة قضايا المرأة المسلمة فى وطنها العربى ووطنها الإسلامى.

– وتبصير المرأة المسلمة بأن كل دعوة من دعاوى حرية المرأة فى أن تكشف ما أمر الله بستره من جسدها، وحريتها فى أن تتصرف وكأنها لا تنتمى إلى أسرة، كل هذه الدعاوى حرب للمرأة المسلمة ومحاولة للقضاء عليها، وواجب المرأة المسلمة أن تقاوم هذه التوجهات.

● ومن منطلق وحدة العالم الإسلامى، فإن على المرأة المسلمة واجبات موازية لواجباتها فى الأمة العربية، لأن الأمة الإسلامية أمة واحدة كما يفهم ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتاريخ الأمة كله، وكل محاولة للمساس بهذه الوحدة جريمة ترتكب فى حق المرأة المسلمة كما هى جريمة فى حق الرجل المسلم والأجيال المسلمة كلها.

● وهذا القسم تقوم عليه قيادات نسائية وتضع له الخطط والمناهج،ولا بأس من مشورة بعض العلماء ذوى الأسنان والسابقة فى العمل الإسلامى.

ى – وقسم الاتصال بالعالم الإسلامى.

وهذا القسم يتولى الاهتمام بأمور المسلمين فى العالم الإسلامى ودعم الروابط الإسلامية بين أوطانه العديدة فى العالمين العربى والإسلامى، وذلك أن العالم العربى أمة واحدة تجمعها اللغة والأرض والنظم والقيم والتاريخ المشترك والآمال الواحدة، والعدو المشترك.

● ومن هذا المنطلق العربى لابد من أمور أهمها ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

– اعتبار كل مساس بوحدة العالم العربى جريمة فى حق العرب جميعا، يجب مقاومتها وإحباط أهدافها.

– واعتبار قضايا الأمة العربية قضايا لكل مسلم فى أى وطن عربى، سواء أكانت هذه القضايا

سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية.

● وذلك من منطلق أن الأمة العربية أمة واحدة وأن قضاياها واحدة، وأن أثر المرأة فى هذه القضايا وواجبها نحوها لا يقل عن أثر الرجل وواجبه.

– وتأكيد أن كل محاولة لتفتيت الأمة العربية لا يقوم بها إلا عدو لدود، وهذا العدو أصبح معروفا لنا وهو إسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة الأمريكية بشكل مباشر، وأوربا وروسيا بشكل غير مباشر.

– والعمل على ربط الأقطار الإسلامية بعضها ببعض، وإنما يكون هذا بالعمل على توحيد المناهج التعليمية والثقافة والقوانين والتشريعات، وتيسر التنقل والإقامة.

– والعمل على إقامة حكومات إسلامية فى هذه الأقطار، عملا تربويا هادئا، بتربية الأجيال تربية إسلامية تؤدى بالضرورة إلى قيام حكومة إسلامية.

– وتشجيع زيارات بلدان العالم الإسلامى للتعرف على مشكلاتها من قرب.

– والاهتمام بأوضاع الأقليات المسلمة فى العالم وتقديم يد العون لها، كلما أمكن ذلك.

● ويقوم على هذا القسم قيادات وله خططه ومناهجه وسياساته وأهدافه ووسائله.

وبعد :

فليست هذه الأقسام العشرة التى أشرنا إليها إلا نماذج تحتذى، لأن المتغيرات المستمرة فى العالمين العربى والإسلامى قد تقتضى عشرات الأقسام الأخرى للعمل من أجل الإسلام، وعندئذ يكون إنشاء هذه الأقسام واجباً على كل قادر عليه من المسلمين.

٢ – تعدد مراحل الطريق .

طريق العمل من أجل الإسلام لابد أن تكون متعددة المراحل، وذلك أن الإسلام نفسه يعمل على تغيير الناس إلى ما يصلح لهم شئون معاشهم ومعادهم، فهو كما أوضحنا غير مرة ينقل الناس من الشرك والإلحاد إلى الإيمان والتوحيد وينقلهم من الضلال إلى الهدى، ومن التلقى عن الناس إلى التلقى عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

● ولا مبالغة فى قولنا: إن الإسلام ومنهجه نقل للناس من حال إلى حال أحسن فى كل شىء، ولا بأس أن نوضح بعض ذلك فنقول:

– إن الإسلام ينقل الناس من الضلال والحيرة والضياع، إلى الهدى والأمن والاستقامة على

الصراط المستقيم.

- وينقلهم من الانحسار والانكسار والذل والتبعية، إلى الانتشار والقوة والعزة والاستقلال فى الإرادة وفى اتخاذ القرار، ليكون الدين كله لله وتكون السيادة لمنهجه ونظامه.

- وينقلهم من الأنانية والانكفاء على النفس، وعدم الاهتمام بالآخرين، إلى حب الناس، وحب الخير لهم والاهتمام بأمورهم ودعوتهم إلى الحق وإلى طاعة الله ورسوله ليجدوا فى ذلك القيم الخلقية الرفيعة، والنظم الاجتماعية الراشدة التى تضمن كرامة الإنسان.

- وينقلهم من التعادى من أجل أعراض الحياة الدنيا، والتنافر بل الحرب من أجل الماديات بأنواعها، إلى التعاون والتواد والتراحم، بل التكافل فيما بينهم، وإلى الوئام والسلام إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله.

- إن الخلاصة هى أن الإسلام بمنهجه ونظامه وقيمه؛ ينقل الناس من حال لا تحقق لهم مصلحة فى الدين أو فى الدنيا، إلى حال تحقق لهم المصلحتين، وتجعل لهم العزة والكرامة الإنسانية التى أرادها الله تعالى لبنى آدم جميعا.

- هذا الدين الذى ينقل الناس هذه النقلة الضخمة فى أبعادها وأعماقها وأهدافها لابد أن يكون العمل من أجله على مستوى تلك الأبعاد والأعماق والأهداف، فتتعدد مراحله وتزداد خطواته، إذ من العسير أن يتحقق كل ذلك فى مرحلة عمل واحدة.

فما هذه المراحل التى يشتمل عليها العمل من أجل الإسلام؟ إنها فى إيجاز سبع مراحل هى:

- مرحلة العمل على إزالة الشبهات ورد المفتريات التى توجه إلى الإسلام من أعدائه وغافلى أوليائه.

- ومرحلة العمل على مواجهة ومقاومة الغزو الثقافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى.

- ومرحلة العمل على أن تصل دعوة الحق إلى كل من يجب أن تصل إليه، وإلى أن يدخل الناس فى طاعة الله ورسوله، فتوظف طاقتهم من أجل هذا الذى ينقذهم من كل ما يعانون.

- ومرحلة العمل الهادئ الدءوب على التقريب بين وجهات النظر فى المسائل الخلافية بين الفرق التى تنتمى إلى هذا الدين.

– ومرحلة العمل على إخراج المسلمين من حيز النظرية إلى مجال تطبيق الإسلام عمليا بالأخذ بأسباب العلم والتقنية فى كل مجالات الحياة.

– ومرحلة العمل على إعداد المسلمين لكى يمكنوا الدين لله فى الأرض، ليسود الأمن والرخاء والسلام، ويتفيأ الناس ظلال حياة إنسانية كريمة.

– ومرحلة العمل الجاد المستبصر على المحافظة على هذا التمكين لدين الله – بعد الوصول إليه – لأن المحافظة على النصر لا تقل أهمية عن إحراز النصر إن لم تفقه.

● ولكل مرحلة من هذه المراحل حديث طويل، وقد عالجنا ذلك فى كتب لنا (١)، وسوف نشير إلى ذلك هنا بإيجاز يلائم هذا المجال من الحديث، سائلين الله التوفيق.

أولا:

مرحلة إزالة الشبهات الموجهة ضد الإسلام

الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام ضده كثيرة والمفتريات التى يطلقونها عليه غير قليلة، والعمل على إزالة تلك الشبهات ورد تلك المفتريات عمل ضخم يتطلب تضافر جهود العلماء والباحثين مع مزيد من الإخلاص والموضوعية.

وتلك مرحلة عمل لا يستهان بالجهد المبذول فيها ولا بالزمن الذى تستغرقه، ولا بعدد العلماء والباحثين الذين يجب أن يشاركوا فيها، ولا بالقواعد والأسس التى يقوم عليها العمل فى هذه المرحلة، ولا بتعدد التخصصات التى يجب أن تتوفر فى العلماء والباحثين.

● وأعداء الإسلام الذين يثيرون هذه الشبهات ويرددون تلك المفتريات أصناف منهم:

– اليهود والصهاينة فى الماضى والحاضر،

---

(١) من تلك الكتب:
● الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى.
● والغزو الصليبى والعالم الإسلامى.
● والتراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه.
● وفقه الدعوة إلى الله.
● وسلسلة التربية فى القرآن الكريم.
● وسلسلة مفردات التربية الإسلامية.
● وتربية الناشئ المسلم.
● ومع العقيدة والحركة والمنهج.

– والملحدون، فى كل زمن ،

– والصليبيون قديما وحديثا ،

– والذين والوا هؤلاء من المسلمين وانسلخوا عن إسلامهم،

– وأهل الغفلة من المسلمين.

● وقد أثار أعداء الإسلام شبهات ورددوا مفتريات على الإسلام نفسه : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وشخص الرسول ﷺ .

كما أثاروا شبهات ورددوا مفتريات حول الموضوعات التالية :

– شخصيات كثير من الصحابة وبخاصة كبارهم،

– ومشاهير القادة من الصحابة كخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وغيرهما،

– ومشاهير الصحابة رضوان الله عليهم كعلى ومعاوية وعمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى وغيرهم،

– وكثير من التابعين وتابعيهم،

– وكثير من العلماء والفقهاء ورواة الحديث،

– وكثير من قادة المسلمين ومصلحيهم فى كل عصور الإسلام،

– وكثير من دول الإسلام، وتاريخه.

وكتاباتهم فى ذلك معروفة،والمرددون للشبهات والمفتريات معروفون كذلك[1].

● أما الكتب والدوريات والمجلات والصحف فهى أكثر من أن تحصى فى هذا الكتاب، وتلك الشبه والمفتريات التى ترددت فيها لا تزال ماثلة للعيان، والردود على بعضها قد تَمّ والحمد لله على أيدى أجلاء العلماء، وإن كان بعضها الآخر لا يزال بحاجة إلى إزالة الشبهة ودحض الافتراء.

وقد أشرت إلى بعض هذه الكتب والدوريات والمجلات فى بعض مؤلفاتى، وإن كنت لم أستوعب.

---

(١) ذكرتُ طرفا من هذه الكتب وأولئك المؤلفين فى كتابىَّ: الغزو الفكرى – مرجع سابق. والغزو الصليبى والعالم الإسلامى – مرجع سابق الإشارة إليه.

● وأما دوائر المعارف فأشهرها: «دائرة المعارف الإسلامية» التى أعدها جمع من المستشرقين نفث بعضهم سمومه فيما كتب عن الإسلام مبتعداً عن الحياد والموضوعية التى يدعون.

وقد ترجمت هذه الدائرة إلى اللغة العربية، وتولى الرد على كثير من الشبهات والمفتريات فيها عدد من مشاهير العلماء - على هوامش الصفحات - ولكنّ كثيرا مما فيها لا يزال يحتاج إلى ردود العلماء المتخصصين[1].

● هذه المرحلة من العمل من أجل الإسلام تحتاج إلى جهود فريق من العلماء، ولا يغنى فيها جهد العالم الواحد مهما أوتى من العلم والمعرفة والقدرات المتعددة، إذ من المُسلَّم به أن عمل الفريق أبعد عن القصور من عمل الفرد الواحد، وأكثر نضجا واستيعابا لأبعاد الموضوع وأعماقه.

● وهذه المرحلة تعتبر مرحلة العمل الجماعى من أجل رد هذه الشبهات ودفع تلك المفتريات.

● إن هذه الشبهات وتلك المفتريات التى يوجهها الأعداء إلى الإسلام؛ تصيب كثيرا من المسلمين بالتشكك والبلبلة، وتضعف فيهم الالتزام بالإسلام،وتصرفهم عن الاعتزاز بالانتماء إليه، وتطلق ألسنة الغافلين المخدوعين منهم بترديد هذه الفهم وإشاعة هذه المفتريات؛ كما هو حادث اليوم، من ترديدهم تهما بعينها ضد الإسلام ومن أمثلة ذلك:

- ادعاؤهم بأن دين الإسلام قد نشر بين الناس بالسيف والقهر والإكراه؟!!

- وسخريتهم من أنه دين يقوم على الإيمان بالغيب، فيما يتعلق بغير المحسوسات والمشاهدات من مفرداته!!!- وتقليلهم من أهمية عقيدة التوحيد فى نفوس المؤمنين، بل

---

(١) صدرت فى هذا المجال بمصر، عن: «سفير للإعلام والدعاية والنشر» دائرة سفير للمعارف الإسلامية.
تستهدف ما يلى:
- تقديم الإسلام لقارئ اليوم بلغة العصر،
- ومحاولة استيعاب المعارف الإسلامية فى مختلف مجالات العلم والمعرفة على مَرِّ عصور الإسلام وحضارته،
- والتعريف الصحيح للإسلام فى حياد وموضوعية وتجرد،
- والرد على كثير من الشبهات التى تشاع ضد الإسلام،
- ودفع المفتريات التى وجهت ضد الإسلام من خلال البحث العلمى الدقيق الذى يقوم به لفيف من العلماء منهم عدد غير قليل من كبار أساتذة الجامعات.
وقد صدر منها حتى نهاية عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م أربعون عدداً فى ثلاثة آلاف واثنتى عشرة صفحة، وهى مستمرة فى إصدار أعدادها.

إنكار بعضهم للتوحيد أساسا!!!

– وتكذيبهم بالوحى واتهامهم الرسول ﷺ بأنه جاء بالقرآن من عند نفسه، أو يعلمه بشر!!!

– واتهامهم القرآن الكريم بأنه كتاب محلى إقليمى كان صالحا للناس الذين أنزل عليهم، وللمكان الذى أنزل فيه، أما ما وراء ذلك من الناس والزمان والمكان فإنه – فى زعمهم غير صالح–!!!

– واتهامهم الرسول ﷺ بأنه ابتدع القرآن الكريم محاكيا به الكتب السابقة!!!

– واتهامهم الرسول ﷺ بالشبق الجنسى لأنه تزوج أكثر من أربع نساء، أو أكثر من واحدة!!!

– وطعنهم على الإسلام فى إباحة تعدد الزوجات، وإباحة الطلاق!!!

– وطعنهم فى الإسلام فى توريثه المرأة نصف ما يرث الرجل فى حالات بعينها!!!

– وزعمهم أن الإسلام يضطهد المرأة ويحرمها من حقوقها فى العلم والعمل، ومساواة الرجل فى الحقوق والواجبات!!!

– واتهامهم المسلمين بالتعصب لدينهم ومعاداة أهل الأديان الأخرى فضلا عن معاداتهم لغير أهل الأديان!!!

– وادعاؤهم أن الإسلام كهنوت أى دين لا دولة، ودعوة لا حكومة!!!

– وزعمهم أن الإسلام يحجر على حرية الفكر والرأى، ولا يعترف بالرأى الآخر!!!

– وزعمهم أن المتمسكين بالإسلام متطرفون إرهابيون أهل عنف وضراوة!!!

– واتهامهم الإسلام بأنه يفرض قيودا على حرية الإنسان وينتقص من حقوقه العامة!!!

– وإلقاؤهم الشك حول القادة والمصلحين من المسلمين واتهامهم بكثير من الأباطيل والمفتريات!!!

– وربطهم بين الإسلام وأخطاء أفراد من المسلمين، وتحميلهم الإسلام بوصفه منهجا ونظاما لكل أخطاء الأفراد!!!

إلى غير ذلك من الاتهامات التى تحمل الشبهات وتشيع المفتريات والأباطيل.

وكل ذلك يحتاج كما قلنا إلى جهود العلماء المتخصصين وإلى وقت طويل وعمل صعب مُضْنٍ، وتلك معالم هذه المرحلة الأولى من مراحل العمل من أجل الإسلام.

ثانيًا :

مرحلة مقاومة الغزو الثقافى والسياسى:

وهذا الغزو ليس ثقافيا وسياسيا فحسب، ولكنه أكثر تشعبا من ذلك، فهو غزو اجتماعى واقتصادى، وغزو قيم فاسدة هابطة تريد أن تقتلع قيما أصيلة.

● إن هذا الغزو بديل للعدوان العسكرى المسلح ولكنه أخبث منه وأضرى وأَضَرّ، وذلك أن الغزو العسكرى يتمثل فى عدو مسلح محتل للأرض مهما كان قويا فإن مقاومته لا بد أن تكون ولابد أن تؤدى إلى خروجه وطرده، أما الغزو الثقافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى، فإنه عدو غير منظور، قد لا تأخذ مقاومته صفة المواجهة، فيطول بقاؤه فى الأرض، ويسيطر عليها سيطرة غير مستفزة للناس بخيلها ورَجلها.

● وهذه المرحلة من العمل على جانب كبير من الأهمية – مثل المرحلة السابقة – لأن العمل فيها يستهدف تنظيف عقول الناس وأفكارهم من المغالطات والتضليل وكل ما من شأنه أن يقلل من شأن هذا الغزو أو يخفف من آثاره.

● إن العمل فى هذه المرحلة يستهدف شحذ روح المقاومة الإسلامية لهذا العدو المتستر بالثقافة والسياسة والاقتصاد والعادات الاجتماعية، المستهدف لضرب الإسلام والمسلمين فى المقاتل والمواجع.

● إن العمل من أجل الإسلام فى هذه المرحلة ينبغى أن يركز على توضيح أهداف هذا النوع من الغزو، وعلى التعريف بوسائل هذا الغزو وأساليبه، ليبصر المسلمين بعدوهم وليعينهم على التخلص منه.

● فما هى أهداف هذا الغزو ؟

تلك النقطة الأولى التى نود أن نوضح أبعادها فنقول:

أهداف الغزو الثقافى والسياسى :

– أول أهدافه :

طمس الفكرة الصحيحة السليمة عن الإسلام، لتحل محلها الفكرة الخاطئة المضللة

المعادية للإسلام والمسلمين.

وقد نجح العدو فى هذا الغزو حتى أصبح بعض المسلمين ينحاز إلى فكر العدو وثقافته بل ربما تحول بعض الغافلين إلى دعاة لهذا الفكر الغازى الخبيث!!!

- ومن أهدافه :

إضعاف موارد الثقافة الإسلامية بمزاحمتها بثقافات معادية للإسلام، تنتمى إلى الغرب حيناً وإلى الشرق حيناً، ولا يخفى ما للثقافة من أثر حاسم فى بناء الشخصية وتوجيه السلوك.

وقد نجحوا فى ذلك الغزو حتى أصبح من بين المسلمين من يزدرى موارد ثقافته، ويفضل عليها ثقافة عدوه، ويرى ضرورة الأخذ بكل ما فى ثقافة الغرب وحضارته حلوها ومرها، خيرها وشرها!

- كما ورد ذلك على لسان أحد المسلمين الذى تحول إلى داعية لثقافة الغرب وحضارته.

ومن المسلمين من غرق حتى أذنيه فى مستنقع الثقافة الشرقية أو الشِّرْكية الإلحادية - فيما كان يتبناه ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى - ولا يستحى بعضهم حتى الآن من الإشادة بتلك الثقافة حتى بعد سقوطها!!!

- ومن أهداف هذا الغزو إلغاء القيم الخلقية الإسلامية التى تحكم سلوك المسلمين والمسلمات كالعفة والشرف والصدق والأمانة والشجاعة والإخلاص، لتحل محلها مضاداتها من القيم الوافدة التى لا تقيم وزنا لهذا الفضائل، بل تستخف بها وتتندر بالمتمسكين بها!!!

وقد نجحوا فى ذلك حتى أصبح بعض المسلمين يستهينون بهذا القيم الفاضلة ويتصفون بالأخلاق الراذلة الوفدة، ويسخرون وسائل الإعلام التى يسيطرون عليها للزراية بكل ما هو إسلامى!!!

وكل ذلك قتل لروح المقاومة والشجاعة فى الناس، حتى يأمن هذا الغزو على نفسه، إذ ماذا ينتظر من شاب يجاهر بشرب الخمر والزنا والكذب والاحتيال والانخلاع من قيمه وفضائله؟ هل يستطيع أن يقاوم أحدا أو شيئا؟

- ومن أهداف هذا الغزو تفتيت وحدة العرب ووحدة المسلمين، ولهم فى ذلك مخططات غير خافية؛ فهم يخططون لضرب وحدة الوطن الواحد بإثارة النعرات الطائفية وتغذيتها،

ولضرب وحدة الأمة العربية بإثارة الخلافات واصطناع المشكلات بين حكامها، ولضرب وحدة المسلمين بإثارة الفتن والخلافات المذهبية ومدها بكل خبيث من الأسباب، وقد نجحوا فى ذلك، فعاشت بعض الأوطان حربا أهلية طاحنة كلبنان واليمن، وعاشت الأمة العربية مأساة عدوان طاغية العراق على الكويت، وعاشت الأمة الإسلامية محنة إحياء الخلاف بين الشيعة والسنة!!!

– ومن أهداف هذا الغزو محاولة عزل الإسلام منهجا ونظاما وأسلوب حياة، عزله عن حياة الناس بدعوى أنه دين وكهانة لا صلة له بتنظيم حياة الناس، وإذا عزل الإسلام عن حياة الناس ضعفوا وهانوا وزادت همومهم ومشكلاتهم، وذلك أن الإسلام يحترم إنسانية الإنسان ويعلمه إباء الذل والضعف والتبعية والذنبية، فإذا عُزل هذا الدين عن الحياة عزلت كل تلك القيم، فاستطاع هذا الغزو أن يقضى على المقاومة، وأن يستنيم المسلمون ويركنوا إلى مناهج الغرب أو الشرق فى حياتهم.

وقد نجحوا فى ذلك فاصبح من المسلمين من يقول: إن الإسلام دين لا دولة، وأنه كان صالحا لزمان جاء فيه ولناس نزل عليهم، بل وجد من المسلمين من يقول: إن الإسلام لا علاقة له بحل مشكلات الحياة ويتندر بمن يقول: إن الإسلام هو الحل!!! مع أن الإمام الشافعى رحمه الله قال: « ... فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها».

– ومن أهداف هذا الغزو إيجاد التكتلات والتجمعات الإقليمية أو العرقية التى تفتت وحدة الأمة العربية حيث كان هذا الغزو بأساليبه الخبيثة وراء تكتلات: دول الخليج، ودول المغارب، ودول الطوق، وغيرها مما أثبت الواقع فشلها إلى حد كبير، لأن هدف هذه التكتلات فى مقابل كيان الأمة العربية التى يراد له أن ينهار فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه التكتلات ولدت على يد الأعداء ونمت وترعرعت فى حجورهم وفى رعاية مستشاريهم ومبعوثيهم فوق العادة، بل جواسيسهم!!!

وقد نجحوا فى ذلك فوجدت التكتلات لكن لهشاشتها لم تمنع بعض الدول فى إحدى التكتلات من العدوان على دولة فى نفس التكتل فتستولى على أرضها!!!

وقد نجحوا فى أن يوجدوا من العرب من يقبل بهذه التكتلات ويقتنع بأنها فى صالحهم، فكان العدوان وكانت الحرب وباع العدو السلاح لهؤلاء المتكتلين الغافلين وزرع أرضهم سلاحا ورجالا وخبراء يلجأ إليهم الغافلون فى كل مسألة!!!

- ومن أهداف هذا الغزو إثارة القلق والاضطراب فى أبناء الوطن الواحد، بإغراء الحكام والحكومات بهضم حقوق أبناء الوطن، وإهدار كرامتهم بالتعذيب والترويع والظلم والمحاكمات الجائرة، فى الوقت الذى تفعل فيه الحكومات هذا تستولى هى على خيرات الوطن لأنفسهم ولذويهم وأصهارهم.

وهذا التعامل مع المواطن يقتل فيه روح التضحية ويقضى على حبه للبقاء فى وطنه إن أفلت من الموت فى التعذيب، فكانت الهجرة من البلاد والاستيطان فى بلاد الأعداء، وأصبح من الواضح لدى المتابعين لظروف الهجرة من الأوطان أن المهاجرين ضاقوا بالعيش فى أوطانهم لما يقع عليهم من اضطهاد، وما يحرمون منه من حقوق هى حقوقهم الطبيعية.

وقد نجح الأعداء فى ذلك، فأصبحت كثير من الحكومات فى البلدان الإسلامية عنوانا على هدر حقوق الإنسان، وأصبحت أكثر البلاد تفريغا لوطنها من أبنائه، ثم عادت دول الأعداء تتندر بتلك الحكومات لأنها تهدر حقوق الإنسان!!!

- ومن أهداف هذا الغزو إغراق بلاد العرب والمسلمين فى الديون التى يقدمها العدو مشروطة متفاقمة الفائدة ممهدة للسيطرة على تلك البلد المستدينة.

وقد نجحوا فى ذلك حتى أصبحت كل دول المسلمين مستدينة من أعدائها، مثقلة بربويات الديون، مقيدة بشروطه، مما يؤدى إلى مزيد من الضعف السياسى والاقتصادى، مما يمكن العدو من السيطرة على تلك البلدان المستدينة.

● وما وسائل هذا الغزو وأساليبه؟

تلك هى النقطة الثانية التى نحب أن نوضحها هنا بعون الله تعالى وتوفيقه.

من المؤكد لدى كل مراقب للأحداث أن الأطراف الذين تحالفوا ضد الإسلام - من غزاة الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد الذين أوضحنا كثيرا من أهدافهم آنفا - لديهم وسائل وأساليب لتحقيق هذه الأهداف، ومن هذه الوسائل والأساليب ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

أ - وسائل الغزو الثقافى والسياسى:

أجهزة الإعلام:

من صحافة وإذاعة مسموعة أو مرئية وسينما ومسرح وكتب ونشرات، والإعلام أداة رهيبة عظيمة الخطر فى تشويه الحقائق إذا كان القائمون عليها راغبين فى قلب الحقائق

وتشويهها، أو كانت لهم أهداف يريدون أن يحققوها؛ مشروعة كانت هذه الأهداف أو غير مشروعة.

● ومن المعروف أن هذه الأجهزة الإعلامية يسيطر عليها اليهود وأعداء الإسلام فى معظم أنحاء العالم، واليهود كما هو معروف أشد الناس عداوة للذين آمنوا.

– وإنما كان لهذه الأجهزة خطرها لأن معظمها يقتحم على الناس بيوتهم ومهاجعهم، لتبث فيهم سمومها وتصل بهم إلى ما تريد من أنواع الغزو الثقافى الذى نتحدث عنه، وماذا يفعل الناس وقد أحيط بهم بهذه الأجهزة؟

– ومن يقرأ صحافة الغرب أو يستمع إلى إذاعاتهم أو يشاهدها أو يرى إنتاجهم السينمائى، ويكون لديه أدنى قدر من الرغبة فى الملاحظة، ليدرك كم يكن هذا الغرب للإسلام والمسلمين من عداء، وكم تنجح هذه الأجهزة فى تحقيق أهداف هؤلاء الأعداء.

– وإذا تركنا الصحف والمجلات والكتب والكتيبات جانبا – لأن المطلعين عليها أقل عددا – ونظرنا إلى المسلسلات التى يعرضها التليفزيون، وهى فى عمومها مسلسلات أجنبية معادية للإسلام وقيمه، بما تشيعه فى المشاهدين من قيم بديلة لايرضاها الإسلام، أو إلى المسلسلات العربية التى يشيع فى كثير منها نفس القيم التى لايقرها الإسلام، لما فيها من إغواء وإغراء بالشر والجريمة والرذائل التى أصبحوا لايعدونها رذائل!!!

– وكم مسلسل أجنبى عرض دون أن يشاهده الرقيب، ثم هاج الناس، وماجوا لما يشجع عليه من قيم فاسدة، فأدرك الرقيب خطأه أو تقصيره فمنع إذاعة المسلسل؟

وحسب هذه المسلسلات شرا ودلالة على الشر فى تحدى القيم، وانتهاك المحارم والمحرمات، زواج الرجل من زوجة ابنه، وزواج الأخ من زوجة أخيه، وما لايحصى من الاستخفاف بنظام تحريم الزواج من المحارم فضلا عن الزنا بهن!!!

وحسبها من ذلك مسلسل «الجرىء والجميلات» وغيره من المسلسلات التى اعترض عليها الناس فى الصحف.

– وقد انتقلت عدوى الاستخفاف بالدين والمحارم إلى كثير من المؤلفين والمخرجين فقدموا للسينما والمسرح ما يغرى بانتهاك المحارم ونبذ ما يدعو إليه الدين والسخرية به، ولما قيل لبعضهم: لماذا؟

قال صائحا غاضبا: إنها الواقعية؛ كأن الواقعية كلها شر وفساد وليس فيها خير وصلاح!!

– ثم انتقلت عدوى الكتابة المعادية للإسلام إلى أقلام عدد من الكتاب المسلمين، فكتبوا المقالات والدراسات يحرمون على المسلمين ما يحلون لغيرهم، ويحلون للمسلمين ما حرم الله عليهم، ويتهجمون على كل ما هو إسلامى، ويطلقون من التسميات ويشيعون من التراكيب ما ينبئ عن جهلهم وغفلتهم وضلالهم مثل:

- التطرف الإسلامى،
- والإرهاب الإسلامى،
- والعنف الإسلامى!!

ولايدركون خطأهم فى وصف هذه الجرائم المحرمة بأنها إسلامية!!! ولعلهم يجارون الأجانب عن الإسلام الذين يحملون الإسلام أخطاء المسلمين!!!

أو لعلهم يقصدون تشويه الإسلام وتنفير الناس مادام متطرفا إرهابيا عنيفا!!!

– ثم انتقلت العدوى إلى بعض الكتب والدراسات التى تتهجم على الإسلام لينال أصحابها حظوة عند أعداء الإسلام وقد نالوا فعلا[1].

وبعد: فهذه كلمات خاطفة عن أخطر وسائل الغزو الفكرى وهو أجهزة الإعلام.

ب – المستشارون والخبراء:

وهؤلاء طائفة غير قليلة العدد ولا هينة التأثير، تبعث بها الدول الكبرى التى تحمل عبء معاداة الإسلام، ليشيروا على كثير من حكومات العالم الثالث – والعالم الإسلامى كله مصنَّف لديهم فى إطار العالم الثالث، أو النامى أو المتخلف أو الذى تهدر فيه حقوق الإنسان – وتتبارى كثير من حكوماته فى قمع الإسلاميين ورميهم بأبشع التهم!

وهذا العالم الثالث – ومنه العالم الإسلامى – غارق فى الاستدانة من الأعداء خاضع لشروط الديون وفوائدها؛ فإن الحكومات الدائنة والصناديق الدائنة – خوفا منها على أموالها، واطمئنانا منها على ضرورة سداد فوائد الديون التى تزيد على الدين نفسه فى بضع

---

(١) من أمثلة هؤلاء:
سلمان رشدى، وتسليمة نسرين، ونصر أبو زيد، وقد حظى هؤلاء بالمكافأة المادية والأدبية فكرمهم بعض رؤساء الدول، وعاملوهم أحسن معاملة!!!

سنين – توفد إلى البلدان المدينة خبراءها ومستشاريها، ومع كل منهم خريطة عمل اقتصادى محكمة لايجوز الخروج على شيء مما فيها!!!

وهؤلاء المستشارون والخبراء لهم فى البلد المدين أرفع مكانة وأوسع نفوذ، ولآرائهم القبول المطلق، ولهم الكلمة الأخيرة فى الاقتصاد وغيره، من منطلق أن الاقتصاد يؤثر فى السياسة– وفى النظم الاجتماعية وفى الفكر والثقافة، وفى التعليم، فلابد من سماع كلمتهم وتنفيذ توجيهاتهم لحماية فوائد الديون!!!

- وتلك قصة يمارسها أعداء الإسلام مع المسلمين من يوم كانوا يحتلون الأرض بجنودهم وعتادهم إلى أن أصبحوا يحتلون معظم بلدان العالم الإسلامى بهذا الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى والتعليمى والإعلامى فى هذه الأيام.

- وقصة الديون وفوائدها وصندوق النقد الدولى وغيرها من جهات الإقراض قصة معروفة لكل من يشتغلون بالاقتصاد أو السياسة أو الإصلاح الاجتماعى، وهى ليست بحاجة إلى أن أزيدها وضوحا فى هذا المجال.

جـ – المدارس والجامعات الأجنبية:

وهى من الوسائل الفعالة فى تحقيق أهداف الغزو الذى نتحدث عنه، ومن خلال هذه المؤسسات ينفذ الغزو الفكرى إلى تحقيق أهدافه بأيدى أبناء الوطن المغزو!!!

- هذه المدارس والجامعات الأجنبية تربى أبناء الوطن المغزو على الولاء لتلك البلاد التى تمارس الغزو الفكرى والثقافى فى الأوطان المسلمة التى تغزوها؛ وذلك من خلال وسائط فاعلة فى التربية من أهمها: المعلم والكتاب والمنهج والجو المدرسى بوجه عام، بالإضافة إلى مستقبل جيد ودخل جيد وربما أضيف إلى ذلك منصب جيد جدا.

– فمن خلال المعلم التربوى الذى يؤدى وظيفة ورسالة، يتسلل الإعجاب بالحضارة المعادية للإسلام وبمن يمثلونها ويحدث بتدرج الازدراء للحضارة العربية والإسلامية ثم يتحول ذلك إلى ولاء لحضارة العدو؛ والمعلم الماهر الموجه الذى أحسن اختياره لهذه المهمة قادر على أن ينقل إلى تلاميذه كل هذا الإعجاب بحضارته وكل إخمال وتهميش لحضارة الوطن الذى يعمل فيه، ثم يدع التلميذ ليصل إلى النتيجة المرجوة دون تصريح بالهدف ودون تجريح لحضارة الوطن.

هذا المعلم غير مثقل بالعمل وغير قلق على الرزق، وعنده من الوقت ما ينفقه فى عقد علاقات بتلاميذه تزيدهم به إعجابا وتقديرا، فيكون فى نظر تلاميذه رسول تلك الحضارة المعادية للعروبة أو الإسلام!!!

– والكتاب الذى تقدمه هذه المدارس والجامعات الأجنبية فى الأوطان المسلمة، كتاب بالغ الجودة فى شكله وإخراجه وطباعته وحجمه ونوع ورقة ورسومه وأشكاله، وفى الغالب يكون مطبوعا فى الغرب ليكون دعاية للإجادة والإتقان هذا فى الشكل.

أما فى المحتوى، فهو معد بعناية أيا كان موضوعه المعرفى عناية بإبراز الحضارة الغربية فى ثوب الحضارة الإنسانية التى لايستغنى عن الأخذ عنها أى إنسان راق متنور، فضلا عما فيه من غمز ولمز للحضارات الأخرى التى تقوم فى جانب منها على الإيمان بالغيب، وعلى احترام الماضى وتقدير السلف وتحريم الخمر وغيرها من متع الحياة!!!

إن الكتاب بمحتواه فضلا عن إخراجه الجمالى يؤدى رسالة هامة فى تحويل الولاء عند التلاميذ، ومن وراء الكتاب الأجنبى وسائل الإعلام وأجهزته التى تشيد بهذا الوافد الغازى وتتندر بالكتب الصفراء، وكتب السلف، وما فيها من عَنْعَنات[1] وروايات!!!

– وأما المنهج فحدث عنه ولا حرج، فقد أعده العدو بعناية فائقة وجعله – فى أى فرع من فروع المعرفة – رسولا من رسل ثقافته وحضارته، ومدافعا منافحا عنها وعن كل معطياتها، وربط ذلك – فى مهارة – بتفوق الغرب علميا واقتصاديا وسياسيا، وتأخر الشرق أو تأخر العرب والمسلمين دون تصريح بهذا التأخر، وإنما هى مقارنات خاطفة تبدو غير مقصودة.

والمنهج بمعناه العام يتناول العملية التعليمية كلها، وفى كل جانب من جوانب هذه العملية تمكّن للغزو الثقافى الأجنبى وتحتمل الثقافة الوطنية والقيم الإسلامية – وتلك قضية معروفة الأبعاد والأهداف والوسائل، وليس هنا مجال شرحها وتفصيلها – ولكنه مجال الإشارة إليها فحسب.

– وأما الجو المدرسى ففيه كل ما يرضى المتعلم الشاب المراهق، من اختلاط البنين بالبنات ومن مشاركة بين الجميع فى أعمال مسلية مرفهة عن عناء العملية التعليمية وبغض النظر

---

(١) أى رواية الأخبار والأحداث بعبارة عن فلان عن فلان إلخ أى الارتباط بهؤلاء الأسلاف الذين عاشوا حياتهم وفرضوا ما فيها على حياتنا... هكذا يزعمون فى وسائل الإعلام!!!

عن أن تكون هذه الأعمال بريئة أو خلقية!!!

– وفى هذه المدارس والجامعات الأجنبية المزروعة فى بلاد المسلمين، تتحقق كل أهداف الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى من طمس الفكرة الصحيحة عن الإسلام وقيمه وتاريخه إلى إضعاف الثقافة العربية والإسلامية، إلى إهمال اللغة العربية وإخمالها، إلى رفض القيم الخلقية الإسلامية، إلى التهوين من شأن المحرمات الإسلامية، إلى عزل الإسلام ومنهجه عن الحياة العائلية والاجتماعية عموما فضلا عن الحياة السياسية، إلى غير ذلك من أهداف، من منطلق أن هؤلاء الذين يتولون السلطة والحكم فى البلاد بدعم من أصحاب هذه المؤسسات التعليمية الأجنبية والدول التى تنفق عليها وتوجه سياستها.

● والشواهد على صدق ما أقول كثيرة، يؤيدها الواقع الملموس لو أجريت إحصائية تتبع عدد الحكام والوزراء الذين تعلموا فى المدارس والجامعات الأجنبية فى بلادهم أو الغرب.

● بل إن الناس قد عرفوا ذلك وأحسوا به، فأصبح الذين يريدون لأبنائهم المكانة المادية والأدبية يدفعون بأبنائهم إلى تلك المدارس والجامعات فى الداخل أو الخارج ناهيك عن أبناء الحكام والسلاطين والأمراء والملوك والرؤساء!!!

● وإن من الحقائق المسلمة أن المسلمين الذين يريدون تربية غربية معادية للإسلام لابد أن يكونوا من الوسائل التى تحقق أهداف الغزو الفكرى والثقافى والسياسى فى بلاد المسلمين، ما يشك فى ذلك منصف من المراقبين.

د – المؤسسات والمصارف والشركات الأجنبية.

هذه المؤسسات والمصارف والشركات الأجنبية، وإن كانت تسهم فى إيجاد فرص عمل لأبناء البلاد المغزوة ثقافيا وسياسيا وتحدث نوعا من الرواج والرخاء الاقتصادى النسبى، وتسهم فى التنمية إلى حد، وتخضع لقوانين البلاد المغزوة، ويتولاها فى الغالب أجانب عن البلاد أو مواطنون ربوا تربية أجنبية.

هذه المؤسسات لها من السلبيات ما يفوق إيجابياتها بكثير، ولها فى معاداة الإسلام والمسلمين أوفى نصيب، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

– هذه المؤسسات والمصارف والشركات تتعامل بالربا، والربا حرّمه الإسلام لسبب بسيط هو: «سوء استغلال حاجة المحتاج».

والأصل فى الإسلام أن يؤمن للمحتاج حاجاته براً به وأداء للواجب نحوه، واستجابة لأمر الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)** ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، ولما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «... ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» ولما رواه البخارى بسنده عن أبى بردة عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ، قال: «على كل مسلم صدقة، قالوا يانبى الله، فمن لم يجد» قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف...».

ولهذا وأمثاله حرم الإسلام الربا وآذن بحربه وحرب المتعاملين به فى كل زمان ومكان.

– وهذه المؤسسات والمصارف والشركات – على وجه الحقيقة – تسيطر على اقتصاد البلاد وتوجهه إلى حيث تريد من تحقيق أهدافها، أهداف الغزو الثقافى والسياسى الذى يديره أعداء العرب والمسلمين، وربما عجزت بعض الحكومات عن مقاومة أهداف هؤلاء الأعداء وسياستهم، لأنها مدينة لهم – والمدين ضعيف أمام دائنه –

– وهذه المؤسسات والمصارف والشركات تغير من عادات العرب والمسلمين ومن قيم دينهم، وعلى سبيل المثال:

- ليس فى هذه المؤسسات مكان لأداء صلاة الظهر التى تحين أثناء العمل، بل إن بعضها لاتسمح لعامليها بالتوقف عن العمل لأداء الصلاة، بل إن بعضها تضع من يتمسك بأداء شعائر الإسلام فى موضع الريبة وسريعا ما تستغنى عنه.
- ومعظم هذه المؤسسات يجارى اليهود فى عطلة يوم السبت ويجارى الصليبيين فى عطلة يوم الأحد، وكثير منها يعمل يوم الجمعة فى عدد من بلدان المسلمين!

– وكثير من هذه المؤسسات تسودها عادات وتقاليد واحتفالات أجنبية أبسط ما يقال فيها أنها مخالفة للإسلام وقيمه، ولا داعى لتفصيل الحديث فى ذلك فهو معروف لمعظم الناس.

– أفلا تؤدى هذه المؤسسات والمصارف والشركات بمالها من هذه التصرفات أعمالا تحقق أهداف الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى، وتسهم فى إخمال الإسلام وتعطيل أحكامه وإبطال أخلاقه وآدابه؟

هـ – المؤتمرات والندوات والأمسيات:

وهى أعمال ظاهرها البراءة وخدمة العلم والثقافة، وباطنها خدمة السياسة المعادية للإسلام وقيمه.

ولقد أصبحت الندوات والمؤتمرات تؤدى عملا مضادا لأبناء الوطن، إذ تستفرغ طاقاتهم فى المعارضة والتحدى لما يريدون فيما يرددون من كلمات وما يصدرون من توصيات – معدة مسبقا – فى هذه المؤتمرات، والتوصية قلما تخرج إلى حيز التطبيق والتنفيذ حتى عندما كانت ترسل منها نسخ إلى الحكام والرؤساء والملوك والأمراء، وكثيرا ما أرسلت، بل كثيرا ما كانت هذه المؤتمرات تحت رعاية الرؤساء والملوك، والأمراء، ثم لاتسفر عن شىء.

– وكذلك شأن الندوة والأمسية والاحتفالية وما إليها، لاتسفر عن شىء إيجابى إلا امتصاص الرغبة فى الاعتراض أو الرغبة فى الإصلاح، وهذه فى صالح العدو وليست فى صالح أبناء البلاد المغزوة بحال.

– ولنضرب على ذلك مثلين اثنين لا أكثر:

أ – مؤتمر السكان بالقاهرة.

ب – ومؤتمر المرأة ببكين.

● **مؤتمر السكان عقد بالقاهرة سبتمبر عام ١٩٩٤م.**

كان من توصياته ما ينم عن أهدافه فى تحدى العالم الإسلامى خصوصا والعالم «النامى» عموما، إذ أوصى فيما أوصى بما يلى:

– «تأخير سن الزواج»:

وهذا يعنى إباحة البديل عن الزواج، وسكوت الحكومات عنه والبديل هو الزنا واللواط والسحاق، وكل تلك محرمات أراد أن ينتهكها المؤتمر مع أنها محرمة فى كل دين وليس فى دين الإسلام فحسب.

– «واتخاذ الحكومات لإجراءات فعَّالة للقضاء على التمييز فى السياسات والممارسات بين الزواج وأشكال الاقتران الأخرى» أى لايكون هناك فرق بين الزواج وغيره من أشكال اتصال الرجل بالمرأة أو الرجل بالرجل أو المرأة بالمرأة!!!

– «والتسوية بين الرجل والمرأة فى الميراث»

وتلك مصادمة صريحة لنظام التوريث فى الإسلام كما دل على ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- «وشرعية الإجهاض»:

حيث يرون أن الإجهاض يمثل حلاً للتزايد السكانى، مع أن الأديان كلها حرمت هذا الأجهاض.

- «وضرورة توزيع العازل الذكرى على الشباب مجانا»:

مع تعليمات بكيفية استعماله حتى يأمن الشباب من عدوى الأمراض التناسلية فيشبع غريزته دون خوف، مع الرخصة فى الإجهاض فى التوصية السابقة.

● وبغض النظر عن قضية أن زيادة السكان ليست كارثة؛ بدليل أن الإنسان أغلى ما فى الوجود وأنفع ما فى الوجود لنفسه ولغيره وللأرض التى يعيش عليها، فإن دولا كثيرة تستثمر الطاقة البشرية بنجاح على الرغم من قلة إمكاناتها فى المواد الأولية، مثل اليابان وسنغافورة، هونج كونج، وغيرها.

أما أن يزيد السكان فى العالم الإسلامى فتلك فى نظر الغرب وإسرائيل كارثة يخطط لتفادى الوقوع فيها، وتعقد لها المؤتمرات والندوات.

ومن اللافت للانتباه أن المدعوين إلى مؤتمر السكان بالقاهرة زاد عددهم على العشرين ألفا، مما لم يسبق له مثل فى أى مؤتمر سابق، لأن مصر لو زاد سكانها لكانت خطرا عليهم -كما كانت كذلك فى الماضى أيام محمد على باشا مثلا-.

● والفكرة التى تسيطر على الغرب - أوروبا وأمريكا - هى أن بلاد المسلمين: باكستان وبنجلاديش وأندونيسيا، والبلاد العربية وفى مقدمتها مصر ترتفع معدلات النمو السُكّانى فيها مما يشكل خطراً على إسرائيل والغرب على المدى القريب والبعيد. هكذا يفكرون.. الكتاب منهم والسياسيون وعلماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع، ولقد بدا ذلك واضحا فى كتابات عدد منهم: مثل «كسينجر» و«بوش» وأمثالهما.

● و«**مؤتمر المرأة ببكين**»:

وهو قد عقد بُعيد مؤتمر السكان، وله نفس الأهداف، وهى فى مجملها - ومن غير خوض فى التفاصيل - تهدف إلى تدمير القيم الإسلامية وعزل الإسلام منهجا ونظاما عن

حياة الناس، وإيهام المرأة المسلمة أن الإسلام حرمها من كثير من حقوقها، وأول هذه الحقوق أن تحمل من سفاح لا نكاح وأن تجهض جنينها على إرادتها، وأن تمارس الجنس مع من تشاء من الرجال أو النساء!!!

وكل ذلك عند النظر والتدقيق تدمير للمرأة، وتدمير لكيانها الاجتماعى والنفسى، وإلحاقها بعالم الحيوان فى التعبير عن الغريزة الجنسية.

● وقد خرجت توصيات هذا المؤتمر شبيهة بتوصيات مؤتمر السكان، ولسنا بحاجة إلى الإفاضة فى تفاصيل هذه التوصيات فهى لم تخرج عن هدفين:

الأول: تدمير القيم الدينية عموما والإسلامية خصوصا.

والآخر: التباكى الخادع الكاذب على حقوق للمرأة ضيعها الإسلام.

و - الأندية المعادية للإسلام:

هذه الأندية كثيرة وخطيرة، ومقاومة آثارها من أهم معالم هذه المرحلة الثانية فى طريق العمل من أجل الإسلام، مما يؤكد طول هذه الطريق - كما قلنا آنفا -.

● ومن أشهر هذه الأندية وأكثرها انتشارا نوعان منها هما:

أندية الماسونية،

وأندية الروتارى.

وهذان النوعان من النشاط المعادى للإسلام وللأديان عموما هما من صميم عمل اليهود، والمطلوب مقاومة آثارهما فى هذه المرحلة.

ولنلق ضوءا على كل منهما:

«الماسونية» جمعية سرية أنشأها اليهود ليمارسوا من خلالها تحقيق أهدافهم المعادية للأديان جميعا.

وهذه الجمعية هى جمعية البنائين الأحرار التى وجدت منذ زمن بعيد فى مصر وفلسطين واليونان - كما يؤكد ذلك الباحثون - ويؤكد يهودية هذه الجمعية الحاخام الدكتور «إسحق وايز» فيقول: «... وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكاراً يهودية من البداية للنهاية».

• ويقول «مكاريوس شاهين عنها وعن أهدافها: «جمعية أدبية تخدم الإنسانية وتنور الأذهان وتنشر الإخاء، وتوطد الحب بين الأعضاء، وتحثهم على الخير والإحسان لإخوتهم المختارين» هكذا يقول.

وتلك أهداف الجمعية - كما يزعمون - ولكنها الأهداف المعلنة فقط، أما الأهداف الحقيقية فتتضح من القسم الذى يقسمه الماسونى، ونص هذا القسم هو: «أقسم بمهندس الكون الأعظم إننى لا أفشى أسرار الماسونية ولا علاماتها وأقوالها، ولا تعاليمها وعاداتها وأن أصونها مكتومة فى صدرى إلى الأبد».

«أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف، وألا أكتب منها شيئا ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأوصى إن حنثتُ فى قسمى أن تحرق شفتاى بحديد ملتهب وأن تقطع يداى ويحز عنقى، وتعلق جثتى فى محفل ماسونى ليراها طالب آخر ليتعظ بها، ثم تحرق جثتى ويذر رمادها فى الهواء لئلا يبقى أثر من جنايتى»[(١)].

• وقد أدرك خطر الماسونية جميع العارفين لأهدافها المعادية للأديان، فقررت كثير من الحكومات إلغاء المحافل الماسونية فيها.

وقد صدر المرسوم البابوى ذو الرقم ٨٦٤ يحذر من الاشتراك فيها وفى الهيئات السرية والهيئات المشتبه فيها.

• وأما أندية «الروتارى» فهى أنشطة علنية تؤدى مهامها أو بعض هذه المهام تحت ستار الإخاء الإنسانى.

وهى أندية منتشرة فى أغلب العواصم والمدن الكبرى، وأهدافها الظاهرية كما يقولون هى: النظر فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات والخطب، والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان المتعددة.

أما الأهداف الحقيقية فهى أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود، ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جميع المعلومات التى تساعدهم فى تحقيق أغراضهم اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية.

---

(١) محمد على الزغبى: الماسونية منشأة ملك إسرائيل.

● وقد فطن الفاتيكان إلى خطر هذه الأندية «المسماة الروتارى» فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس فى العشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٥٠م قرَّر فيه الكرادلة ما يلى:

«دفاعا عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة» بنادى الروتارى، وعدم الاشتراك فى اجتماعاتها، وأن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم ذى الرقم ٨٦٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها».

● ترى كم من الأوطان الإسلامية تنتشر فيها هذه الأندية وبخاصة أندية «الروتارى»؟ وكم عدد أعضاء هذه الأندية من الشخصيات البارزة فى السياسة والإعلام والعلم؟

وكم عدد الحكومات التى تعرف أهداف هذه الأندية، ثم تسكت عليها وتسمح لها بالنشاط؟

وكم عدد الحكومات التى تعرف أن هذه الأندية يهودية لحما ودما وعصبا، وشكلا وموضوعا؟

وهل هناك شك فى معاداة اليهود للأديان عموما، وللإسلام على وجه الخصوص؟

وهل أدرك من ينضمون إلى هذه الأندية هذا الخطر؟ وهل تبين للأعضاء فى هذه الأندية كيف أسهمت هذه الأندية فى إقامة دولة لإسرائيل بالتآمر حينا، وبالضغط الاقتصادى حينا على بعض الحكومات، وبالسلاح بعد ذلك؟

أليست مقاومة هذه الأندية ومقاومة تحقيق أهدافها الخبيثة من صميم مرحلة مقاومة الغزو الفكرى والثقافى والسياسى؟

ز - مؤسسات التنصير:

وهى مؤسسات تعنى بإدخال الناس فى النصرانية، تهتم بإدخال المسلمين فى النصرانية بوجه خاص.

وهذه المؤسسات لها أشكال عديدة، فقد تكون مدرسة أو معهداً للفن أو الموسيقى أو ملجأ، أو داراً لرعاية الأيتام والعجائز، أو مستشفى، أو كنيسة.

وربما أخذت شكل نادٍ رياضى أو أدبى أو اجتماعى - كما شاهدت ذلك بنفسى فى

بعض دول إفريقية من أقصى شرقها إلى أقصى غربها[1].

- وهدف هذه المؤسسات المعلن الظاهر للعيان هو إنقاذ الناس من الوثنية إلى المسيحية، أما هدفها الحقيقى - الذى لمست آثاره بنفسى فى كثير من بلدان إفريقية - فهو نقل المسلمين والمسلمات من الإسلام إلى المسيحية، مع حماية هؤلاء المتنصرين حماية كاملة أمنيًا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا بتعليمهم فى مدارس هذه المؤسسات وإرسال بعضهم إلى بعض دول أوروبا وأمريكا ليحصلوا منها على أعلى المؤهلات الدراسية، وعندما يعودون إلى بلادهم تنتظرهم أرفع المناصب السياسية، التى قد تتوج برئاسة الدولة. ولفرنسا فى هذا المجال نصيب ضخم ورصيد هائل!!!

- وهذه المؤسسات وسيلة فاعلة فى تحقيق الهدف وهو حرب الإسلام والمسلمين بالقضاء على الدين نفسه، لا على مجرد الثقافة أو اللغة والقيم الخلقية.

- ولهذه المؤسسات التنصيرية المحمية بغطاء قوى من الدول الكبرى فى أوروبا وأمريكا، لها فى كل حين مع سلطات الأمن قصة وحديث تبدأ بالقبض على المشتبه فيهم لممارسة هذه الأعمال غير المشروعة، ويبدأ التحقيق، ثم يتوقف بعد حين خشية أن تدان هذه المؤسسات، فتغضب الحكومات التى ترعاها، وهى حكومات تمنح القروض، وتيسر الخبراء، وليس من اللائق عند كثير من الحكومات الدخول فى هذا الحرج.

- يحدث هذا كله ثم يزعم كثير من مفكرى الغرب أن الإسلام قد انتشر فى الناس بالسيف، وأن الناس قد أكرهوا على الدخول فيه!!!

- إن الإكراه الحقيقى هو ما شاهدته فى إفريقية وما شاهده غيرى فى كثير من بلدان آسيا، ولكن التهمة فى الإكراه توجه إلى الإسلام والمسلمين!!

إن قوله الله تعالى: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** (٢٥٦) ﴾ [البقرة:٢٥٦] أبلغ ردّ على هؤلاء المفترين.

---

(١) كان ذلك فى جولة قمت بها فى صيف عام ١٩٨٢ مبتعثا من دار الإفتاء والبحوث العلمية بالمملكة العربية السعودية.

ح – العملاء ورجال المخابرات :

هذه الدول الغازية لبلدان العالم الإسلامى غزوا فكريا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا، تستعين على تحقيق أهدافها فى الغالب بطائفة من العملاء بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التى تلجأ إليها غير العملاء.

● وهؤلاء العملاء فى الغالب يكونون من أهل البلاد، ولكنهم يُنتقون بعناية فائقة وبدقة شديدة، فليس كل راغب فى المال أو فى الجاه والسلطان يقبل أن يكون عميلا لفكر أو ثقافة أو سياسة تستهدف بلده، وإنما الذين يقبلون ذلك قلة : لذلك كان التدقيق فى اختيارهم وتوظيفهم.

– وأبرز صفات هؤلاء العملاء أن يكونوا من أهل الولاء لتلك البلاد الغازية، كأن يكونوا تعلموا أو عاشوا فى تلك البلاد، أو تزوجوا منها، أولهم فيها مصالح من أى نوع من المصالح.

– ومن صفات هؤلاء العملاء أن يكون ولاؤهم لبلادهم ضعيفا لأى سبب من الأسباب التى تضعف ولاء المواطن لوطنه وهى أسباب كثيرة فى البلاد النامية عموما.

– ومن صفاتهم الأساسية ألا يكونوا متدينين أو متمسكين بدينهم حريصين على القيم والأخلاق الإسلامية، فضلا عن أن يكونوا شديدى الحرص على التمسك بدينهم.

● فإذا اختيروا على هذه الأسس وأمثالها، وظفوا فى مواقع ذات أهمية وتأثير، وللعدو يد طولى مع كثير من المسئولين فى حكومات العالم الثالث، ومع غير المسئولين من أصحاب الحظوة عند المسئولين، بحيث يجدون منهم المساعدة فى تقليد هؤلاء العملاء وظائف ذات أهمية، وغالبا ما لايعرف المسئولون أن هؤلاء عملاء.

وعندئذ ييسر هؤلاء العملاء – بحكم مواقعهم فى العمل – الوسائل التى تحقق هذه الأهداف التى يسعى إليها الغزو الفكرى والثقافى والسياسى.

● وفى بعض الأحيان يكشف أمر هؤلاء العملاء، ويلقى بعضهم بعض الجزاء على الرغم من حماية الأعداء لهم.

● وأما رجال المخابرات، فقد أصبحوا من لوازم هذا الغزو ومن أهم أدواته ووسائله.

– وهؤلاء يُعَدُّون إعداداً خاصا علميا وفنيا واجتماعيا، ويدربون على الأعمال التى سيقومون بها تدريبا جيدا.

– وهؤلاء أصبحوا من الكثرة بحيث تسهم كثرتهم فى تعمية أمرهم، وما من دولة صديقة أو غير صديقة إلا ولها رجال مخابرات فى كل بلد ترغب فى القيام فيه بعمل يحقق لها بعض مصالحها، وللولايات المتحدة الأمريكية اليد الطولى فى هذا المجال، وكذلك الشأن فى إسرائيل، وعلى الرغم من وثاقة الصلة بين أمريكا وإسرائيل فإن رجال المخابرات من كل بلد منها يزرعون فى البلد الآخر، وما بين حين وآخر يكشف أمر بعضهم وربما قدموا للمحاكمة!!!

– وقمة نجاح رجل المخابرات فى موقع مًّا أن يحسن التخفى ويحسن تحقيق الأهداف بشكل غير مباشر، كأن يندفع واحد من حَسَنى النية ليحقق له أهدافه فى عمل ما، ويظل هو مختبئا وراء ستار.

– وأنجح ما يكون رجل المخابرات إذا استطاع أن يموه ويضلل ويتولى هو بنفسه عملا على جانب من الأهمية دون أن يدرى به أحد[1]، عندئذ يؤدى وظيفته على أكمل وجه وأبعده عن الشبهة.

ط – حصار بل ضرب الحكومات التى تعلن توجهها الإسلامى.

وتلك خطة يتحالف من أجلها الغرب كله أوروبا وأمريكا، مع إسرائيل، ويؤيدهم الاتحاد الروسى.

وأوضح مثال على ذلك حكومتان:

الحكومة الإسلامية فى إيران،

والحكومة الإسلامية فى السودان.

● ومن قبل كانت حكومة باكستان، ومن قبل ذلك كانت دولة الخلافة فى تركيا، وسريعا ما أسقطت دولة الخلافة ليحل محلها نظام علمانى لادينى، وكذلك عانت باكستان ومزقت

---

(١) حدث ذلك فى بعض الدول النامية أكثر من مرة، حيث كان بعض رجال المخابرات يتولون مناصب هامة ذات حساسية خاصة، حيث يتولى يهودى يحمل الجنسية الأمريكية عملا خطيرا فى إحدى البلاد العربية.

إلى باكستان وبنجلاديش، وأصبحت بعيدة عن وصفها بأنها حكومة إسلامية.

● أما إيران، فإن حكومة الجمهورية الإسلامية فيها، عانت من الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الغرب الصليبى ومن إسرائيل، ما عانت، مما عوّق إلى حد كبير مسيرتها نحو أهدافها الكبرى، حيث حوصرت إيران سياسيا واقتصاديا وإعلاميا، وكان من مراحل التضييق عليها وتعطيل مسيرتها أن أغروا بها مشئوم العراق صدام حسين، فشن عليها حربا استمرت ثمانى سنوات أو تزيد وقضت على كثير من ثروتها الاقتصادية وطاقاتها البشرية، كما كانت هذه الحرب استنزافا لطاقات العراق المادية والبشرية وكل ذلك لصالح إسرائيل.

وحاصرتها بعض دول الغرب وبخاصة بريطانيا، ولا يزال يحاصرها النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

● وفى هذا الحصار وذلك التضييق رسالة توجه إلى كل بلد مسلم يعلن توجهه الإسلامى فى نظام الحكم.

● وكذلك كان شأن حكومة السودان، ما إن أعلنت توجهها الإسلامى حتى شنت عليها حملات التشويه والتضليل ثم حوصرت اقتصاديا وسياسيا، وحظر الطيران منها بشكل محدود، وسلط عليها الجنوب المتمرد، وهيىء للجنوب المال والسلاح والمدربون والمخططون.

وسلطت على السودان أثيوبيا من الشرق ويوغنده من الجنوب وأريتريا المسلمة والتى يرأسها صليبى حتى النخاع!!!

● حتى الأحزاب السياسية التى تعلن عن توجهها الإسلامى تضرب ويحال بينها وبين الوصول إلى الحكم، حتى لو كان ذلك عن طريق صناديق الانتخاب، ويقف الجيش فى كل بلد يصل أحد أحزابها الإسلامية إلى الحكم ليهدم العملية الانتخابية من أساسها ويولى هو من أراد بغض النظر عن أصول اللعبة والديموقراطية»؛ كما حدث فى الجزائر وكما يحدث الآن فى تركيا بعد وصول حزب الرفاه إلى المشاركة فى الحكم لا الاستقلال به!!!

● وكذلك كان الشأن فى أفغانستان والبوسنة والهرسك والشيشان، وكذلك سوف يكون الأمر فى كل بلد يعلن عن توجهه الإسلامى!!!

ى – ضرب الحركات الإسلامية:

وذلك تبعا لنظام ضرب الحكومات التى تعلن عن توجهها الإسلامى،

١ – وأوضح مثالا لذلك: حركة الإخوان المسلمين بمصر:

– فقد ضربت سنة ١٩٤٨ بتدبير الإنجليز واليهود والملك السابق.

– وضربت فى عام ١٩٥٤م على يد عبد الناصر، وتابع ذلك ضربها فى عديد من أقطار العالم العربى باستثناء الأردن لحسابات يعرفها الأردن تمام المعرفة.

– وضربت فى مصر عام ١٩٦٥م، وبمعظم بلدان العالم العربى والعالم الإسلامى.

ولقد أثار ضربها فى مصر فى عامى ١٩٥٤م و ١٩٦٥م تساؤلات حول ما إذا كان هناك ارتباط بين هاتين الضربتين وبين عدوان إسرائيل على مصر فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧؟.

وهل لإسرائيل علاقة بالتخطيط لهاتين الضربتين؟

● وحركة الإخوان المسلمين حركة إصلاحية إسلامية مجدِّدة كما ينص على ذلك قانونها الأساسى.

● وقصتها مع حكام مصر بعد نظام الملك السابق معروفة ابتداء من عبد الناصر ثم السادات ثم الرئيس محمد حسنى مبارك، بمعنى أنها تبدأ معقولة ثم تدخل فى عالم اللامعقول.

– ففى عهد عبد الناصر، كانت تسانده فى قيام الثورة مساندة إيجابية فاعلة، ثم ساءت العلاقة وحدثت محنة ١٩٥٤م ثم محنة ١٩٦٥م، وكانت كل واحدة منها أقسى من أختها.

– وفى عهد السادات كانت العلاقة فى البداية حسنة، ثم ساءت بعدما غير السادات من سياسته فى تقبل الرأى الآخر الذى كان قد بدأ به رئاسته، حتى إنه أفرج عن المسجونين السياسيين.

– وفى عهد الرئيس مبارك كانت العلاقة متمثلة فى عدد يقرب من أربعين نائبا فى مجلس الشعب، وفى مئات فى المجالس المحلية، وفى عدد كبير من ممثلى النقابات المهنية، ثم ساءت واعتُبرتْ الجماعة إرهابية محرضة على العنف، وقبض على عدد من أعضائها

وحوكُموا محاكمات عسكرية، ولم يثبت لدى المحكمة أنهم إرهابيون أو تعاملوا بالعنف أو كانت لهم صلة بأى جماعة متطرفة، فحكم عليهم بالسجن ثلاثة أعوام أو عامين، وبرئ عدد منهم، واعتبرت الجماعة محظورة بعد أن كانت فى مجلس الشعب.

٢ – وضربت جبهة الإنقاذ الإسلامى بالجزائر بعد أن نجحت فى انتخابات نزيهة، وتدخل الجيش وكانت أسوأ نتائج للجزائر كلها، حيث برز المتطرفون الذين يستحلون قتل الناس فى الشوارع والمقاهى، دون مراعاة لما أحلَّ الله وما حرّم، ودون شرعية!!!

٣ – وضربت الجبهة الإسلامية فى السودان – على الرغم من أنها تتولى مسئولية الحكم – ضربات موجعة بالفتنة الداخلية والطائفية، ثم بتحريش جيرانها وتشجيعهم على العدوان على السودان، فى قصة معروفة الأهداف.

٤ – ولم يسلم حزب الرفاه الذى يشارك فى حكومة تركيا حزب الطريق القويم، لم يسلم من التحدى والضغوط وتدخل الجيش التركى ليعيد لتركيا وجهها القبيح العلمانى اللادينى كما صرح بذلك أكثر من مرة عددٌ من قادة الجيش الذين تقاربوا مع إسرائيل وتعاهدوا وتشاركوا فى مناورات حربية!!!

٥ – والجماعة الإسلامية فى باكستان حوربت وضربت أكثر من مرة، وحيل بينها وبين برامجها الإسلامية، ولاتزال تعانى ما تعانى.

٦ – وحركة حماس فى فلسطين، تُحارب بضراوة من اليهود ومن السلطة الفلسطينية، ومن كل دول الغرب ومن الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص!!!

٧ – وحزب الإصلاح الإسلامى فى اليمن وقد شارك فى الحكم وفى المجلس النيابى بما يقرب من نصف عدد أعضاء المجلس، وجهت إليه ضربة فى انتخابات عام ١٩٩٧م ولم ينل من المقاعد إلا النزر اليسير ولم يشارك فى الوزارة كما كان من قبل.

● أما حرب المسلمين عموما فى شكل حركة إصلاحية أو حزب سياسى، أو دولة تعلن عن توجهها الإسلامى، أو أمة تدان لأنها من المسلمين كالشيشان والبوسنة والهرسك، فذلك كله ليس محل خلاف بين المراقبين للأحداث من المسلمين ومن غير المسلمين.

ك – النظام العالمى الجديد :

وهو نظام ابتكرته الولايات المتحدة الأمريكية عقب حرب عاصفة الصحراء لتسيطر به على العالم كله، ولتمكن به لإسرائيل فى العالم العربى بحيث تفرض على العرب والمسلمين تطبيع العلاقات مع إسرائيل العدو الألد الذى احتل أرض العرب وأقام عليها دولة ويراد من العرب أن يتعايشوا مع عدو يحتل أرضهم ويشردهم، ويحتل فى كل يوم أرضا جديدة!!!

● إن أمريكا بالنظام العالمى الجديد هى القوة الوحيدة المسيطرة عسكريا واقتصاديا وسياسيا وفكريا، «وها هى اليوم تبتلع الوطن العربى، بل والشرق الأوسط كله سياسيا واقتصاديا وإعلاميا وتحتله عسكريا.. وها هى تقضى بكل السبل على أى محاولة عربية لإعادة جمع الشتات ولم البقايا المبعثرة، لأن مثل تلك الخطوة مضادة بالضرورة لأهدافها مهددة لمصالحها، وها هى تستخدم كل الوسائل للتطويع والتركيع، وللاحتواء والاحتلال؛ من ضرب العراق عسكريا وتفتيته سياسيا وبشريا، إلى استنزاف ثروة النفط وأمواله، وصولا للضغط المستمر والتحجيم المتوالى لمصر، قاعدة أى عمل عربى»[1].

● إن هذا النظام العالمى الجديد جعل من أولوياته ضرب الإسلام والمسلمين باتخاذهم عددا بديلا عن عدوه القديم «الاتحاد السوفيتى» وفى كل يوم يقدم النظام العالمى الجديد دليلا على عداوته للإسلام والمسلمين فى كل مكان.

وأوضح مثال على ذلك تصدى الولايات المتحدة الأمريكية لحل مشكلة مسلمى البوسنة والهرسك بعد أن سكت العالم كله عن المذابح الجماعية للمسلمين على أيدى الصرب والكروات وحرموا المسلمين من السلاح وأعطوه للصرب والكروات!!!

كيف حلت أمريكا مشكلة مسلمى البوسنة والهرسك؟

عقدت فى «دايتون» اجتماعا لحل المشكلة فكان الحل هو :

تقسيم البوسنة أو تفتيتها إلى ثلاثة «كانتونات» متقاتلة هى : كروات البوسنة، وصرب البوسنة، ومسلمو البوسنة، وهذا هو الحل الأمثل للصرب المعتدين مجرمى الحرب، وللكروات أيضا!!!

● إن العالم الإسلامى اليوم يزيد كثيرا على ألف مليون إنسان ويملك من المواد الأولية والمقدرات الاقتصادية ما يمكنه من العيش فى أمن وسلام، ولكنه فى الواقع عالم واقع فى

---

(١) صلاح حافظ : الأهرام . مقال : العرب فى مفترق الطرق . ١٧/٩/١٩٩٦م .

براثن أعدائه سياسيا واقتصاديا وفكريا واجتماعيا!!.

- إن النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا هو الوريث الفعلى للقوى الأجنبية التى احتلت العالم الإسلامى وأنزلت به من المحن والبلايا ما لايزال يعانى من آثاره حتى اليوم، وريث لبريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وكل بلد من تلك البلدان التى تقاسمت دول العالم الإسلامى تنهب ثرواتها وتستولى على أفكار أبنائها وتحول ولاءهم إليها، وتمزق صفهم وتفتت وحدتهم، وتفرض عليهم ضعفا واستخذاء وتبعية بل واستسلاما.

النظام العالمى الجديد ورث كل هذا، وزاد عليه ضراوة بما يملك من آلة عسكرية رهيبة وإمكانات اقتصادية ضخمة وما يترتب على ذلك من نفوذ وسلطان.

وهذا النظام العالمى الجديد قد تمكن من العالم العربى بعد حرب الخليج -- حرب العراق لإيران وحرب العراق للكويت – وهى حرب مصطنعة كان العراق فيها هو المعتدى!!

- هذا النظام العالمى الجديد يحتاج إلى مقاومة، وتلك المقاومة تحتاج إلى زمن، وهذه المرحلة الثانية من مراحل العمل من أجل الإسلام مشغولة بمقاومة هذا الغزو، وهذا يتطلب جهدا كبيرا وعملا متواصلا، والله تعالى قادر على أن ينصر الضعيف على القوى إذا كان الضعيف مؤمنا بالله مستعينا به آخذا بالأسباب مع توكله على الله فى كل شىء.

- إن النظام العالمى الجديد يحاصر العالم الإسلامى اليوم بسلاحين أضفى عليهما بريقا إعلاميا خادعا هما:

– «الليبرالية»،

– و«العلمانية».

- و«الليبرالية» تعنى الحرية بمعنى أن يفعل الإنسان ما يشاء دون خوف من عقاب ودون اعتبار لحرام أو حلال، أى أن يعزل التشريع المشتمل على الحلال والحرام عن حياة الناس وأن يبقى الدين ومنهجه طقسا يمارس فى المسجد ولا يملك أن يخرج منه إلى شُعَب الحياة، وأدواتهم فى ذلك كثيرة من السينما إلى المسرح إلى الملهى إلى صالة القمار إلى المرقص إلى مواخير الخمر والزنا إلى المخدرات، كل ذلك هو الحرية أو «الليبرالية»!!!

- والعلمانية فى حقيقتها هى الغطاء الفلسفى لنفى الدين وإبعاده عن الحياة، وشعارها: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أى نعم للعقيدة ولا للشريعة.

فكيف تغفل هذه المرحلة الثانية من مراحل العمل من أجل الإسلام عن مقاومة هذا الداء الوبيل؟

وبعد:

فتلك معالم المرحلة الثانية من مراحل العمل من أجل الإسلام وهي أطول المراحل وأكثرها تعبا ومشقة، لكن بغير هذه المقاومة لهذا الغزو فلن تقوم للمسلمين قائمة.

وإلى الحديث عن المرحلة الثالثة، والله الموفق المعين.

ثالثًا:

مرحلة الدعوة إلى الحق وإلى طاعة الله

تلك هى المرحلة الثالثة من مراحل الطريق الطويلة فى العمل من أجل الإسلام، الطريق التى وصفها الإمام البنا بأنها: «متعددة المراحل».

ومعنى تعدد مراحل الطريق أنها طريق تحتاج إلى الثبات.

● وهذه المرحلة طويلة المدى فى حد ذاتها ومتعددة الخطوات، وبحاجة إلى مزيد من الجهد وجميل من الصبر، وعدد كبير من الدعاة إلى الله على بصيرة، وإلى قادة ينظمون العمل فيها، ويضبطون إيقاعه، إنها مرحلة الدعوة إلى الحق؛ إلى الله تعالى، وإلى طاعته والالتزام بمنهجه[(١)].

● ونكتفى هنا بضرب الأمثلة على الخطوات فى العمل فى تلك المرحلة، وعلى سبيل المثال:

–خطوات الدعوة إلى الله، وهى فى ذاتها مراحل –كما أوضحنا ذلك فى كتابنا الموسع «فقه الدعوة إلى الله»– هى:

● مرحلة التمهيدوالتعريف،

● ومرحلة التكوين أو البناء للشخصية المسلمة،

● ومرحلة التنفيذ أو التطبيق العملى لمنهج الإسلام فى الحياة،

● ومرحلة التمكين لدين الله فى الأرض بالمنهج وبالرجال الصالحين،

● ومرحلة المحافظة على التمكين خشية الانتكاس.

فتلك خمس مراحل لكل منها أهداف وسياسات ووسائل تساعد على تحقيق تلك الأهداف وخطة عمل متكاملة، وقيادة رجال عاملين، ومدى زمنى ينضج فيه العمل.

– وخطوات الحركة بالإسلام فى الناس، وهى فى ذاتها مراحل أيضًا، وهى:

---

(١) هذه المرحلة أوسعناها بحثًا ودراسة وتأصيلا فى أكثر من كتاب لنا فى فقه الدعوة مثل: فقه الدعوة إلى الله، وفقه الدعوة الفردية، والمرأة المسلمة، وفقه المسئولية، وفقه الأخوة فى الإسلام، وغيرها. مراجع سابقه.

- الاختلاط بالناس وتحبيبهم فى الخير لأنفسهم ولغيرهم،
- وجمع الناس على الحق وتشجيعهم على الالتزام به، وحثهم على التواصى به والصبر عليه.
- وتصنيف الناس كل بحسب قدراته وما يجب أن يمارس من عمل، ومن فضل الله أن العمل متنوع فى هذه المرحلة.
- وإغراء الناس بالالتزام بمنهج الإسلام فى الحياة والاعتزاز بالانتماء إليه.
- وتحويل الناس إلى دعاة إلى الله وحركيين بالإسلام فى الناس بتوريثهم هذه الصفات التى تجعلهم قادرين على ذلك.

– وخطوات التربية الإسلامية،وهى أوسع ما تكون مراحل وتفريعات، فهى مرحلة البناء الصحيح السليم للشخصية المسلمة من جميع جوانبها، ونشيرمنها إلى ما يلى:

- تربية الصغار والكبار على منهج الله ونظامه، كتابه وسنة رسوله ﷺ.
- والاهتمام بجميع جوانب شخصية المسلم علمًا وعملاً وسلوكًا وخلقًا وفكرًا وثقافة وأخوة فى الدين وتضحية من أجله، وتحمسًا وغيرة على الحق.
- وإنشاء البيت المسلم بحسن اختيار الزوجة وحسن تربية الأولاد، وشيوع الروح الإسلامية فى كل تصرف فى أجواء البيت وأركانه وأثاثه وما فيه ومن فيه.
- والإسهام فى بناء المجتمع المسلم المكون من الأسر المسلمة على اعتبار أن الأسرة هى نواة المجتمع.
- وإعمار المساجد وارتياد النوادى ومحاولة صبغها بالصبغة الإسلامية، دون احتكاك فضلا عن صدام.
- وإعداد العلماء المتخصصين فى شتى فروع المعرفة، ليكون منهم الدعائم القوية الصحيحة التى تساند بناء المجتمع المسلم فى كل احتياجاته العلمية والفنية والعملية.
- والاهتمام المستمر الذى لا يتوقف أبداً بمفردات التربية الإسلامية: الروح والخلق والعقل والبدن والدين، والاجتماع والسياسة والاقتصاد،والجهاد فى سبيل الله، والإحساس بالجمال فى مخلوقات الله تعالى.

● وللتربية الإسلامية ميادينها العديدة: البيت والمسجد والمدرسة والنادى، وكل تجمع إنسانى، والمجتمع نفسه والعالم العربى، والعالم الإسلامى،والعالم كله، لأن المسلم شخصية عالمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى(١). والأمة الإسلامية أمة عالمية ومنهج الإسلام عالمى.

– وخطوات التنظيم، وهى كثيرة، تحتاج إلى جهد كبير وعمل متواصل، ونشير من هذه الخطوات ما يلى:

● خطوة وضع خطة للعمل ذات أهداف وسياسات ووسائل،

● وتحديد أنواع العمل المطلوب فى كل مرحلة من مراحل العمل من أجل الإسلام،

● وتوظيف الطاقات البشرية فيما يلائمها من أعمال،

● وخطوة إعداد القادة والمسئولين عن العمل،

● وإعداد القادرين على التمكين لدين الله فى الأرض،

● وإعداد الأفكار والرجال القادرين على المحافظة على هذا التمكين بعد الوصول إليه،

● واستشراف مستقبل العمل الإسلامى فى هذا العصر بالأخذ بوسائل العلم والتقنية بحيث يصبح المسلمون أكثر نفوذاً فى هذا المجال، لتعتدل الموازين ويسود شرع الله عباد الله.

● وكل خطوة من هذه الخطوات العديدة فى تلك المرحلة تحتاج إلى جهد وجهاد وكتب ودراسات ونصح وإرشاد وعمل متواصل، وعناء وتواصٍ بالحق وتواص بالصبر، وكل ذلك من لوازم هذه المرحلة، المتعددة المراحل والخطوات، والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم، ويعز دينه بمن يشاء من عباده، والأرض أرضه يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

---

(١) انظر لنا فى تلك العالمية كتابنا: عالمية الدعوة الإسلامية. ط الرابعة: دار الوفاء للطباعة والنشر بمصر.

رابعًا :

مرحلة التقريب بين وجهات النظر لدى الفرق الإسلامية

وهى مرحلة ضرورية من مراحل طريق العمل من أجل الإسلام، ووجهات النظر بين المسلمين عندما تختلف حول قضية من القضايا فليس فى ذلك ما يعيب المختلفين، وإنما فيه ما يدل على أنهم يفكرون ويهتمون بقضايا الإسلام والمسلمين، وهى ظاهرة صحة لا دليل مرض.

- غير أن العيب – كل العيب – فى اختلاف وجهات النظر هو أن يؤدى ذلك إلى الفرقة وتمزيق الصف، أو التخاصم فضلا عن التعادى.
- والتقريب بين وجهات النظر المختلفة هو من عمل العلماء وأهل الذكر فى كل موضوع حدث حوله اختلاف، وربما توهم بعض الناس أن عموم المسلمين لا علاقة لهم بهذا الاختلاف، ولكن الحقيقة أن عموم المسلمين قد ينحازون إلى فرقة من الفرق فيزيدون الاختلاف اتساعا، وهذا خطأ فادح ومدعاة للفتنة وذهاب الكلمة، إذ الأصل أن يكون عموم المسلمين بمعزل عن هذه الاختلافات، فى الوقت الذى يبذل فيه العلماء جهودهم للتقريب بين وجهات النظر.
- وقد حدث هذا الاختلاف فى تاريخ المسلمين كثيرًا، ولكنه قليلاً ما أدَّى إلى خلاف وصراع، وعندما أدّى فى تلك الأحيان القليلة إلى خلاف وصراع، تداعى أهل الحكمة وبعد النظر وأهل العلم والصلاح والتقوى فذكروا الناس بأدب الاختلاف فى الإسلام، وحذروا من الفتنة وآثارها، فالتأم الصف وزال الخلاف وتقاربت وجهات النظر!!
- وهذه المرحلة من مراحل العمل تحتاج إلى مزيد من الاهتمام بالقضايا محل الخلاف، ودراستها بعمق وروية، وحياد وموضوعية،ولابد أن يتوفر فيها وفيمن يتصدى لها من العلماء وأهل الذكر شروط، نشير إلى بعضها فيما يلى :

– المعرفة الدقيقة لأبعاء القضية موضوع الخلاف،

– والمعرفة الدقيقة لوجهات النظر المختلفة حول هذه القضية،

– والمعرفة الدقيقة لأشخاص من يختلفون حول هذه القضية وتوجهاتهم، والمؤثرات التى أثرت فيهم،

– والمزيدمن الصبر والتأنى فى درس هذه القضية،

– وحسن التأنى لعرض ما يقرب بين وجهات النظر، أى القول الليّن وعدم المجابهة والمواجهة لمن كان على خطأ فى وجهة نظره، حتى يتبين له الحق.

– والتذكير بأدب الإسلام فى الرجوع إلى الحق عندما يتبين لأى فريق.

– والتذكير بواقع المسلمين المعاصر الذى يتكالب عليهم فيه الأعداء والذى لا يتحمل خلافا وصراعًا، يُعَدّ فى صالح الأعداء المتربصين، والعدو لا يعنيه شئ مثل ما يعنيه أن يختلف المسلمون ويتصارعوا، ليقين العدو بأن وحدة المسلمين تفسد خططه وتصيبه بالعجز والفشل.

– والتذكير بأن العالم اليوم يعيش عصر التكتلات، وأن الأمة الإسلامية لو نبذت الخلاف لكانت قوة فى هذا العالم يقام لها أكبر وزن، ولما طمع فيها الأعداء وضربوها فى وحدتها وتماسكها.

● وفى تكتل الاتحاد الأوربى،وفى النظام العالمى الجديد، ما يقنع المسلمين بوجوب الاتحاد ونبذ أسباب الفرقة، وحسبهم أن الله تعالى جعلهم أمة واحدة، بل جعلهم خير أمة أخرجت للناس، وجعلهم الأمة الوسط.

– وما هذه الأوصاف القرآنية للمسلمين بالوحدة فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢] أى فملة الإسلام ملتكم الصحيحة الواحدة المتجانسة فى أحكامها ونظامها، فما ينبغى أن تتفرقوا فيها شيعا وأحزابا، وتلك دعوة إلى الوحدة لأنها الأصل.

– ووصفهم بأنهم أمة وسطا فى قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]. أى جعلناكم عدولا خيارا بما وفقكم إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكونوا مقرى الحق بين الناس،وليكون الرسول الخاتم ﷺ بما أوحى إليه ربه مهيمنا عليكم.

– ووصف الأمة الإسلامية بأنها خير أمة، فى قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . أى أنتم خير أمة مادمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر مؤمنين بالله إيمانا صحيحا .

● ومع كل هذه الصفات كيف تتخاصمون وتتعادون؟

خامساً:

مرحلة إخراج المسلمين من حيز النظرية إلى مجال التطبيق

وتلك المرحلة من مراحل العمل من أجل الإسلام تحتاج إلى تضافر جهود العلماء العاملين فى كل مجال من مجالات المعرفة ليكون الإسلام بجهودهم هذه عملا لا قولا، وعلماء لا أدعياء، وتقنية وتقدما حقيقيا فى كل مجال من مجالات الحياة.

● والحقيقة التى يجب أن نعترف بها أن كثيرا من المسلمين يعيشون الإسلام شكلا لا موضوعا، وعرضاً لا جوهراً، وذلك أبعد ما يكون عن الإسلام، وأقرب ما يكون إلى الرياء والنفاق، إذ الأصل أن الإسلام خلق وسلوك وعمل يطبقه المسلم على نفسه وبيته ومن يعول.

● وما لم يخرج الإسلام إلى مجال التطبيق ضاع المسلمون ووهنت قواهم ولم يحصلوا من الإسلام شيئاً.

● والإسلام له منظومة عملية تقوم على النظرية الصحيحة وتلك المنظومة هى:

– الإيمان بأركانه الستة نظريا وعمليا، ولا يعبر عن ذلك مثل العمل الصالح فى التعامل مع هذه الأركان.

–والإسلام بأركانه الخمسة، ويترجمها العمل الصالح أيضاً،

– والإحسان بكل معنى من معانيه؛ الإتقان والبر ومراقبة الله تعالى،

– والأمر بكل معروف كلٌّ أحد مع البدء بالنفس،

–والنهى عن كل منكر كلٌّ أحد مع البدء بالنفس،

– والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن،

– والجهاد فى سبيل الله بالكلمة والمال والجهد والوقت والنفس لتكون كلمة الله هى العليا،

– والعمل الدائب المستمر على التمكين لدين الله فى الأرض.

● هذا هو الإسلام العملى فى منظومته الأساسية، وعلى المسلمين أن يأخذوا بكل الأسباب

التى تمكنهم من العلم والتقنية فى كل مجال من مجالات الحياة، وإلا عاشوا كما يعيشون اليوم عالة على أعدائهم فى كل شىء من القمح إلى السلاح، مع أنهم يملكون كل أسباب التقدم وكل المواد المادية والمعنوية التى تؤهلهم لهذا التقدم!!!

● ولو خرج المسلمون بالإسلام من النظرية إلى التطبيق فملكوا زمام العلم والتقنية لحلت كل المشكلات التى يعانون منها مثل:

– مشكلة القمح الذى لا يزرع بالقدر الكافى فى بلاد الأنهار العذبة، لتسوق أمريكا قمحها فى العالم الإسلامى!!!

– ومشكلة النفط الذى لا يأخذ المسلمون منه سوى القليل التافه أما الكثير النافع فإلى الغرب وإسرائيل!!!

– ومشكلة السلاح الذى يستورده المسلمون من عدوهم!!!

– ومشكلة كثيرمن المواد المعيشية الأخرى!!!

– ومشكلة السيطرة الاقتصادية والسياسية والفكرية والثقافية،

– ومشكلة فلسطين بكل أبعادها،

– ومشكلة أفغانستان،

– ومشكلة الشيشان،

– ومشكلة البوسنة والهرسك،

– ومشكلة الأكراد،

– ومشكلة إسرائيل،

– ومشكلة الأقليات الإسلامية المطحونة هنا وهناك.

● إن كل تلك المشكلات تحل لو أن المسلمين خرجوا من حيز النظرية إلى مجال التطبيق، وذلك بدوره يحتاج إلى مزيد من الجهد والوقت والمال والتضحية والثبات والاستمرار والصبر الجميل.

● أفليست هذه مرحلة صعبة من مراحل الطريق؟

● ألا تضيف هذه المرحلة جهدا وعناء إلى ما فى الطريق من جهد وعناء؟

سادسًا:

مرحلة الإعداد والاستعداد للتمكين لدين الله فى الأرض

وهى من أهم المراحل؛ إذ هى نتيجة للمراحل السابقة لها ومن أجل تلك الأهمية كانت هذه المرحلة فى حاجة إلى جهد كبير وعمل ضخم متواصل، وزمن طويل، ورجال لهم من القدرات ما يميزهم على غيرهم، ولهم من الصبر ما يمكنهم من تحقيق أهدافهم.

● ولنضرب بعض الأمثلة للجهود التى يحتاج إليها هذا الإعداد والاستعداد ليتبين من خلالها حجم الجهد المطلوب.

– إعداد النفس بتهيئتها علميا وعمليا، ماديا ومعنويا، فرديا واجتماعيا وسياسيا، تهيئتها لحمل أعباء التمكين لدين الله فى الأرض، إذ كل مسلم أو مسلمة لبنة فى هذا البناء، لبنة يجب أن تكون سليمة صحيحة لا يؤتى البناء من قبل خلل أو ضعف فيها.

– وإعداد الأهل والأولاد والبيت، وكل من يعيش فى هذا البيت، ليسهم بكل ما يستطيع فى التمكين لدين الله فى الأرض، يسهم بخلقه وسلوكه وعمله وإعداد نفسه وأهل بيته وولده للإسهام فى التمكين لدين الله فى الأرض.

– والإعداد والاستعداد الذى يجب أن تقوم به المؤسسات التعليمية مدارس ومعاهد وجامعات من تقدم حقيقى فى مجال العلم والمعرفة على أعلى مستوى من العلم والتقنية، بحيث تحقق الاكتفاء الذاتى فى العلماء عمومًا وفى العلماء المتخصصين على وجه الخصوص، لأنه لن يُمكَّن لدين الله فى الأرض إلا بهذه الجهود العلمية والعملية والتقنية.

– وإعداد المجتمع كله بغرس قيم الإسلام فيه، ومقاومة كل عادة لا يقرها الإسلام لمخالفتها لأى شئ من أحكامه أو أخلاقه أو آدابه؛ لأن التمكين لدين الله لا يكون إلا إذا استقرت فى المجتمع قيم الإسلام وآدابه ومفاهيمه.

● وهذه المرحلة «مرحلة التمكين لدين الله» هى هدف سائر المراحل، وهى النتيجة المرتجاة من العمل فى كل المراحل السابقة، بل هى المرحلة التى وعد الله تبارك وتعالى بها عباده

الصالحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الأمة الإسلامية فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ [النور: ٥٥]. فقد وعد الله تعالى المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض وبتمكين دين الإسلام الذى ارتضاه لهم، وبإبدال كل خوف يخافونه إلى أمن وطمأنينة.

- إن مرحلة التمكين لدين الله هى مرحلة الحكم بما أنزل الله، والحكم بما أنزل الله واجب كل مؤمن ومؤمنة، أمر الله تعالى بذلك نبيه ﷺ، والمؤمنون مأمورون بذلك إلى يوم الدين، قال تعالى مخاطبًا نبيه بذلك : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

- ومظاهر التمكين لدين الله فى الأرض والحكم بما أنزل الله كثيرة نذكر منها ما يلى :

– سيادة شرع الله ونظامه ومنهجه فى الدين والدنيا،

– وأن تصطبغ الحياة اليومية بالصبغة الإسلامية فى التعامل والكلام والفعل والنوايا الحسنة وحب الخير للناس، والتعاون والتراحم والتكافل.

– وأن تصطبغ المؤسسات كلها فى المجتمع بالصبغة الإسلامية فى التعامل مع الناس، وفى الالتزام بالإخلاص فى أداء العمل وبالمحافظة على المال العام والعفة عن أكل شىء منه، وقضاء حوائج الناس، دون مقابل ودون تسويف، وتوصيل كل حق إلى صاحبه دون أن يطلبه فضلا عن أى يشقى فى سبيل الحصول عليه!!!

– وأن تعد التخصصات العلمية والتقنية فى كافة المجالات التى يحتاجها المجتمع، بحيث تسد احتياجات الناس دون استعانة بعدو صريح أو عدو فى ثوب صديق، ومن أهم هذه المجالات الحاجات الأولية من غذاء وكساء ومسكن ومصنع ومزارع ونحو ذلك.

– وأن تطبع العلاقات مع الدول التى لا تدين بدين الإسلام بطابع الإسلام وأحكامه وأخلاقه وسماحته.

– وأن تنشر دعوة الله فى كل بقعة من بقاع الأرض وأن يُعَدَّ الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والمربون للناس تربية إسلامية، والقادة والمديرون وكافة المسئولين إعدادًا إسلاميا يؤهل كلا منهم لأداء عمله الذى يمكِّن به لدين الله فى الأرض.

– وأن تؤمن للأمة المسلمة فى كل قطر من أقطارها قوة دفاع قادرة على حمايتها من أى عدو يتهددها، وذلك أن أعداء الإسلام من الكثرة والقوة على النحو الذى وصفناه. وشعار الإسلام فى التعامل مع الأعداء هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٦٠].

● وهذه المرحلة وإن كانت أرقى المراحل وأرفعها درجة فى مجال العمل من أجل الإسلام، فإن الوصول إليها لا يعنى إلقاء السلاح ولا ترك الإعداد والاستعداد، أو التوقف عن البذل والعطاء والتضحية، وإنما يعنى الثبات على ما يَسَّر الله إليه من نصر وتمكين والاستمرار عليه، وهذا هو المعنى الدقيق للثبات.

سابعاً :

مرحلة المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه

المحافظة على الاستمرار فى العمل الصالح عموما واجبة شرعا لأن النكوص عن العمل الصالح محظور، والمحافظة على حدود الله تعالى مطلب قرآنى، والمحافظة على العفة واجبة بنص القرآن الكريم.

● وإذا كانت الصلاة هى أرفع عمل صالح يقدمه الإنسان بين يدى ربه، بوصفها عماد الدين وعموده، وهى عمل يجب الاستمرار فيه والمحافظة عليه،كما جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

● وإذا كانت حدود الله، ما أحل وما حرم قد طولب المؤمنون بالمحافظة عليها، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[التوبة : ١١١ ، ١١٢] .

● وإذا كانت المحافظة المستمرة على العفة مطلب قرآنى كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

● وإذا كانت هذه الأعمال قد طولب المسلمون بالمحافظة عليها والاستمرار فى أدائها باعتبارها من صفات الإيمان والإسلام فإن هذه الأعمال وغيرها من سائر الأعمال الصالحة تعتبر تمهيداً للتمكين لدين الله فى الأرض، وأعمالا رئيسة فى مجاله.

● والتمكين لدين الله- كما أوضحنا آنفاً- هو قمة العمل من أجل الإسلام وذؤابته فإن

المحافظة عليه والاستمرار فيه واجب شرعى وإلا حدث انتكاس وتراجع عن هذا العمل الصالح، ولم يتحقق وعد الله الذى وعد به المؤمنين الذين يعملون الصالحات من الأمة الإسلامية، كما ذكرنا ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

- بل إن التمكين لدين الله فى الأرض يجعل الحياة الإنسانية أكثر استقرارا وعدالة لما يسودها من صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن زكاة تطهر المزكى وتدفع الحاجة عن المحتاج، ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١].

- والمحافظة على التمكين لدين الله فى الأرض تعنى المحافظة على المنظومة الإسلامية التى ذكرناها من إيمان وإسلام وإحسان وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعوة إلى الله وجهاد فى سبيل الله،وهى منظومة لا حياة للأمة الإسلامية إلابها، بل لا كرامة للإنسانية كلها إلا فى ظلال تلك المنظومة.

- والمحافظة على التمكين تجنب المسلمين الوقوع فيما وقع فيه المسلمون الذين قصروا فى المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه، فانهارت لهم دول وممالك، فكانوا بذلك موضع العظة والاعتبار، وموضع عذاب الله وعقابه، إذ خالفوا ما أُمروا به وما نُهوا عنه.

- وإن البحث والتحرى عن الأسباب التى أدت إلى سقوط الدول التى شادها المسلمون فى الشرق أو الغرب، يؤدى إلى تقرير حقيقة لا يملك منصف أن ينكرها وهى: أنهم لم يحافظوا على ما مكنهم الله من الوصول إليه من إقامة دولة ونظام.

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

- لو حافظ المسلمون على التمكين ما سقطت الأندلس بعد أن عمروها أكثر من ثمانمائة عام على أيدى الصليبيين.

- ولو حافظوا على التمكين ما سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية على أيدى التتار.

- ولما سقطت الشام وبيت المقدس فى أيدى الصليبيين ما يقرب من مائتى عام.

- ولما سقطت دولة الخلافة فى تركيا وتقاسمتها دول الغرب ولا تزال تسيطر عليها بعد أن جلت منها عساكرها فقط.

ولما ضاعت فلسطين واستولى عليها اليهود بهذه الصورة التى أيدهم فيها معظم دول العالم التى تزعم صداقة بعض دول المسلمين!!!

- إن المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه واجب شرعى ومطلب قرآنى، وضرورة من أجل حياة إسلامية إنسانية كريمة، للمسلمين ولغير المسلمين.

ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد.

٣- كثرة العقبات فى الطريق

من الطبيعى إذا كانت الطريق طويلة المدى ذات مجالات عديدة كما أوضحنا، وكانت متعددة المراحل، من الطبيعى أن تكثر فى هذه الطريق العقبات؛ إذ قلما تسلم طريق بهذا الطول وذاك التعدد فى المراحل.

ذلك ما أحسَّ به الإمام البنا حينما وصف طريق العمل من أجل الإسلام بقوله: «والطريق طويلة المدى بعيدة المراحل كثيرة العقبات».

● فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه العقبات لها من يضعها فى الطريق، ومن يتعمد الإكثار منها، أدركنا أن الأصل أن تكون هذه الطريق كثيرة العقبات.

● ومن سنة الله فى الحياة الإنسانية أن يسلط أهل الباطل على أهل الحق، وأهل الكفر على أهل الإيمان ليكون صراع بين الحق والباطل وليختبر الله المؤمنين، ويضعهم أمام مسئوليتهم ليجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىَّ عن بينة.

● وهذه العقبات على نحو ما سنوضح بعد قليل بلاء ومحنة يبتلى الله بها عباده المؤمنين ليجزى من صبر عليهما أحسن الجزاء وأوفاه، فهو سبحانه وتعالى الذى قرر ذلك، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿**الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ١-٣].

● وهذه العقبات بُثَّتْ فى طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فتخطوها هم والذين آمنوا معهم وجاهدوا وصبروا والله يحب الصابرين.

- وبثت فى طرق الدعاة إلى الله، والمتحركين بالإسلام فى الناس، والذين أخذوا على عاتقهم تربية الناس تربية إسلامية، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمجاهدين فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، ففاز منهم من تخطى هذه العقبات ولم يضعف أمامها، فاز برضا ربه فى الدنيا بأن مكنه ونصره وفى الآخرة بما وعد به من الجنة.

وأما من ضعف أمام هذه العقبات فقد خسر دنياه بأن عاش ذليلا خانعا، وقد يخسر الآخرة بما قصر وأهمل.

– وشياطين الجن والإنس تقوم بعمل جليل خطير فى بث العقبات وفى التخويف منها ومن إزالتها، وإثارة الرعب فى القلوب، والتحبيب فى الاستنامة والشعور أمام هذه العقبات بالعجز والرغبة فى التراجع.

● وهذه العقبات تتناسب طردياً مع غفلة المسلمين وبعدهم عن التمسك بالدين، فكلما زادت هذه الغفلة وذلك البعد عن التمسك بالدين زادت العقبات عددا ونوعا، بل تفاقمت حتى تسد الأفق.

وسنحاول فى هذه النقطة الأخيرة من هذا الكتاب أن نوضح هذه العقبات، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

أنواع العقبات

على الرغم من كثرة العقبات فى طريق العمل الإسلامى، فإن هذه العقبات متنوعة تنوعاً عديداً، وقد آثرت هنا أن أرد هذا التنوع إلى قسمين كبيرين:

قسم نابع من داخل المجتمعات الإسلامية،

وقسم مفروض على المسلمين من خارج مجتمعاتهم.

ولنتحدث عن كل واحد منهما، سائلين الله التوفيق.

أولا:

العقبات النابعة من داخل المجتمعات الإسلامية:

وذلك اعتراف بالحق وتقرير للحقيقة، حتى لا نقع فى التفسير التآمرى لكل عقبة فى طريق العمل من أجل الإسلام.

وهذه العقبات قد أحصينا منها هنا سبع عقبات ليست هى كل العقبات، ولكنها أبرزها فى تصورى.

وإنما أحصيتها هنا للتعرف عليها، من أجل التخلص منها والتغلب على أسبابها، والقضاء على نتائجها، حتى يصل العمل من أجل الإسلام إلى غايته، ويحقق هدفه، وهو التمكين لدين الله فى الأرض.

وهذه ا لعقبات السبع هى :

١- سوء فهم العقيدة الإسلامية :

والعقيدة الإسلامية تقوم على توحيد الله بالعبادة وعلى الإيمان والإسلام والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، والتمكين لدين الله فى الأرض، والمحافظة على هذا التمكين.

- وإن كثيراً من المسلمين يسيئون فهم هذه العقيدة، فلا يلتزمون بما توجبه هذه العقيدة، مما يترتب عليه فساد فى الأخلاق، وسوء تعامل مع الناس، وهضم حقوق وتقصير فى أداء واجبات، فيمثلون بذلك الفهم السيئ عقبة فى طريق العمل من أجل الإسلام.

- وللتغلب على تلك العقبة لابد من جهود العلماء والدعاة والحركيين، والمربين، وكل مشتغل بالعمل من أجل الإسلام.

وبغير التغلب على تلك العقبة يعاق العمل من أجل الإسلام ويزداد المسلمون تراجعا عن دينهم وتخلفاً فى حياتهم.

٢- وسوء فقه المسلمين للحكم والحاكم المسلم :

فقد أُتى المسلمون من جهة سوء فقههم لنظام الحكم فى الإسلام ولسلطات الحاكم المسلم، مما شكل عقبة فى طريق العمل من أجل الإسلام، وعقبة فى تقدمهم السياسى.

- لقد ضل كثير من المسلمين -متأثرين بغيرهم من الناس- فى النظر إلى الحاكم على أنه يمنح ويمنع، ويتميز بصفات تجعله مطلق السلطة، أو تجعله صاحب حق فى الحكم هو وأبناؤه وأحفاده، كأن الحكم ميراث تتداوله العائلات والأسر!!!

ولقد ضل كثير من المسلمين - مثل غيرهم من الناس- حين ظنوا أن نظام الحكم، وسلطات الحاكم يتضمنها دستور أو قانون يضعه الناس لأنفسهم أو يضعه أتباع الحاكم ورجاله للحكم والحاكم، متجاهلين أن الحقوق والواجبات جميعاً، للحاكم والمحكوم يجب أن يكون مصدرها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فضلوا بهذا الفهم ضلالاً بعيداً عن الحق وعن نظرة الإسلام للحكم والحاكم، وكانوا بهذا الخلل فى الفهم عقبة كأداء فى طريق التمكين لدين الله، بل أصبحوا بذلك أعداء لمنهج الله ونظامه.

- الأصل فى الحكم بين الناس أن يكون بما أنزله الله وما شرع للناس من نظام، ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم

بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

- والحكم بما أنزل الله يكفل الحق لصاحبه ضعيفا كان صاحب الحق أو قويا، ويلزم بأداء الواجب، ويرفع الظلم، ويحقق العدل، ويوجب الزكاة، ويحرم الربا، ويقضى على آفات المجتمع كلها من غش ونفاق وخداع وتسلط قوى على ضعيف واستبداد حاكم بمحكوم.
- والحكم بما أنزل الله أمان لكل الناس مسلمين وغير مسلمين فى كل ما يتصل بحياتهم، فى يومهم، وغدهم، ومع وليّهم، وعدوهم.
- والحاكم فى نظام الحكم الإسلامى ليس مطلق السلطات، ولا مطلق التصرف وإنما هو محكوم فى ذلك كله بما أعطاه الإسلام من حقوق وما ألزمه من واجبات.
- والحاكم المسلم لا يرث الحكم وإنما يختاره المسلمون وفق معايير وأسس معروفة من الصلاح والتقوى والكفاءة والقوة والأمانة والإخلاص والعفة، والبصر بشئون الدين والدنيا، والغيرة على الدين، ،وقبول النصح، والرأى الآخر.
- وأهم وظائف الحاكم هى المحافظة على الدين والنفس والعقل والمال والعرض، بوساطة أعوان أمناء ومن خلال تطبيق العدل والشورى والإحسان.
- وعندما يقصر الحاكم فى أداء وظائفه أو بعضها، أو يفقد شروط الحاكم الصالح فإنه يُنصح ليستقيم أمره، فإن رفض عُزل، واختير سواه وفق تلك المعايير المعروفة.

● وكل انحراف عن هذا الفهم لنظام الحكم والحاكم يمثل عقبة فى طريق التقدم والعيش الكريم للإنسان.

٣- وجمود بعض المسلمين بإغلاقهم باب الاجتهاد:

وهذا الجمود عقبة فى الطريق لا تقل خطرا عن سواها من العقبات، بل يعد الجمود سببا فى كثيرمن العقبات.

● وهذا الجمود الذى نعنيه هنا هو التشبث بأفكار أو أنماط سلوك بعينها بغض النظر عن قبول العقل الصحيح لها، أو تقبله إياها، ومن أجل أن الإسلام دين يقوم على الإرادة والاختيار ورفض التقليد فى مجال الإيمان والعقيدة فإنه يحترم العقل ويقيم له أكبر الوزن[١]. وبالتالى يرفض الجمود وإلغاء التفكير.

---

(١) انظر للمؤلف: التربية العقلية من سلسلة مفردات التربية الإسلامية -نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

● وقد أدّى هذا الجمود بأهله إلى القول بسدّ باب الاجتهاد أى تعطيل عمل العقل فى المستجدات والمتغيرات المستمرة فى حياة الإنسان، وهذا خلل وخطأ وخطيئة، لأن الإسلام دعا إلى الاجتهاد وإلى التدبر والتفكير والنظر وأخذ العبرة، فى آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية عديدة - كما أوضحنا ذلك فى كتابنا: «التربية العقلية».

● وكيف يُسَدُّ باب الاجتهاد وهو مصدر من مصادر التشريع للناس فيما لا نص فيه من الكتاب والسنة؟

● وكيف يُسَدُّ باب الاجتهاد، مع أن درء المفاسد وجلب المصالح وهما واجب على المسلمين لا يمكن الوصول إليهما إلا بالاجتهاد؟

● إن الاجتهاد فى حد ذاته رد على من يزعمون بأن نظام الإسلام وشريعته يعجز عن مواجهة المتغيرات، ورد على الزاعمين بأن الشريعة الإسلامية محلية أو إقليمية أو صالحة لزمان بعينه ومكان بعينه.

● والقاعدة المسلم بها فى باب الاجتهاد: أن كل ما يتصل بالعقيدة والعبادة والقيم الخلقية الفاضلة ثابت راسخ لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، وهذا الجانب من الدين يعتمد فيه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن ما وراء ذلك من الثوابت -وهو كثير جداً- يجتهد فيه كلما دعت إلى ذلك حاجة، وعندما يتوقف المسلمون عن هذا الاجتهاد يقعون فى الجمود والتراجع الحضارى(١).

وللاجتهاد فى الإسلام شروطه وآدابه وموضوعاته، وللمجتهد أن يخضع كل متغير أو مستحدث للاجتهاد، وليس له أن يلتزم بما وصل إليه مجتهد فى زمن سابق مهما كانت لهذا المجتهد من مكانة رفيعة، لأن ظروف الزمان والمكان تختلف بعضها عن بعض باستمرار، وأن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ.

٤- وعزل المنهج الإسلامى عن الحياة وعن الناس:

وهذا العزل لمنهج الإسلام عن الحياة وعن الناس يمارسه المسلمون أنفسهم، وهو غير عزل منهج الإسلام عن الحياة الذى يفرضه الأعداء على المسلمين أو يغرونهم به ويكافئونهم عليه.

---

(١) انظر لنا: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه من صفحة ٢٢٤ إلى صفحة ٢٢٩- نشر دار الوفاء بالقاهرة ١٤١٤ - ١٩٩٤ م.

• وهذا العزل لمنهج الإسلام عن الحياة عقبة كئود فى طريق التقدم والرقى وأخذ المكان اللائق بالمسلمين فى الحياة بل هو أهم أسباب التخلف والتراجع الحضارى الذى يعيشه المسلمون اليوم فى أوليات القرن الخامس عشر الهجرى، بل هو السبب فى الضلال والحيرة والضعف والفرقة والذل والانكسار الذى يعانى منه العالم الإسلامى اليوم.

• وهذا المنهج الإسلامى للحياة من وضع الله تبارك وتعالى بما أوحاه إلى رسوله ﷺ، فهو بهذا الوصف أنفع منهج للناس، وأقدر منهج على إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع والحياة الإنسانية بوجه عام، الحياة الإنسانية الكريمة التى ارتضاها الله تعالى للإنسان الذى كرمه وفضله على كثير من خلقه.

• هذا المنهج الإسلامى للحياة تضمن تحديداً واضحًا للحقوق والواجبات لكل إنسان فى المجتمع بغير استثناء، وألزم كل صاحب سلطة –على أى مستوى كانت هذه السلطة– بأن يؤدى الحقوق لأصحابها، واعتبر ذلك واجبا عليه، وطالب كل أحد بأداء واجباته نحو ربه ونحو نفسه ونحو الآخر، واعتبر التخلى عن أداء هذه الواجبات جريمة يستحق صاحبها عقابا دنيويا أو أخرويا، على حسب قدر التقصير فى أداء الواجب.

• وما من منهج من المناهج يحقق للناس الخير فى دنياهم وأخراهم مثل منهج الإسلام، إذ تضمن جميع الأسس التى يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية الكريمة.

– وعندما تمسك المسلمون بهذا المنهج فى حياتهم سعدوا وسادوا ودانت لهم ولمنهجهم الدنيا؛ فسعدت بهذا المنهج أيما سعادة كما شهد بذلك التاريخ والمنصفون من الناس.

– وليس أمام المسلمين وسيلة أو طريقة ليعيشوا أكرم حياة، وليستعيدوا ما كان لهم من مكانة ومنزلة لا يستعلون بها على الناس ولكن ليمارسوا من خلال المنهج الحياة الإنسانية الكريمة، ليس أمامهم وسيلة لذلك إلا الإسلام.

– وتلك حقيقة اعترف بها غير المسلمين من العلماء المنصفين فى فترات عديدة من تاريخ الإنسانية(١).

وقد سجل ذلك العالم الفرنسى «جوستاف لوبون» فى كتابه : «حضارة العرب» حيث قال : «إن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة –المنهج– التى جاء بها محمد (ﷺ) وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها، وهى التى كان يمكنها

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا : التراجع الحضارى... مرجع سابق.

وحدها أن تجمع القوى المبعثرة فى جزيرة العرب»(١).

وهى كلمة حق صدرت من غير مسلم!!!

٥- وتفرق المسلمين وضياع كلمتهم:

وهذا التفرق هو الذى فرضه المسلمون على أنفسهم، وهو غير التفرق الذى فرضه أعداء المسلمين عليهم.

وهو عقبة فى طريق العمل من أجل الإسلام، لأن الوحدة قوة والفرقة ضعف وذهاب ريح.

- وعند التأمل والتدبر فى أسباب ضعف المسلمين فى أى زمان ومكان - من يوم انتهاء فترة الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا الذى نعيشه - نجد الفرقة والتمزق عاملا هاما من عوامل الضعف والانكماش، ووقوع المسلمين فريسة فى أيدى أعدائهم.

وهذا السبب كان من أهم أسباب سقوط دول المسلمين على مر العصور، منذ عصر الخلافة الراشدة، وسقوط دولة بنى أمية، ثم سقوط دولة بنى العباس وتمزقها إلى شيع وأحزاب، ثم سقوط بغداد فى أيدى التتار، والأندلس فى أيدى الإسبان، ومصر والشام فى أيدى الصليبيين فى القرنين السادس والسابع الهجريين، وسقوط صقلية، وسقوط الدولة العثمانية وتمزيق الأمة الإسلامية على أيدى بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا، ثم الولايات المتحدة الأمريكية وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، ثم النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا...

- وعند التأمل والتدبر فى أسباب قوة المسلمين وانتصارهم على أعدائهم فى أى معركة، لا نجد سبباً أهم من وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم؛

- فقد انتصروا على المشركين واليهود فى عهد النبى ﷺ،

- وانتصروا على كل المناوئين للإسلام فى الجزيرة العربية كلها، الجزيرة العربية بمعناها الواسع،

- وقاوموا المرتدين وانتصروا عليهم فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

- وانتصروا على الروم والفرس فى عهد الخلافة الراشدة،

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب- تعريب عادل زعيتر ط. ط الحلبى- القاهرة دون تاريخ، ومودع بدار الكتب المصرية فى عام ١٩٦٩ م.

- وتوالت انتصاراتهم بعد ذلك حتى نشروا الإسلام فى نصف قرن من الزمان فيما يقرب من نصف العالم، انتصروا لأنهم قاتلوا صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص.

- ثم حدث التمزق والانقسام والفرقة والخلاف فدب فيهم الضعف، واستيقظت فيهم النزعات العرقية، والإقليمية وغيرها من مظاهر الفرقة، فكان ما كان من الانكماش والهزائم أمام الأعداء.

- ومن الملاحظ اليوم أن فرقة المسلمين فى تزايد، وأن هذه الفرقة تمثل أقوى العقبات فى طريق التمكين لدين الله فى الأرض.

- ولابد من إزالة هذه العقبة من الطريق!!!

فهل يفعل المسلمون؟ نرجو.. وندعو الله..

٦- وعجز المؤسسات التربوية عن التربية الإسلامية:

وقد أشرت من قبل إلى أن هذه المؤسسات هى:

البيت، والمسجد، والمدرسة، والنادى، والمجتمع.

- وقد عجزت هذه المؤسسات فى وقتنا هذا عن التربية الإسلامية الصحيحة، فكانت بهذا العجز عقبة فى طريق العمل من أجل الإسلام والتمكين لدين الله فى الأرض.

- ولكل واحدة من هذه المؤسسات أسباب عجزها، على نحو ما نشير إليه فيما يلى:

- البيت:

وهو أول المؤسسات التربوية وأهمها، لأنه يشكل الأبناء منذ نعومة أظفارهم مسلمين صالحين، أو يدعهم للعوامل التى تباعد بينهم وبين دينهم، وهى عوامل كثيرة نشير منها إلى ما يلى:

- القيم الوافدة على البيت المسلم من أعدائه والأخلاق المستوردة المعادية للإسلام وأحكامه وأخلاقه وآدابه.

- وهذه القيم والأخلاق المعادية تزحم القيم الإسلامية وتعمل على طردها من حياة المسلمين، وقد وفد علينا ما أفسد قيمنا الإسلامية فى الطعام والشراب والملبس والمسكن مما تبثه وتشجع عليه وتعتبره من مظاهر التقدم والتحضر أجهزة الإعلام كلها من صحافة

وإذاعة مسموعة أو مرئية وسينما ومسرح وغيرها.

- وكل ذلك أدى إلى انكماش القيم الإسلامية لتحل محلها القيم المعادية باسم الحرية الشخصية حينا، وباسم تحرير المرأة من قيودها حينا، وباسم العلمانية حينا، وباسم عداء كل ما هو نابع من الدين عموما ومن الإسلام خصوصا(1).

- حتى مرجعيات البيت المسلم الثقافية كالكتب والمجلات والصحف والأشرطة المسجلة صوتا وصورة، وأجهزة استقبال البث الإذاعي المرئي، وما تحمله هذه المرجعيات من دعوة مباشرة أو غير مباشرة أدى إلى الابتعاد عن القيم الإسلامية والارتماء في الثقافة اللا دينية أو اللا إسلامية.

- فهل يتمكن البيت من أن يربي أبناءه تربية إسلامية صحيحة، وتلك ظروفه؟

ألا يمثل ذلك عقبة في طريق الإسلام وطريق التمكين لدين الله في الأرض؟

إن العمل على أن يمارس البيت تربية أبنائه على القيم الإسلامية هو أحد الوسائل للتمكين لدين الله في الأرض.

- والمسجد:

أصبح المسجد في ظل التيارات المعادية للإسلام، الصارفة عن قيمه وأخلاقه، أصبح مجرد مكان تؤدى فيه الصلوات ثم تغلق أبوابه معظم النهار وطول الليل، مع أن الأصل فيه أنه مؤسسة تربوية هامة تكمل عمل البيت المسلم في تربية الأبناء.

- إن للمسجد في التربية الإسلامية مهمة جليلة، إذ يتعلم فيه المسلمون صغارا وكبارا، معظم القيم الإسلامية الفردية والاجتماعية من: نظام وطاعة ونظافة ودقة في العمل والأداء، وعقد روابط الأخوة بين المسلمين وتفقد من غاب وعيادة المريض، والعمل الجماعي، والإسهام في تنظيف المسجد وترتيب مكتبته، وتلقي العلم فيه وغير ذلك من الكثير الذي يتربى عليه المسلم في المسجد(2).

- إن الأصل أن يصطحب الأب أبناءه إلى المسجد عند كل صلاة ليأخذوا من المسجد كل هذه القيم، فهل يفعل الآباء ذلك؟

---

(1) انظر للمؤلف: تربية الناشئ المسلم- نشر دار الوفاء بالقاهرة: ١١٤١ هـ - ١٩٩١ م.

(2) انظر للمؤلف: المسجد وأثره في المجتمع المسلم- نشر دار المعارف بمصر ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م. وقد أعيد طبعه مرارا.

وهل تسمح وزارات الأوقاف ووزارات المساجد فى العالم الإسلامى بفتح أبواب المسجد طوال النهار، وبعقد الدروس والندوات الدينية فى رحابه، أم تغلقه خوف أن يغشاه من سموا بالمتطرفين والإرهابيين، والرجعيين وغيرهم؟

● هل يستطيع المسجد اليوم -فى ظل ظروفه هذه- أن يسهم هو وإمامه ومكتبته فى تربية أبناء المسلمين تربية إسلامية، بحيث يحفظُ روادُه القرآن الكريم ويتعلمون من تفسيره وقيمه فى الحياة ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم. ويتعلمون من أحاديث النبى ﷺ وسيرته ما يبصرهم بحياتهم ويفقههم فى دينهم ودنياهم؟

● هل يستطيع المسجد أن يربى المسلمين تربية إسلامية بحيث تسيطر روح المسجد على رواده، فإذا هم مؤمنون صالحون أتقياء أنقياء، لبنات صالحة فى مجتمع مسلم صالح؟ يسوده الحب فى الله والتعاون والتآخى؟

إن المسجد ما لم يفعل ذلك فإن عقبة كأداء تقف فى طريق العمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض.

- **المدرسة**:

وهى -بما هي عليه من حال- أشد عجزا من البيت والمسجد، مع أن المدرسة منوط بها العملية التعليمية.

● إن ظروف المدرسة اليوم من أسوأ الظروف من حيث مناهجها ومقرراتها الدراسية ومدرسوها ومبانيها، ومسئولوا التعليم فيها، وإنما كانت ظروفها سيئة لأنها حافلة بكثير مما لا يدعم التربية الإسلامية ولا ينميها، فضلا عما فيها من تيارات معادية للإسلام!!!

- كيف تربى المدرسة أبناءها تربية إسلامية، وهى لا تعطى العلوم الإسلامية فى خطتها الدراسية حظ اللغة الأجنبية فى عدد الحصص والساعات، أو فى المحتوى؟

- وكيف تستطيع المدرسة تربية الأبناء تربية إسلامية، فى حين أن مدرسى التربية الإسلامية بعضهم لا يحسن قراءة القرآن الكريم، فضلا عن أن تتمثل فيه أخلاق القرآن؟

- كيف يمكن للمدرسة أن تربى تربية إسلامية بينما حصص التربية الإسلامية فى آخر اليوم المدرسى بعد أن يكون التلميذ قد فقد كثيرا من القدرة على التركيز، وتعب من التحصيل المدرسى فى المقررات الأخرى طوال اليوم؟

– كيف تستطيع المدرسة أن تربى تربية إسلامية فى بلد يتبنى العلمانية فى فكره وثقافته وسياسته واقتصاده وأخلاقه؟

– كيف تستطيع المدرسة ذلك وهى تشن حملات ضارية على الكتاب الإسلامي وتطرده من مكتباتها وتطارده فى أى مكان؟

● ومن أجل عجز المدرسة والمسجد والبيت عن تربية الأفراد تربية إسلامية، فإن المجتمع يحفل بالجرائم والانحرافات الخلقية، كما تنبئ بذلك الصحف وأجهزة الإعلام!!

● أليس هذا العجز عقبة فى طريق، تحتاج إلى مزيد من الجهد والوقت والدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى؟

– **والنادى:**

وهو فى معظم بلدان العالم الإسلامى إما أن يكون ناديا ثقافيا تسيطر عليه الحكومات وأفكارها العلمانية، فيفرز كل ما هو معاد للإسلام والمسلمين!!!

وإما أن يكون ناديا رياضيا يهتم ببناء الأجسام ويهمل بناء الأخلاق، لأن الفكر العلمانى يسيطر على القائمين عليه!!!

وكذلك شأن الأندية الاجتماعية والمهنية.

ولنا أن نتساءل قائلين:

– هل ينادى للصلوات فى أوقاتها فى تلك النوادى؟

– وهل يستجيب أعضاء النادى لنداء حى على الصلاة حى على الفلاح؟ أم يصنف من استجاب لذلك إرهابيا متطرفا؟

– وهل هناك علاقة بين هذه الأندية وبين الدين عموما والإسلام خصوصاً؟

– **والمجتمع كله:**

وهو الشارع والسوق وأماكن التجمع فى مجالات العمل وفى وسائل المواصلات، هل لهذه التجمعات علاقة بقضية: هذا حرام وهذا حلال، فتجتنب الحرام، وتقبل على ما أحل الله؟ أو هذا معروف وذاك منكر؟

● وما دام البيت قد عجز عن التربية الإسلامية لأبنائه، ومادام المسجد فى البلدان الإسلامية

على النحو الذى وصفناه، وما دامت المدرسة متجهة فى عكس اتجاه التربية الإسلامية فكيف يستطيع المجتمع أن يكون مجتمعا مسلما تسوده قيم الإسلام وأخلاقه؟

● وبعد:

أليس عجز هذه المؤسسات عن التربية الإسلامية عقبة فى طريق إصلاح المجتمع، وفى طريق تجديد الدين فى نفوس الناس، وفى أى عمل إصلاحى، يؤدى إلى التمكين لدين الله فى الأرض؟

– أليست هذه عقبات تحول بين الإصلاح لشئون الدين وشئون الدنيا؟

– أليس ذلك يحتاج –كما أسلفنا– إلى مزيد من الجهد والوقت والمال، والتعاون والتواصى بالحق والتواصى بالصبر؟

– أليست هذه العقبات فى حاجة إلى جهود العلماء المتخصصين فى كل فرع من فروع المعرفة؟ بلى، إنه محتاج لذلك.

غير أن المتشككين والمتشائمين، وقصار النظر يقولون: متى هو؟

والرد عليهم وعلى أمثالهم هو: عسى أن يكون قريباً!!!

٧– وضعف روح الجهاد فى الأمة الإسلامية:

من المسلَّم به أن الله تعالى شرع الجهاد للأمة الإسلامية لكى تكون أمة قوية تستطيع حماية نفسها من أعدائها، وحماية مبادئها وقيمها وأخلاقها، ونشر دعوة الله فى عباد الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

● إن هذا الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ولتمكين دين الله فى الأرض فريضة ماضية إلى يوم القيامة وهو فريضة تجب على كل قادر عليها باستمرار لا توقف فيه، كالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وسائر ما فرض الله على عباده.

– والجهاد ليس له حد يتوقف عنده، وإنما على المسلم أن يجاهد فى سبيل الله تعالى ما وسعه، لأن الله تعالى طالبه بأن يجاهد فى سبيله حق الجهاد، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [**الحج**: ٧٨].

– وحق الجهاد هو أن يستمر الجهاد بكل أنواعه حتى لا يعبد غير الله فى الأرض، وحتى تعلو كلمته، ويسود منهجه، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى يتخلص الناس من عبادة العباد وعبادة المال والهوى، ويتجهوا إلى عبادة الله وحده.

– فماذا فعل المسلمون فى هذا الجهاد؟

- لقد تحول الجهاد –فى الأمة المسلمة التى ضعفت فيها روح الجهاد– إلى فريضة معطلة، وإلى عمل راكد خامد، لقد ضيع المسلمون الجهاد فضعفوا واستكانوا، وطمع فيهم كل عدو لهم، وتمزقت وحدتهم وذهبت شوكتهم وأصبحت بلادهم تحت سيطرة أعدائهم؟

- لقد ترك المسلمون الجهاد بترك تربية أبنائهم على الجهاد. وإذا ضاع الجهاد من أمة فقدت قدرتها على العطاء، وفقدت حماسها فى العمل كله، وفقدت أسباب القوة المادية والمعنوية، وفقدت هيبتها ومكانتها، وما ينتظر من أمة هذا شأنها غير أن تكون ضعيفة منهارة مطمعًا لأعدائها!!!

- إن ضعف روح الجهاد فى الأمة المسلمة عقبة فى طريق العمل من أجل الإسلام، وفى طريق التمكين لدين الله فى الأرض، بل فى طريق اكتمال الإسلام فى المسلمين.

وبعد :

فإن هذه العقبات السبع التى ذكرتها ليست كل العقبات فى طريق العمل الإسلامى، ولكنها نماذج، وكل أنموذج منها تتفرع عنه عشرات العقبات الأخرى التي لا تقل خطرا عن تلك العقبات.

وعلى سبيل المثال :

– فإن انتشار الانحرافات الأخلاقية، وانتشار الجرائم، ليس إلا فرعًا لعقبة من تلك العقبات السبع.

– وإن ذيوع عقوق الأبناء لآبائهم، وتخلى بعض الآباء عن واجباتهم نحو أبنائهم، ليس إلا فرعا من أصل.

– وإن التخلف العلمى والتقنى والتراجع الحضارى، ليس إلا فرعًا من أصل من هذه الأصول السبعة.

– وكذلك الشأن فى الضعف الاقتصادى، ورداءة الإنتاج وقلته، والتسيب فى العمل،

وانتشار الرشاوى والفساد واستغلال المنصب والتربح به، كل تلك عقبات متفرعة عن هذه العقبات السبع التى نبعت من داخل المسلمين بابتعادهم عن دينهم منهجه وأحكامه وأخلاقه.

أما العقبات التى اعترضت طريق العمل من أجل الإسلام والتمكين لدين الله، وجاءت من خارج الأمة المسلمة، فهى التى نشير إليها فى هذه الصفحات الأخيرة من الكتاب، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

ثانيًا:

العقبات المفروضة على المسلمين من الخارج

وهذه العقبات كثيرة متعاونة يأخذ بعضها بحجز بعض، وقد أغرى الأعداء بها وبثها فى طريق الأمة الإسلامية، علاوة على تلك العقبات الداخلية التى أشرنا إليها آنفًا.

- والعدو من شأنه أن يبحث فى عدوه عن نقاط ضعفه ويوجه إليه فيها الضربات تلو الضربات حتى يقضى عليه أو يفقده أى قدرة على المقاومة، وكلما ابتعد المسلمون عن التمسك بدينهم ومنهجه ونظامه كلما أعطوا عدوهم فرصة ليوجه إليهم ضربة فى مقتل، وأعجب ما فى أمر المسلمين اليوم أنهم لا يدركون ذلك، بل يعتبرون التمسك بالإسلام ومنهجه رجعية وظلامية وتمسكا بنظام مضى وقته وذهبت فرصه ومات ناسه وأهله!!!

● وأعداء الإسلام هم أعداء الله الذى طالبهم بالدخول فى هذا الدين الخاتم، حتى لو كانوا من أهل الديانات الأخرى، وليس ذلك تعصبا للإسلام ضد الأديان الأخرى، ولكنه أمر الله الذى اقتضته حكمته سبحانه وتعالى حينما جعل دين الإسلام خاتم الأديان وخص به محمداً خاتم الرسل والأنبياء، وأورث أمة محمد نشر هذا الدين فى الناس، وأداء واجباته.

● هؤلاء الأعداء، ليسوا يعادون المسلمين بقدر ما هم يعادون الله تعالى ومنهجه ونظامه ودينه الذى ارتضاه للبشرية كلها دينًا.

● وأعداء الإسلام دول ومؤسسات وأنظمة وتيارات وأفراد لا يقلون خطرا عن هذه الدول والمؤسسات.

وقد لا يعنينا الحديث عن الأفراد -على خطرهم[1] - بقدر ما تعنينا الإشارة إلى المؤسسات والدول والأنظمة، وما قصدنا فى هذا الكتاب الاستيعاب فى الحديث عنها، ولكنها الإشارة فحسب، والله الموفق.

● وهذه العقبات التى فرضت على المسلمين من خارجهم فى تصورى، وفى الواقع ثلاث هى:

١- اليهود أو الصهاينة.

٢- والصليبيون قدامى وجُدد.

٣- والنظام العالمى الجديد.

وسوف أخص كلا منها بحديث شديد الإيجاز.

---

(١) أشرنا إلى بعض هؤلاء الأفراد، وذكرنا بعض أعمالهم المعادية للإسلام فى كتابنا: الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى- نشر دار المنار بالقاهرة- مرجع سابق.

١ – اليهود:

وأبادر فأقول: إن اليهودية والصهيونية وجهان لعملة واحدة، وإن القائلين بأن اليهودية دين والصهيونية مذهب سياسى غافلون غفلة شديد عن حقائق الأمور.

● اليهود يعادون الإسلام –كما عادوا المسيحية– عداء تقليديا موروثا، من يوم جاء محمد ﷺ فخالفوه واتهموه وخانوه وغدروا به ونقضوا عهودهم معه، وألبوا عليه أعداءه وظاهروهم عليه، وحاولوا اغتياله أكثر من مرة. منذ ذلك التاريخ، وإلى يومنا هذا وإلى كل يوم آت إلى يوم القيامة، هم الأعداء الأصلاء للإسلام والمسلمين، ينطق بذلك سجل أعمالهم ولا ندعى عليهم ما ليس فيهم، ونتمنى أن يخرجوا من صف العداوة ولكنهم لن يفعلوا!!!

● ومهما تصالح اليهود مع المسلمين، أو طبعوا العلاقات بهم فإن عداءهم للإسلام والمسلمين لن يتوقف ولن يهدأ ولن يضعف، ولا يغتر بمعاهدات اليهود إلا الغافلون ولا يثق فيهم إلا الجاهلون والسفهاء.

– إن اليهود إذا تمكنوا من عدو تفننوا فى إذلاله وإضعافه فى قسوة وضراوة لم تعرف لها البشرية نظيرا عند غيرهم. إن التجبر صفة أساسية فى اليهود وخصوصاً إذا ملكوا سببا من أسباب القوة، وللتدليل على ذلك– وهو فى غير حاجة إلى دليل – أنقل عن جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٧ من شهر المحرم سنة ١٤١٨ هـ الموافق ٣/٦/١٩٩٧ م ما يلى:

« ... وها هى الأيام تبرهن على صحة ذلك عندما تكشفت النيات العدوانية لإسرائيل من وراء امتلاكها لتلك الأسلحة (يقصد الكاتب امتلاكها لأكثر من مائتى رأس نووى ووسائل صاروخية تحمل تلك الرءوس إلى مدى يصل بها إلى جميع العواصم العربية والإسلامية)[١] فقد انبرى رئيس لجنة الطاقة بمكتب رئيس الوزراء الإسرائيلى: « جيدعون فرانك » ليوجه لنا التهديد والوعيد ويقول: إن إسرائيل لن تتخلى عن قدرتها النووية إلا بعد أن تصل إلى وضع نموذجى أمثل، مع مصر وسوريا، على غرار علاقات البرازيل والأرجنتين.

والتلويح الإسرائيلى باستخدام تلك الأسلحة، وإن كان فى نظر البعض يعتبر أول سابقة فى هذا المجال، إلا أننا نعتبره نتيجة منطقية لتغاضى المجتمع الدولى، وعلى رأسه الولايات

---

(١) الأهرام: ٣/٦/٩٧ إبراهيم نافع. عمود حقائق.

المتحدة عن تكدس الأسلحة التقليدية وغير التقليدية لدى إسرائيل.

والمثير للدهشة هو أن إسرائيل وهى تعلن عدم تخليها عن أسلحتها النووية تصر على استمرار تجريد الدول العربية من أى أسلحة مماثلة، ولا تكتفى فقط بمهاجمة المفاعلات النووية العربية التى فى طور التكوين، وإنما تلاحق العلماء العرب وتمنح نفسها حق اغتيالهم، وتدعى فى النهاية أنها واحة الديمقراطية والحكم الدستورى الديمقراطى!

فأى تناقض بين هذا وذاك؟ وأى إصرار على منطق القوة فى الوقت الذى كثيراً ما زعمت فيه إسرائيل أنها تطلب السلام؟!

٢- والصليبية الجديدة:

الصليبيون الجدد هم ورثة الصليبيين القدامى الذين حاربوا المسلمين فى الأندلس وصقلية، وقادوا الحملات الصليبية على مصر والشام، والذين تحالفوا مع اليهود للقضاء على دولة الخلافة العثمانية فى تركيا.

- والصليبيون الجدد اليوم هم أوربا وأمريكا، وعداؤهم للإسلام والمسلمين واضح جلى يصرح به كبار زعمائهم ما بين حين وآخر، مما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ويؤيدهم فى ذلك العداء الاتحاد الروسى لحاجته إليهم واستدانته منهم، ويؤيدهم فى هذه الصليبية كل مستفيد من عداء المسلمين لإرضاء هوى فى نفسه أو لتحقيق مكسب من أى نوع من المكاسب كالملحدين والوثنيين وغيرهم.

- وهدف الصليبية الجديدة باختصار شديد هو أن يرجع المسلمون عن إسلامهم بأى طريق سواء دخلوا فى النصرانية -كما تحاول الكنائس كلها- أم بقوا بعيدين عن الإسلام.

- وكل سياسات الصليبية الجديدة وأعمالهم تؤكد ذلك فى أى بقعة من بقاع العالم، أى اجتثاث المسلمين والقضاء عليهم تعذيبا وقتلا كما هو حادث فى الشيشان والبوسنة والهرسك، والفليبين والهند والصين، وكثير من دول إفريقية وآسيا، أو اقتلاع الإسلام من صدورهم وقلوبهم وتجريم اعتناقه والزراية بالمتمسكين به واتهامهم بكل جريمة كما هو حادث فى كثير من البلاد العربية والإسلامية فضلا عن البلاد الأوربية التى تضطهدهم مثل فرنسا وأسبانيا وهولندا وغيرها.

- والصليبية الجديدة هى التى تحاصر العالم الإسلامى اليوم سياسيا واقتصاديا وفكريا وثقافيا، وتشوه برامج التعليم فيه وتفتح صدرها وربما خزائنها لكل من يتهجم على

الإسلام أو يضطهد المسلمين.

- والصليبية الجديدة هى التى تدعم اليهود وتمدهم بكل الأسباب التى تجعلهم وحدهم أقوى من الدول العربية مجتمعة سلاحا واقتصادا وقدرات عسكرية!
- والصليبية الجديدة وراء كل ضرب للحركات الإسلامية فى أى بلد عربى أو مسلم، وهى التى حالت دون أن تشكل جبهة الإنقاذ الإسلامى حكومة فى الجزائر بعد أن نجحت فى الانتخابات، فسلطت فرنسا وأوروبا وأمريكا الجيش الجزائرى على إلغاء الانتخابات، وضرب جبهة الإنقاذ مما كان له أسوأ الأثر فى الجزائر وفى العالم الإسلامى كله.
- والصليبية الجديدة هى التى تحول بين أى دولة عربية أو إسلامية والتقدم فى أى مجال من مجالات العلم والتقنية، تارة بالتحدى، وتارة بالتآمر والدسائس وتارة باصطناع الثورات العسكرية وسيطرتها الضاغطة التى تقضى على الإبداع لما تبثه فى الناس من رعب وخوف وسجن وتعذيب ومصادرة للحريات وللأموال وقضاء على كل تحرك إسلامى.
- والصليبية الجديدة هى التى تحرك التيارات المعادية للإسلام، وتشجع بعض الغافلين المغرورين من الكتاب على التهجم على الدين، وتكافئهم على ذلك، وتستضيفهم وتغدق عليهم!!!

٣ - والنظام العالمى الجديد:

وهو نظام ابتكرته الولايات المتحدة الأمريكية لتسيطر به وحدها على العالم كله سيطرة سياسية واقتصادية ولتقضى به على الإسلام والمسلمين.

- والولايات المتحدة الأمريكية تستحق وحدها أن تكون صنفا من أعداء الإسلام، لما قامت به وحدها من أعمال عدائية ضد الإسلام والمسلمين، وضد أى دولة ترفع شعار الإسلام، فهى التى اصطنعت الحرب بين العراق وإيران للقضاء على البلدين المسلمين واستنزافهما، وهى التى حرضت العراق على احتلال الكويت لتصطنع حرب الخليج، فتشرى منها ثراء مستمرا يطول عشرات السنين، وتسيطر بها على الأمة العربية كلها وعلى دول الخليج بوجه خاص، وتقيم فيها القواعد العسكرية على حساب تلك الدول، وتحتلها بجنود يتقاضون أجورهم وثمن نفقاتهم من دول الخليج وتضرب فى هذه الحرب العرب بالعرب والمسلمين بالمسلمين!!! ألا تستحق بهذا أن تصنف عدوا مستقلا للإسلام والمسلمين؟.

● وقد ابتكرت الولايات المتحدة الأمريكية النظام العالمى الجديد، ليأخذ على عاتقه معاداة الإسلام والمسلمين فى كل مكان فى العالم!

- ولهذا النظام العالمى الجديد فى حرب الإسلام والمسلمين وسائله وأساليبه التى يعرفها العرب اليوم كما يعرفون أنفسهم ويعرفها المسلمون جميعا، وقد اكتووا بنار أسلحة النظام العالمى الجديد: طائراته وصواريخه ورجال مخابراته، ومؤامراته ودسائسه ويهوده.

- وهذا النظام العالمى الجديد يوجه ضرباته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية إلى كل بلد مسلم يحتمل أن تقوم فيه حكومة إسلامية، فضلا عن الحصار والتضييق، مستغلا فى ذلك المؤسسات الدولية المعروفة، وإن كان بعضها يبدو بعيدا عن ذلك مثل:

صندوق النقد الدولى،

والبنك الدولى...

والجات... وغيرها من المؤسسات التابعة شكلا لهيئة الأمم المتحدة، وحقيقة للولايات المتحدة الأمريكية التى لا تسدد اشتراكاتها لهيئة الأمم المتحدة!!!

- ولا تزال أيدى النظام العالمى الجديد تقطر دمًا من دماء المسلمين فى العراق وليبيا والسودان وإيران والشيشان وأفغانستان وتركيا، والبوسنة وغيرها، ولا تزال أيدى النظام العالمى الجديد ملطخة بل مشوهة بالميزان الظالم الذى يزن به مصالح الناس فى هذا العالم فيكيل بمكيالين ويزن بميزانين.

- وأبرز ما فى هذا النظام العالمى الجديد أنه رأس حربة لإسرائيل، وأداة من أدوات تنفيذ سياستها واستمرارها فى صلفها وعنادها ونقضها لمعاهداتها.

وحسبى هذا، فى هذا الكتاب[١].

وبعد:

فعلى الرغم من طول الطريق، وبعد مراحلها، وكثرة العقبات فيها، كما أوضح ذلك الإمام البنا رحمه الله تعالى، فإنها «وحدها التى تؤدى إلى المقصود مع عظيم الأجر وجميل المثوبة» كما يقول أيضا.

---

(١) انظر لنا للتوسع: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى... مرجع سابق.

• إن الطريق إلى التمكين لدين الله فى الأرض، هى الطريق التى يلزم السير فيها والثبات عليها والصبر على متاعبها، لأن تحقيق الهدف لا يكون إلا من خلالها وعلى قدر المعاناة التى تحدث فيها يكون الأجر العظيم عند الله تعالى، ويكون النصر والتمكين فى الدنيا بإذن الله تعالى.

الخــــاتمـــة

الحـمـد لله أهل الحـمـد، على مـا وفق إليـه، وأعـان عليـه من إتمام هذا الكتـاب - الحلقـة السابعة من سلسلة: «فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا» وهو ركن الثبات.

سائلا الله تبارك وتعالى أن يتدبر القارئ فيما جاء فيه ويعمل العمل الذى يمكن لدين الله فى الأرض ويثبت عليه ويصبر على لأوائه، حتى يحظى بإحدى الحسنيين فإنه بغير هذا الثبات فلن يكون تمكين.

والله سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة والتجاوز عن السيئات.

وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت

نستغفرك ونتوب إليك.

على عبد الحليم محمود

ثبت موضوعات الكتاب

الفصل الثالث

الثبات فى تاريخ المسلمين

الباب الثانى

الفصل الأول

أنواع الثبات

الفصل الثانى

خُلُقيات الثبات وأدبياته

الفصل الثالث

طبيعة الطريق فى العمل من أجل الإسلام وضرورة الثبات فيه